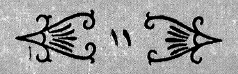
محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم





محمد عبد المنعم خفاجي



أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١١)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين . . وبعد :

فهذا هو الجزء الحادى عشر ، من تفسيرى لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائقه وأصوله .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هـذا التفسير ونشره : من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على مميزات هـذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول وما توفيق إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

تمهيد

(١)

هذا الجزء من التفسير ، كالأجزاء السابقة ، ينطق عما بذل فيه من جهود، تهدف إلى الكشف عن روح القرآن الكريم ومراميه وأسراره ومبادئه ومثله وأفكاره .

وليس من عادتنا النظر إلى كتاب الله آية آية ، ومعنى معنى . وإنما ننظر إليه فكرة فكرة ، وموضوعا موضوعا ، نصل اللاحق بالسابق ، ونتمم السابق باللاحق ؛ ونعرف أن وراء كل سورة هدفا وغاية ومرمى ترمز إليه ، وتدل عليه . . وهذا هو الفرق بيننا وبين سائر المفسرين الذين يتناولون كتاب الله كلمة كلمة ، وجملة جملة ، وآية آية ، ومعنى معنى من المعانى الجزئية ، بينما نتناوله جملة من الآيات تدل على موضوع واحد ، وننتقل منها إلى جملة أخرى ذات موضوع جديد آخر . . .

نعرف بمعنى كل جملة من الآيات ، وما يكمن فيها من إشارات وأسرار ولطائف عديدة ، وما ترشد إليه من أحكام وأخلاق وآداب ، وما توحى به من مبادىء ومثل وقيم ، ناظرين فى ذلك كله بروح العلم الحديث ، والمدنية الماثلة فى كل شىء . . مع العناية بتصوير الجو الروحى الذى نزلت فيه الآيات ،وأسباب نزولها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها ، ومع شديد الاهتمام بالجوانب الفنية العامة فى أسلوب القرآن ، والبعد ما أمكن عن الاصطلاحات والمصطلحات ؛ لأن القرآن هداية عامة ، فيجب أن يكون تفسيره بأسلوب حديث سهل ، يدركه الناس كافة ، لا فرق بين عامتهم وخاصتهم على حد سواء .

إن القرآن الكريم يجب أن تخلو تفاسيره من الغموض والإبهام ، ومن الاصطلاحات فى النحو والبيان وسواهما ، ومن كل مايعوق دون الفهم والإفهام وهذا هو صنيعنا فى هذا التفسير ، الذى نرجو أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

(٢)

وماذا نقول والموضوع كتاب الله ، والمقصود خدمة هذا الكتاب وتقريب هدايته للناس ، هذه الهداية التى هى آخر الرسالات ، ونهاية النبوات ، وخاتمة الدعوات السماوية التى نزل بها جبريل من السماء إلى الأرض .

فى سبيل ذلك يكون من الحظ الأوفى أن يعمل العاملون ، ويكدح الكادحون ، ويجتهد المجتهدون . ولى من هذا الحظ ما يملأ لسانى ثناء ونداء وقلبى تفرغا ودعاء إلى الله ، بأن يجعل هذا العمل المبرور خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفق لإكماله وإتمامه ، بقدرته ومشيئته ، إنه على مايشاء قدير .

(٣)

وعندما يكمل هذا التفسير وتنتهى أجزاؤه الثلاثون ، سوف يدرك الناس بعون الله وفضله أنهم أمام موسوعة إسلامية ضخمة ، تتناول القرآن الكريم ، ومبادئه ، والإسلام وأصوله ، والحياة الإنسانية وأطوارها وتشريعات الرسالة المحمدية وأحكامها ، بالتفصيل والشرح والبيان . بما ليس بعده بيان .

وأسلوب العصر الحديث وروحه فى الفهم والكتابة والبيان واضحان كل الوضوح فى هذا التفسير ، مما يعد ميزة جديدة أخرى له .

(٤)

وإنى لأضرع إلى الله عز وجل أن يؤيد هذا المسعى ، ويبارك تلك الخطى ، إنه سميع الدعاء ، وولى العاملين ، ونصير الطائعين المخلصين .. وما توفيق إلا بالله ؟

المؤلف

(٩)

ســـورة التوبة

فاتحة سورة التوبة

(١)

سورة التوبة مدنية ، إلا الآيتين الأخيرتين ، فهما مكيتان ، وقد نزلت بعد سورة المائدة ، وتبلغ جملة آياتها ١٢٩ آية .

وجاءت هذه السورة بعد سورة الأنفال فى الترتيب لما اشتملت عليه من تفصيل كثير للإجمال الذى جاءت به سورة الأنفال ؛ والأنفال والتوبة يعدان كسورة واحدة تتمم السبع الطوال ، ورأى كثير من الصحابة أنهما سورة واحدة ، وعللوا ترك التسمية فى أول التوبة بهذا .

ونلاحظ أن سورة الأنفال قد جاء فيها ذكر العهود ، وجاء فى سورة التوبة ذكر نبذ العهود ، وختمت سورة الأنفال بذكر فرض الموالاة بين المؤمنين ، وقطعها بينهم وبين الكفار ، وافتتحت سورة التوبة بهذا ، وكل من سورتى الأنفال والتوبة نزل فى القتال .

(٢)

ويلاحظ أن سورة التوبة قد نزلت فى ذى القعدة ، أو فى ذى الحجة من السنة التاسعة للهجرة ، وقد سميت باسم التوبة لأنه قد ذكرت فى الآيتين ١١٧ و١١٨ توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك .

(٣)

وفى سورة التوبة تحديد لعلاقة المسلمين بأعدائهم فى آخر عهد النبوة . وكان أعداء الإسلام ثلاث طوائف :

١ — أولاها مشركو العرب ، وقد نبذت فى هذه السورة عهود الذين لم يوفوا بعهودهم منهم ، وأمهلوا فيها أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، وأتم فيها عهد من وفى بعهده إلى مدته لتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم .

٢ — من حاربهم الرسول من اليهود والنصارى ، وقد أمر الرسول بقتالهم إلا إذا دفعوا الجزية .

٣ — المنافقون ، وقد فضحوا فى هذه السورة وكشفت أسرارهم ، وأمر المسلمون بمقاطعتهم والبعد عنهم .

وهذه السورة تنقسم إلى قسمين :
أولهما : فى الكلام على المشركين وأهل الكتاب .
وثانيهما : فى الكلام على المنافقين .

وقد استطرد فى أثناء ذلك إلى بعض الحوادث التى وقعت فى تاريخ نزول هذه السورة ، كغزوة حنين ، وغزوة تبوك .

وهذه السورة هى من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ولها عدة أسماء : التوبة ، براءة ، المشقشقة ، المبعثرة ، المنفرة ، المخزية ، الفاضحة ، المنكلة ، المشردة ، سورة العذاب . وإنما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمؤمنين ، والشقشقة من النفاق ، وهى التبرى منه ، والبحث عن حال المنافقين ، والتنفير منها ، وبيان ما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ، ولم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم ، وأخرج فى معناه على أن البسملة أمان ، وهى نزلت لدفع الأمن بالسيف ، وعن حذيفة: إنكم تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب ، وروى البخارى عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، وقيل : كان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه سورة أو آية بين موضعها فتوفى ولم يبين موضعها ، وكانت قصتها تشابه قصة الأنفال وتناسبها ؛ لأن فى الأنفال ذكر العهود ، وفى براءة نبذها ، فضمت إليها ، ولكن يبعد أن يقال إنه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة

تالية لسورة الأنفال ، لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى ، ومن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ، ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى بعض السور وفى آيات من السورة الواحدة ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، بل الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحياً ، وأنه عليه الصلاة والسلام حذف «بسم الله الرحمن الرحيم» من هذه السورة وحياً ، والقول بأن قصتها تشابه قصتها وتناسبها فضمت إليها إنما يتم إذا قلنا إنهم إنما وضعوا هذه السورة من قبل أنفسهم لهذه العلة .. وقيل : إن الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى أن سورة الأنفال وسورة براءة سورة واحدة أم سورتان ، فقال بعضهم : هما سورة واحدة لأن كلتيهما نزل فى القتال ، ومجموعهما هو السورة السابعة من الطوال وهى سبع ، وهما معا مائتان وست آيات فهما بمنزلة سورة واحدة ؛ وفيهم من قال : إنهما سورتان ؛ فلما ظهر الاختلاف من الصحابة فى هذا تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول : هما سورة واحدة ، وقال بعض أصحاب الإمام الشافعى : لعل الله لما علم من بعض الناس أنهم ينازعون فى كون «بسم الله الرحمن الرحيم» من القرآن أمر أن لا تكتب ها هنا ليدل ذلك على كونها آية من كل سورة ، وقيل غير ذلك .

والصحيح من هذه الأقوال أن القرآن مرتب من قبل الله ومن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ، وأنه صلى الله عليه وسلم حذف « بسم الله الرحمن الرحيم » من هذه السورة وحيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة براءة

١ — بَرَآءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ .

٢ — فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ .

٣ — وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٤ — إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

٥ — فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٦ — وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ .

٧ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ .

٨ — كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ .

٩ — ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَاتِ ٱللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٠ — لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ .

١١ — فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

١٢ — وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ .

١٣ — أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

١٤ — قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ .

١٥ — وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

١٦ — أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

ست عشرة آية ذكر فيها الله عز وجل موقف الإسلام من المشركين وغيرهم فى جزيرة العرب ، وطلب اعتبار الجزيرة دار إسلام ، وبين للرسول وجوب تطهيرها من الشرك والمشركين ، وكيف يعامل من بينه وبينهم عهد من المشركين . إلى آخر ماتناولته هذه الآيات مما سنذكره بتفصيل وتوضيح .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « براءة » أى هذه براءة « من الله ورسوله » أى واصلة من الله ورسوله « إلى الذين عاهدتم » أى أوقعتم العهد بينكم وبينهم « من المشركين » أى وإن كانت معاهدتم لكم إنما كانت بإذن من الله ورسوله ، فكما فعلتم المعاهدة بإذنهما فافعلوا النقض تبعا لهما ، ودل سياق الكلام وما حواه من بديع الانتظام أن العهد إنما هو لأجل المؤمنين ، وأما الله ورسوله فغنيان عن ذلك ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى بنقض عهودهم ، وذلك قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » الآية ، وكذلك فى قوله تعالى : « فسيحوا » أى سيحوا آمنين أيها المشركون « فى الأرض أربعة أشهر » لا يتعرض لكم فيها ولا أمان لكم بعدها ، وكان ابتداء هذه الأشهر يوم الحج الأكبر ، وانقضاؤها إلى عشرين ربيع الآخر ، وقال الأزهرى : هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأنها نزلت فى شوال ، وقيل : فى ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من

شهر ربيع الآخر ، وكانت حرما لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، وقيل : العشر من ذى القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول ، لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ، ثم صار فى السنة الثانية من ذى الحجة ، وكان نزولها فى سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمر فيها عتاب ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الموسم سنة تسع ثم اتبعه عليا راكبا العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأها على أهل الموسم ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل منى ، فلما دنا على من أبى بكر سمع أبو بكر الرغاء[1] فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ، وروى أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام وقال : يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك فأرسل علياً ، فرجع أبو بكر ، فقال يا رسول الله : أشىء نزل؟ قال : نعم فسر أنت على الموسم ، وعلى ينادى ، بالآى فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم ، وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : أيها الناس إنى رسول رسول الله إليكم ، فقالوا : بم ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، وعن مجاهد : ثلاث عشرة آية ، ثم قال : أمرت بأربع إنى أنادى بها أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك : أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ، ثم حج صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع .

هذا وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكى يؤدى عنه ، كما بعث كثيرا من الصحابة ولم يكونوا من عترته ، فيكون هذا ليس على العموم بل مخصوص

---

(١) هو صوت الناقة وذوات الخف . والعضباء : المشقوقة الأذن ، ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ، ولكن كان ذلك علما عليها ..

بالعهود ، لأن العرب من عادتها أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل من الأقارب ، فلو تولاه أبو بكر لجاز أن يقولوا : هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهد ، فربما لم يقبلوا ، ويدل على ذلك أن فى بعض الروايات لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى ، وقيل : لما خص أبو بكر بتولية الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلى خلف أبى بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه على على إمامة أبى بكر ، فإن قيل : ماوجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين فى الأشهر الحرم وقد صانه الله عن ذلك ؟ أجيب بأنهم قالوا : قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها « واعلموا أنكم غير معجزى الله » أى لا تفوتونه وإن أمهلكم « وأن الله مخزى الكافرين » أى مذلهم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب « وأذان » أى إعلام واقع « من الله ورسوله إلى الناس » الأذان فى اللغة الإعلام ، ومنه الأذان للصلاة فإنه إعلام بوقتها ، وقد علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث « يوم الحج الأكبر » أى يوم عيد النحر لأن فيه معظم أفعاله من طواف ونحر وحلق ورمى يقع فيه ، ولأن الإعلام كان فيه ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى حجة الوداع فقال : أى يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر ، وروى أن عليا خرج يوم النحر على بغلة بيضاء ، فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال : يومك هذا ، خل سبيلها ، وقيل : يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم : الحج عرفة ، وقيل : أيام منى كلها ؛ لأن اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان ، كقوله : يوم صفين ويوم الجمل ؛ لأن الحرب دامت فى هذه الأيام ، ويطلق عليها يوم واحد ، وقيل : هو للذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ، ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده ، ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الأصغر ، وإنما

قيل لها : الأصغر لنقصان أعمالها عن الحج . وقيل: وصف بذلك لموافقته جمع النبي حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة. وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم ، وقيل: وصف بذلك لاجتماع أعياد الملل فى ذلك اليوم ، وقيل: لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين . . « إن الله برىء من المشركين » أى من عهودهم ، والمعنى : وأذان من الله ورسوله بأن الله برىء من المشركين « ورسوله » مرفوع على أنه مبتدأ حذف خبره أى ورسوله كذلك ، وحكى أن أعرابيا قدم فى زمن عمر فقال: من يقرئنى مما نزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فاقرأه رجل براءة فقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله ـ بالكسر، فقال الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ؟ إن يكن الله برىء من رسوله فأنا برىء منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابى ، فدعاه فسأله فأخبر الأعرابى بذلك ، فقال عمر : ليس هكذا ياأعرابى ، فقال : فكيف هى ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالرفع ، فقال : وأنا والله برىء مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة ، إلى أن وضع أبو الأسود الدؤلى النحو « فإن تبتم » أى عن الكفر والغدر « فهو » أى ذلك الأمر العظيم وهو المتاب « خير لكم » أى من الإقامة على الشرك ، وهذا ترغيب من الله فى التوبة والإقلاع عن الشرك « وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله » وذلك وعيد عظيم وإعلام بأن الله تعالى قادر على إنزال العذاب بهم ، كما قال تعالى « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » أى مؤلم ، وهو القتل والأسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ، ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل الإخبار أو على سبيل الاستهزاء « إلا الذين عاهدتم من المشركين » استثناء من المشركين ، وهم بنو ضمرة ، حى من كنانة ، أمر الله تعالى رسوله بإتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر ، وكان السبب أنهم لم ينقضوا كما قال تعالى « ثم لم ينقصوكم شيئا » أى من عهودكم التى عاهدتموهم عليها « ولم يظاهروا » أى ولم يعاونوا « عليكم أحدا » من عدوكم « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » أى إلى انقضائها « إن الله يحب المتقين » تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من

باب التقوى « فإذا انسلخ » أى انقضى وخرج « الأشهر الحرم » التى حرم الله عليهم فيها قتالهم وضربت أجلا لسياحتهم ، والمراد بكونها حرما أن الله تعالى حرم القتل والقتال فيها ، وقيل: هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، قال البيضاوى : وهذا يخل بالنظم أى نظم الآية ، إذ نظمها يقتضى توالى الأشهر المذكورة « فاقتلوا المشركين » أى الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الأجل أى بالأسر « حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم » أى بالحبس عن إتيان المسجد الحرام والتصرف فى بلاد الإسلام فى القلاع والحصون ، حتى يضطروا إلى الإسلام أو الجزية « واقعدوا لهم » أى لأجلهم خاصة ، فإن ذلك من أفضل العبادات « كل مرصد » أى كل طريق يسلكونه « فإن تابوا » أى عن الكفر بالإيمان « وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » تصديقا لتوبتهم وإيمانهم فوصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق « فخلوا سبيلهم » أى فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشىء من ذلك ، وفى هذه الآية دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ؛ لأنه إن كان جاحدا لوجوبها فهو مرتد وإلا عوقب بترك الصلاة ، وأخذت منه الزكاة قهرا وقوتل على ذلك ، كما نقل عن أبى هريرة أنه قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر ، كفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبى بكر رضى الله تعالى عنهما : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها ، فقال عمر : والله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر إلى القتال فعرفت الحق « إن الله غفور » أى بليغ المحو للذنوب الذى تاب صاحبها عنها « رحيم » به « وأن أحد من المشركين » أى الذى أمرت بقتالهم « استجارك » أى إن استجار بك بعد انقضاء مدة السياحة « فأجره حتى يسمع كلام الله » أى فأمنه حتى

يبلغه الإسلام « ثم ، إن أراد الانصراف ولم يسلم « أبلغه مأمنه » أى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه لينظر فى أمره ، ثم بعد ذلك يجوز لك قتلهم وقتالهم من غير غدر ولا خيانة ، قال الحسن رضى الله عنه : هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة «ذلك » أى الأمر بالإجارة للغرض المذكور « بأنهم » أى بسبب أنهم « قوم لا يعلمون » أى لا علم لهم لأنهم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب ، فإذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » استفهام معناه النفى ، أى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله ، وهم يغدرون وينقضون العهد « إلا الذين عاهدتم » من المشركين « عند المسجد الحرام » يوم الحديبية وهم المستثنون قبل « فما استقاموا لكم » أى أقاموا على العهد ولم ينقضوه « فاستقيموا لهم » أى على الوفاء ، وهو كقوله تعالى : « فأتموا لهم عهدهم إلى مدتهم » ، « إن الله يحب المتقين » أى من اتقى يوفى بعهده لمن عاهده وقد أقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه بإعانة بنى بكرة على خزاعة « كيف » تكرار للاستبعاد بثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهد ثابت « وإن » أى والحال أنهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم إن « يظهروا عليكم » أى يعلو أمرهم على أمركم بأن يظفروا بكم بعد العهد والميثاق « لا يرقبوا » أى لا يرعوا « فيكم » أى فى أذاكم بكل جليل وحقير « إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم » أى بكلامهم كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن وقوله عز وجل بعد ذلك : « وتأبى قلوبهم » أى تأبى الوفاء به لمخالفة ما فيها « وأكثرهم فاسقون » الموصوف بهذه الصفة كفار . والكفر أقبح وأخبث من الفسق ، فكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم ؟ وأيضاً الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله «وأكثرهم» فائدة .. الجواب أن الكافر قد يكون عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقاً خبيث النفس فى دينه فينقضه ، فالمراد بالفسق هنا نقض العهد ، وكان فى المشركين من وفى بعهده ، فلهذا قال : وأكثرهم أى إن هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهد أكثرهم فاسقون فى دينهم

وعند أقوامهم ، وذلك يوجب المبالغة فى الذم ، وقال ابن عباس : لا يبعد أن يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب ، فلهذا السبب قال : « وأكثرهم فاسقون» حتى يخرج عن هذا الحكم أولئك الذين دخلوا فى الإسلام «اشتروا» أى استبدلوا « بآيات الله » أى القرآن « ثمنا قليلا » أى عرضاً يسيرا من الدنيا وهو اتباع الهوى والشهوات مع مصاحبة الكفر ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم فنقض العهد الذى بينه وبينهم بسبب ذلك « فصدوا » أى فسبب لهم ذلك وأداهم إلى أن صدوا « عن سبيله » أى منعوا الناس من الدخول فى دينه « إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » هو تفسير لا تكرير ، وقيل : الأول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم « وأولئك » أى هؤلاء البعداء من كل خير « هم المعتدون » الذين تعدوا ما حد الله لهم فى دينه وما يوجبه العقد والعهد .

ولما بين تعالى حال من لا يرقب فى الله إلا ولا ذمة وينقض العهد وينطوى على النفاق ويتعدى ما حد الله تعالى له ؛ بين ما يصيرون به من أهل دينه بقوله تعالى: « فإن تابوا » أى رجعوا عن الشرك إلى الإيمان ونقض العهد إلى الوفاء به « وأقاموا الصلاة » أى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها « وآتوا الزكاة » المفروضة عليهم طيبة بها نفوسهم « فإخوانكم » أى فهم إخوانكم « فى الدين » لهم ما لكم وعليهم ما عليكم « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين «وإن نكثوا » أى نقضوا « أيمانهم » أى عهودهم « من بعد عهدهم » الذى عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم « وطعنوا فى دينكم » أى عابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه «فقاتلوا أئمة الكفر» أى الكفار بأسرهم ، وإنما خص الأئمة منهم بالذكر لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع منهم على هذه الأعمال الباطلة ، وقال ابن عباس : نزلت فى أبى سفيان والحارث ابن هشام وأبى جهل وسائر قريش ، وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا بإخراج

الرسول ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر « إنهم لا أيمان لهم » قرأ ابن عامر بكسر الهمزة أى لا تصديق لهم ولا دين ، وليس فى ذلك دلالة على أن توبة المرتد لا تقبل .. وقرأ الباقون بالفتح جمع يمين أى لا أيمان لهم على الحقيقة وأيمانهم ليست بأيمان ، وإلا لما طعنوا فى دينكم ولم ينكثوا ، وفيه دليل على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام فقد نكث عهده أى إن شرط ذلك عليه كما هو مذهبنا وتمسك به أبو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على أن يمين الكافر لا تكون يمينا ، وعند الشافعى رحمه الله تعالى : يمينهم منعقده ، ومعنى هذه الآية عنده أنهم لما لم يؤمنوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان ، والدليل على أن يمينهم منعقدة أن الله تعالى وصفها بالنكث فى قوله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم » ولو لم تكن منعقدة لما صح وصفها بالنكث « لعلهم ينتهون » متعلق بقاتلوا ، أى ليكون غرضكم فى مقاتلتهم بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم أن ينتهوا عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم ؛ وهذا فى غاية كرم الله تعالى وفضله على الإنسان . . ولما قال تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » تبعه بذكر ثلاثة أسباب تبعث على مقاتلتهم ، كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها حال الاهتمام :

أحدها ما ذكره تعالى بقوله : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » أى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكرة على خزاعة ، وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجرا لغيرهم .

وثانيها قوله تعالى : « وهموا بإخراج الرسول » من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة على ما ذكره فى قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » ، وقيل : هم اليهود نكثوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بإخراجه من المدينة ، وهذا من أوكد ما يجب القتال لأجله .

وثالثها قوله تعالى : « وهم بدأوكم » أى بالقتال « أول مرة » أى هم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم بالكتاب

المنير وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال ؛ فهم البادئون بالقتال والبادىء أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ، وبخهم الله تعالى بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها . . والمعنى : أن من كان فى مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا يترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها « أتخشونهم » أى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم « فالله أحق أن تخشوه » فقاتلوا أعداءه « إن كنتم مؤمنين» أى مصدقين بوعد الله ووعيده ، لأن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بما سواه كقوله تعالى : « ولا يخشون أحدا إلا الله » .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » أي بالقتل والأسر واغتنام الأموال ، فإن قيل : قد قال الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فكيف قال تعالى : « يعذبهم الله بأيديكم » ؟ والجواب أن المراد بالعذاب فى الآية الأولى عذاب الاستئصال.. «ويخزهم» أى بالذل والفضيحة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة « وينصركم عليهم » أى يمكنكم من قتلهم وإذلالهم «ويشف صدور قوم مؤمنين» أى طائفة من المؤمنين وهم خزاعة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلموا إليه فقال : أبشروا فإن الفرج قريب « ويذهب غيظ قلوبهم » أى كربها ووجدها وقد وفى الله تعالى بما وعد . . والآية من المعجزات « ويتوب الله على من يشاء » أى إن الله يهدى من يشاء إلى الإسلام كما فعل بأبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ، ثم من الله عليهم يوم فتح مكة فأسلموا وحسن إسلامهم « والله عليم » أى يعلم ما قد كان ، فهو عليم بكل شىء ، فيعلم من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها ، ويعلم ما فى قلوبكم من الإقدام

والإحجام « حكيم » أى أحكم جميع أموره « أم حسبتم » أى ظننتم « أن تتركوا » فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ، والخطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال ، وقيل : للمنافقين ، وأم بمعنى همزة الإنكار « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » أى علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم بأن يقع الجهاد فى الواقع بالفعل « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة » عطف على جاهدوا ، داخل فى غير الصلة لأنه قيل : ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذى وليجة من دون الله ، والوليجة من ولج وهى البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون إليهم أسرارهم ، وقال قتادة : هى الخيانة ، وقال عطاء : هى الأولياء « والله خبير بما تعملون » من سؤال المشركين وغيره فيجازيكم عليه .

١٧ — مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ .

١٨ — إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما فى الرد على المشركين الذين عدوا إشرافهم على الكعبة وقيامهم بخدمتها فخرا لهم على غيرهم ، وعملا عظيما يقومون به ويستحقون عليه الثواب العظيم ، قال ابن عباس : لما أسر العباس فى يوم بدر عيره بالكفر وأغلظ على رضى الله عنه عليه القول ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا ، فقال له على : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم ، نحن أفضل منكم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب

الكعبة ونسق الحجيج ونفك العانى — أى الأسير — فأنزل الله تعالى رداً على العباس : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجدالله » أى ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مسجدالله بدخوله والقعود فيه وخدمته ، فإذا دخل بغير إذن مسلم عذر ، وإن دخل بإذن لم يعذر ، لكن لا بد من حاجة ، فيشترط للجواز الإذن والحاجة ، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سوارى المسجد وهو كافر ، وذهب جماعة إلى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : مسجدا ـ بالإفراد ، وفى هذا دلالة على أن المراد المسجد الحرام ، وقيل : المراد على القراءتين المسجد الحرام ، وإنما جمع لتعظيمه لأنه قبلة المساجد وإمامها « شاهدين على أنفسهم بالكفر » أى استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله مع الكفر بالله وبعبادته ، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر : ظهور كفرهم ، قال الحسن : لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام ، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف بثياب قد عملنا فيها المعاصى وكلما طافوا أسبوعا سجدوا للأصنام فلم يزدادوا من الله تعالى إلا بعداً ، وقيل : هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وقال السدى : شهادتهم على أنفسهم بالكفر : هو أن النصرانى يسأل : من أنت؟ فيقول: نصرانى، واليهودى يقول: يهودى ، والمشرك يقول : مشرك ، « أولئك حبطت أعمالهم » أى الأعمال التى عملوها وظنوها مثوبة لهم عند الله وافتخروا بها مثل عمارة البيت وحجابته وسقايته ، « وفى النار هم خالدون » أى لجعلهم الكفر مكان الإيمان ، واحتج جماعة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة من أهل الإيمان لا يبقى مخلدا فى النار ، لأن قوله تعالى « وفى النار هم خالدون » يفيد معنى : هم فيها خالدون لا غيرهم ، والآية فى حق الكافرين فثبت أن غيرهم من أهل الإيمان لا يخلدون فى النار .

ولما بين الله تعالى أن الكافر ليس له أن يعمر مسجد الله بين المستحق لعمارتها بقوله تعالى « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش ، أحداً ، إلا الله » أى إنما يطلب عمارتها لهؤلاء الجامعين بين الكمالات العملية والعلمية ولم يذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن الإيمان به شرط فى صحة الإيمان لأن الإيمان بالله تعالى لابد فيه من الإيمان برسول الله ، وقيل : لأنه تعالى إنما لما ذكر الصلاة ، والصلاة لا تتم إلا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافياً ، وقيل : إن المشركين كانوا يقولون : إن محمداً إنما ادعى رسالة الله تعالى طلبا للرئاسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة ، فكذلك يقول : مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس إلا الإيمان بالمبدأ والمعاد فذكر المقصود الأصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكافر على أنه لا مطلوب له من الرئاسة ، وقال الله تعالى « ولم يخش إلا الله » مع أن المؤمن يخاف الظلمة والمفسدين ؛ لأن المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختاروا على رضاء الله عنه رضاء غيره لتوقع مخوف ، وإذا اعترضه أمران أحدهما حق لله تعالى والآخر حق نفسه آثر ما فيه حق الله تعالى ، وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد بذلك نفى الخشية عنهم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة ، وفى الحديث : الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيشة ، وفى الكشاف أنه صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ؛ فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ؛ فحق على المزور أن يكرم زائره ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من ألف المساجد ألفه الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، وعن أنس رضى الله عنه : من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من غدا إلى المسجد وراح

أعد الله له نزلا من الجنة كلما غدا أو راح « فعسى أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات « أن يكونوا من المهتدين » أى الذين وصلوا إلى منزلة الهدى والاهتداء عاقبتها . فإنه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع ، وضموا إليه الخشية من الله تعالى ، فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائراً بين لعل وعسى ، فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الأول من هذه السورة ، سورة التوبة ، الذى تضمن ماتضمن من محاربة الشرك والمشركين فى الجزيرة العربية والقضاء على الوثنية فيها ، وإعلان دين الله فى أرجائها ، وجعل الجزيرة مركزا للتوحيد والإسلام ، ومن ثم برىء الله عز وجل ورسوله من الشرك والمشركين ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منهم ، ونبذ عهودهم إليه ، وطلب الإيمان منهم ، وقتالهم إن أبوا ، حتى يتوبوا ويؤمنوا ويدخلوا فى الإسلام وشرائعه ، وقد رد الله عز وجل على المشركين ردا بليغا ، فى قولهم: إننا سدنة بيت الله وخدمته ، وبين لهم بوضوح أنه لا يجتمع إيمان وكفر ، وأن عمارتهم للمسجد الحرام لا يغنى عنهم من الله شيئاً ماداموا على الشرك ، وماداموا مشركين بالله .

الربع الثانى من سورة التوبة

١٩ — أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٢٠ — ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

٢١ — يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ .

٢٢ — خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

أربع آيات كريمة فى نفى المساواة بين الشرك والإيمان وفى تعظيم شأن الإيمان والمؤمنين، وبيان ثوابهم العظيم عند الله فى الدنيا والآخرة .. يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » فى سبب نزول هذه الآية أقوال: فعن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : إنى لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج ، وقال آخر: ما بالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم؛ فزجرهم عمر رضى الله تعالى عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فنزلت .. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام وبالهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود : أنتم أفضل، فنزلت . . وقيل: إن عليا قال للعباس رضى الله تعالى عنه : ياعم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ألست فى أفضل من الهجرة ؟ أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام ، فلما نزلت قال العباس : ما أرانى إلا تارك سقايتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً ، وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج ، فلما جاء الإسلام وأسلم العباس ، أقره صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم جاء السقاية واستسقى فقال له : يارسول الله يجعلون أيديهم فيه ، قال : اسقنى ، فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال : اعملوا فإنكم على عمل صالح ، وعن أبى بن عبد الله المزنى رضى الله تعالى عنهما قال : كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال له : مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ، أمن حاجة لكم أم من بخل ، فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: الحمد لله

ما بنا من حاجة ولا بخل ، إنما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وخلفه أسامة فاستسق فأتيناه بإناء من نبيذ فشربه وسقى فضله أسامة وقال : أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبيذ : تمر ينقع فى الماء وهو حلال فإن غلا وخمر حرم .. هذا والسقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ، والتقدير : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله « لا يستوون عند الله » أى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره ، لأن الله لا يقبل عملا إلا مع الإيمان به « والله لا يهدى القوم الظالمين » أى الكفرة ؛ وظلمهم بالشرك ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم منهمكون فى الضلالة فكيف يساوون الذين عاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب ؟ وقيل : المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن يستجمع هذه الصفات ، والمراد من كون العبد عند الله الاستغراق فى عبوديته وطاعته ، وقيل : أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام ، والتفضيل هنا ليس على بابه « وأولئك » الذين هذه صفتهم « هم الفائزون » أى بسعادة الدنيا والآخرة « يبشرهم » أى يخبرهم « ربهم » والبشارة الخبر السار الذى يفرح الإنسان عند سماعه وتستبشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ، ثم ذكر سبحانه وتعالى الذى يبشرهم به بقوله تعالى : « برحمة منه ورضوان » فهذا أعم البشارات ، لأن الرحمة والرضوان من الله تعالى على العبد نهاية مقصوده « وجنات » أى بساتين كثيرة الأشجار والثمار « لهم فيها » أى الجنات « نعيم مقيم » أى غير منقطع « خالدين فيها أبدا » أى دون خروج منها ، بل يبقون فيها دائما « إن الله عنده أجر عظيم » وناهيك بما يصفه الله تعالى بالعظيم ، وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالعظم والاسم الأعظم ، وكان ذلك أعظم الثواب ؛ لأن إيمانهم أعظم الإيمان .

٢٣ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

٢٤ — قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ .

آيتان جليلتان فيهما دعوة إلى إيثار حب الله على كل حب ، وتقديم طاعة الله على كل طاعة ، وتفضيل رضائه على كل رضاء . . يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » الخ ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » أقوالا ؛ فقال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها ، نزلت فى العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون : ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عندهم ويدع الهجرة فنزلت ، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت إليهم ولا ينزله ولا ينفق عليه حتى رخص لهم بعد ذلك ، وقال مقاتل: نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة ، أى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله تعالى إن « استحبوا » أى اختاروا « الكفر عن الإيمان » أى أقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله « ومن يتولهم منكم » أى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد « فأولئك هم الظالمون »

أى قد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ، ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا : إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا ، فنزل قوله تعالى « قل » يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة « إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم » أى أقرباؤكم « وأموال اقترفتموها » أى اكتسبتموها « وتجارة تخشون كسادها » أى عدم نفاقها بفراقكم لها « ومساكن ترضونها » أى تستوطنونها راضون سكناها « أحب إليكم من الله ورسوله » أى الهجرة إلى الله ورسوله « وجهاد فى سبيله » فقعدتم لأجل ذلك عن الهجرة والجهاد ، أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله « فتربصوا » أى انتظروا متربصين ، وهذا تهديد بليغ « حتى يأتى الله بأمره » قال مجاهد : بقضائه ، أى عقوبة عاجلة أو آجلة ، وقال مقاتل : بفتح مكة « والله لا يهدى القوم » أى لا يخلق الهداية فى قلوب القوم « الفاسقين » أى الخارجين عن طاعته ، وفى هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا .

٢٥ — لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ .

٢٦ — ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

٢٧ — ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فى هـذه الآيات الثلاث تذكير وأى تذكير بنعمة الله على المسلمين ، ونصره لهم على أعدائهم الكافرين ؛ على الرغم من ذلتهم وقلتهم .. وفى هذه الآيات الكريمة يقول الله عز وجل : « لقد نصركم الله » النصرة المعونة على الأعداء بإظهار المسلمين عليهم « فى مواطن » أى أماكن للحرب « كثيرة » كبدر وقريظة والنضير ، والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه ، وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة ، وسراياه وبعوثه سبعون ، وقيل : ثمانون «ويوم» أى واذكر يوم «حنين» وهو واد بين مكة والطائف ، أى يوم قتالكم فيه هوازن « إذ أعجبتكم كثرتكم » بدل من يوم حنين، وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ـ وقد بقى من شهر رمضان عدة أيام ـ خرج متوجها إلى حنين لقتال هوازن وثقيف ، واختلفوا فى عدد عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: كانوا ستة عشر ألفا ، وقال الكلبى رضى الله تعالى عنه : كانوا اثنى عشر ألفا، عشرة آلاف الذين حضروا مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، وهم الأسرى الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا ، وبالجملة كانوا عدداً كثيراً ، وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ـ إعجابا بكثرتهم ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل . وقيل : قائلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول بعيد جداً ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فى أحواله كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها، ثم اقتتلوا قتالا شديداً فانهزم المشركون ولكنهم رجعوا ، وانكشف المسلمون حتى بلغوا مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه آخذا بلجام فرسه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، وناهيك بهذا شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تناهى شجاعته . وكانت هوازن رماة ، فلما حمل المسلمون عليهم انكشفوا واستقبلوا المسلمين بالسهام فانكشف المسلمون

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه إلا العباس وأبو سفيان بن الحارث قال البراء : والذى لا إله إلا هو ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط، ولقد رأيته وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالركاب والعباس آخذ بلجام الدابة وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » فطفق يركض بفرسه نحو الكفار لا يلوى ، فنادى : يا عباد الله يا أصحاب الشجرة ـ وهم أصحاب بيعة الرضوان ، الوارد ذكرهم فى قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » يا أصحاب سورة البقرة ، قال الطيبى : وهم المذكورون فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » ، وقيل : الذين أنزل عليهم سورة البقرة فرجعوا جماعة واحدة يقولون : لبيك لبيك ، ونزل الملائكة فالتقوا مع المشركين ، فقال عليه الصلاة والسلام حين هذا : حمى الوطيس أى اشتد الحرب ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفرس ، ثم أخذ قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، ثم قال : شاهت الوجوه ، قال سلمة بن الأكوع : فما خلف الله تعالى منهم إنسانا إلا ملأت عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين فهزمهم الله تعالى « فلم تغن » أى الكثرة « عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » أى رحبتها ، أى سعتها لا يجدون عنها مفرا تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ، ولا تثبتون فيها لمن لا يسعه مكانه « ثم وليتم مدبرين » أى وليتم الكفار ظهوركم مدبرين أى منهزمين ، والإدبار : الذهاب إلى خلف ، خلاف الإقبال « ثم أنزل الله سكينته » أى رحمته التى سكنوا إليها وآمنوا « على رسوله وعلى المؤمنين » أى على الذين انهزموا فردوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس بإذنه صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب « وأنزل جنودا » أى الملائكة « لم تروها » بأعينكم ، قال سعيد ابن جبير : مد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وقيل : بثمانية آلاف ، وقيل : ستة عشر ألفا ،

« وعذب الذين كفروا » بالقتل والأسر والسبي وسلب المال « وذلك جزاء الكافرين » أي ما فعل بهم ، فهو جزاء كفرهم في الدنيا ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما قسم ما أفاء الله على رسوله يوم حنين في الناس وفي المؤلفة قلوبهم لم يعط الأنصار شيئا ، فكأنهم وجدوا إذا لم يصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم عالة فأغناكم الله بي ، وكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله ، آمين ، قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله . لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم ، الأنصار شعار والناس دثار ، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض . وعن رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصين والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس شعراً في ذلك ، فأتم رسول الله صلى الله عليه له مائة « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » منهم بالتوفيق للإسلام « والله غفور رحيم » فيتجاوز عنهم ويتفضل عليهم ، روى أن ناسا منهم جاءوا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، قيل : سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من النساء مالا يحصى ، فقال : إن عندي ما ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا لها ذراريكم ونساءكم وأموالكم ، قلوا : ما كنا نعدل بالإحسان شيئا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرنا هم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالإحسان شيئاً ، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه ، أي فيلزم شأنه وأمره ، ومن لم تطب نفسه فليعطنا ، وليكن قرضا علينا ، أي بمنزلة القرض ، فقالوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إني لا أدري لعل

فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا . .

٢٨ ـ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

٢٩ ـ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ .

هاتان الآيتان فيهما عود إلى أمر المشركين ، ووجوب إخراجهم من الحجاز بالقتال والتشريد ، حتى تصير خالصة لعقيدة التوحيد ودين الإسلام ، وفيها تهديد ووعيد لليهود والنصارى أيضاً ، على ما كانوا يدأبون عليه من مقاومة الإسلام والمسلمين ، وفى هذه الآيات الكريمة يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس » أى ذو نجس ؛ لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو أنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات ، فهى ملابسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها مبالغة فى وصفهم بها ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أعيانهم نجسة ، وعن الحسن رحمه الله تعالى : من صافح مشركا توضأ ، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين . والنجس مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع « فلا يقربوا المسجد الحرام » أى لنجاستهم ، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة والمنع من دخول الحرم .

قال العلماء : وجملة بلاد الإسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام :

أحدها الحرم ، فلا يجوز للكافر أن يدخل المسجد بحال ذميا كان أومستأمنا لظاهر هذه الآية . وإذا جاء رسول من دار الكفر إلى الإمام ، والإمام في الحرم لا يؤذن له في دخول الحرم ، بل يخرج الإمام أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم .

القسم الثاني من بلاد الإسلام وهو جزيرة العرب فيجوز للكافر دخوله بالإذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام ، روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما ، وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا ، وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق طولا ، وأما العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام .

والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان ، لكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم وحاجة ، بعد عامهم هذا ، إشارة إلى العام الذي حج فيه أبو بكر رضى الله عنه ونادى على رضى الله تعالى عنه ببراءة وهى سنة تسع من الهجرة ، وقيل سنة حجة الوداع ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يقرأ على مشركى مكة براءة وينبذ إليهم عهدهم وأن الله برىء من المشركين ورسوله ، قال أناس : يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة . لانقطاع السبيل وفقد التجارة ، وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات ، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون ، فلما امتنعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش . فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى « وإن خفتم عيلة » أى فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم «فسوف يغنيكم الله من فضله» أى من إعطائه وتفضله من وجه آخر ، وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل المطر عليهم مدرارا ، فكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وتبالة[1] وجاءت الأطعمة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون « إن شاء » لتنقطع الآمال إليه تعالى ،

(١) قرية من اليمن .

وليتبه على أنه متفضل في ذلك ، وأن الفناء الموعود يكون لبعض دون بعض، وفى عام دون عام « إن الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « عليم » أى بوجوه المصالح « حكيم » أى فيما يعطى ويمنع ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقالوا : من أين تأكلون؟ فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب ، كما قال تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فإن قيل : اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؟ أجيب بأن من اعتقد أن العزير بن الله وأن المسيح بن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك ، وبأن من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن ، واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء ، ويصح أن يكون المراد بهذا هم المشركون وحدهم أيضا « ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » من الشرك وأكل الأموال بالباطل وتبديل التوراة والإنجيل وغير ذلك « ولا يدينون دين الحق » أى الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو الإسلام، كما قال تعالى: « إن الدين عند الله الإسلام من الذين أوتوا الكتاب » أى اليهود والنصارى بيان للذين لا يؤمنون « حتى يعطوا الجزية » وهى الخراج المضروب على رقابهم فى نظير سكناهم فى بلاد الإسلام آمنين ، وقيل : من الجزاء بمعنى القضاء ، قال تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » ، أى لا تقضى « عن يد » أى منقادين مقهورين ، يقال لكل من أعطى شيئاً كرها من غير طيب نفس : أعطى عن يد ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم، « وهم صاغرون » أى أذلاء منقادون لحكم الإسلام ، وأقل الجزية دينار لكل واحد فى كل سنة ، لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: خذ من كل حالم - محتلم - دينارا ، وقال أبو حنيفة : على الغنى ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط نصفها ، وعلى الفقير الكسوب ربعها ، ولا شىء على فقير غير كسوب ، ولا بد أن يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبى ولا مجنون .

٣٠ — وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

٣١ — ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٣٢ — يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ .

٣٣ — هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

٣٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٣٥ — يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ .

ست آيات كريمة فيها بيان لسوء عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانوا فى زمن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفيها ذكر لعداوتهم

للإسلام ، دين الهدى والحق والنور ، ومحاولاتهم أن يطفئوا نوره ، وفيها بيان لحب كثير منهم ومن أحبارهم ورهبانهم للمال يجمعونه من حرام ، ولصدهم عن سبيل الله ، ولامتناعهم عن إخراج زكاة أموالهم ، ويذكر الله عز وجل ما أعده لهم من العذاب الشديد فى الآخرة . كما يذكر الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة عزيرا الذى كان من حكماء بنى إسرائيل وعلمائهم ، والذى جعله اليهود ابنا لله عز وجل . .

وفى العهد القديم سفر يسمى باسم « عزرا » وعزرا الكاهن الكاتب كان كاتب كلام الله إلى موسى وحافظ وصاياه وفرائضه على إسرائيل ، وفى الإصحاح السابع من سفر عزرا أنه كان كاتبا ماهرا فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل ، وأن ملك فارس « ارتخشتا » أعطى عزرا كل ماطلبه منه لشعب إسرائيل ، وأنه سمح له بأن يقود الأسرى من اليهود فى ملك فارس إلى أورشليم عائدين إليها من الأسر ، وذلك فى السنة السابعة من حكم الملك الفارسى « ارتخشتا » ، منها جروا من بابل إلى أورشليم حسب يد الله الصالحة على عزرا ، لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فرائض الرب ووصاياه إلى بنى إسرائيل .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . . « وقالت اليهود عزير ابن الله » قال هذا القول رجل من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء ، وهو الذى قال : « إن الله فقير ونحن أغنياء » ، وقال ابن عباس فى رواية سعيد ابن جبير وعكرمة : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فيهم سلام بن مشكم ونعمان بن أبى أوفى وشاس بن قيس ومالك بن العفيف ، فقالوا : كيف نتبع دينك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعلى هذين القولين القائل إنما هو بعض اليهود إلا أن الله تعالى نسب ذلك إلى اليهود بناء على عادة العرب فى إطلاق اسم الجماعة على اسم الواحد ، يقال : فلان ركب الخيول ، ولعله لم يركب إلا واحداً .

منها، وفلان يجالس السلاطين، ولعله لم يجالس إلا واحداً، وقيل: إن هذا مذهب طائفة من طوائف اليهود ثم انقطع، فحكى الله تعالى فى ذلك عنهم، واختلف المفسرون فى السبب الذى قالوا ذلك لأجله.

فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق؛ فأنساهم الله التوراة ونسخها من صدورهم، فتضرع عزير إلى الله تعالى وابتهل إليه أن يرد إليه الذى نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله تعالى نزل نور من السماء وعادت إليه التوراة، فأذن فى قومه وقال يا قوم : قد أتانى الله التوراة وردها إلى فعلقوا به يعلمهم، ثم مكثوا ما شاء الله تعالى، ثم أن التابوت نزل بعد ذهابه عنهم؛ فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا : ما أوتى عزير هذا إلا أنه ابن الله تعالى.

وقيل : لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إلى أين تذهب ؟ قال : لطلب العلم فحفظه التوراة فى قلبه وهو غلام. . وهاتان الروايتان من الأساطير.

وقال الكلبى ـ وفى روايته بعض من الصحة يؤيده ماسبق أن ذكرناه ـ : إن بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وقتل إسرائيل وقتل من قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيرا؛ فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة، بعث الله عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله مائة عام، وأرسل إليه ملكا بإناء فيه ماء فسقاه، فمثلت التوراة فى صدره، فلما أتاهم وقال لهم : أنا عزير كذبوه، وقالوا : إن كنت كما تزعم فاتل علينا التوراة، فكتبها لهم من صدره، ثم أن رجلا منهم قال : إن أبى حدثنى أن نسخة من التوراه كانت مدفونة فى مكان كذا، فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوا بها ما كتبه عزير فلم يجدوه غادر حرفا، فقالوا : إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب عزير إلا لأنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود : عزير ابن الله. « وقالت النصارى المسيح » عيسى « ابن الله ». قالوا ذلك لاستحالة ان يكون ولد بلا أب، قال الرازى : والأقرب

عندى أن يقال : ورد لفظ الابن فى الإنجيل على سبيل التشريف، ثم أن القوم بالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية، وفشا هذا المذهب الفاسد فى أتباع عيسى عليه السلام « ذلك قولهم بأفواههم » أى لا سند لهم عليه إذ كل قول يقال بالفم، فمعنى قولهم هذا الكلام بأفواههم أنه قول لا يعضده برهان ، وقيل : إن ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه . « يضاهون » أى يشابه قولهم قول الذين كفروا ، وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه : يواطئون ، وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : يوافقون « قول الذين كفروا من قبل » أى من قبلهم، أى يضاهى قولهم قول الذين كفروا ، والمعنى إن الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى إنما كان قولهم قول قدمائهم، فالكفر قديم فيهم غير مستحدث ، أو يضاهى قول المشركين : الملائكة بنات الله ، وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهى قولهم أن المسيح بن الله قول اليهود عزير بن الله لأنهم أقدم « قاتلهم الله » دعاء عليهم بالهلاك؛ فإن من قاتله الله تعالى هلك ، أو تعجب من شناعة قولهم ، كما يقال لمن فعل فعلا تعجب منه : قاتله الله ما أعجز فعله ، وقيل : لعنهم الله تعالى ، « أنى يؤفكون » أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل مع قيام الدليل بأن الله تعالى واحد أحد ، فجعلوا له ولدا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله تعالى لا يتعجب من شىء ، ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطبتهم ، فالله تعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم » أى اتخذ اليهود أحبارهم أى علماءهم ، والحبر فى الأصل : العالم من أى طائفة كان، واختص فى العرف بعلماء اليهود من ولد هارون ، واتخذ النصارى رهبانهم أى عبادهم أصحاب الصوامع، والراهب فى الأصل من تمكنت الرهبة فى قلبه فظهر آثارها على وجهه ولباسه ، واختص فى العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع « أربابا من دون الله » لأنهم أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله كما تطاع الأرباب فى أوامرهم « والمسيح بن مريم » أى

اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فأهلوه للعبادة بذلك مع كونه ابن مريم ، فهو لا يصلح للألوهية بوجه لمشاركته للآدميين فى أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للألوهية « وما أمروا » فى التوراة والإنجيل « إلا ليعبدوا » أى ليطيعوا على وجه التعبد « إلٰهاً واحدا » لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة ، وهو الله تعالى ، وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة من أمر الله تعالى بطاعته ، فهى فى الحقيقة طاعة الله تعالى « لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » أى تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة والأحكام، وأن يكون له شريك فى الهيبة يستحق التعظيم والإجلال «يريدون» أى يريد رؤساء اليهود والنصارى « أن يطفئوا نور الله » أى شرعه وبرهانه وأدلته الدالة على وحدانيته وتقديسه ، أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم « بأفواههم » أى بأقوالهم الكاذبة وشركهم ، وفى تسمية دينه أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا ، وحصر همتهم فى إطفائه بأفواههم تمثيل لحالهم فى طلبهم أن يبطلوا نور الله تعالى بالتكذيب بالشرك بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم ثبت فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخة « ويأبى الله » أى لا يرضى « إلا أن يتم نوره » بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام « ولو كره الكافرون » أى ولو كرهوا غلبته « هو الذى أرسل رسوله » محمدا صلى الله عليه وسلم « بالهدى » أى القرآن الذى أنزل عليه وجعله هاديا « ودين الحق » أى دين الإسلام « ليظهره » أى ليعليه « على الدين كله » أى جميع الأديان المخالفة له، وهذا كالبيان لقوله تعالى : ويأبى الله إلا أن يتم نوره « ولو كره المشركون » وضع (المشركون) موضع (الكافرون) للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله تعالى ، وقد أشرق نور الإسلام فعلا فى كل مكان وفى أقل وقت ، وصار للإسلام دولة شاسعة ممتدة الأطراف ، وصار المسلمون ملوك العالم وسادة الدنيا، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا الروم على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والمغرب ، وغلبوا

المجوس على ملكهم . وغلبوا عباد الأصنام على كثير مما يلى الهند والترك ، وما أخبر الله تعالى عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل ، فكان ذلك إخبارا عن الغيب، وكان ذلك معجزة .. وقيل : إن هذا وعد من الله تعالى بأن يكون الإسلام غالبا على جميع الأديان ، وتمام هذا إنما يخرج عند خروج عيسى عليه السلام ، فإنه لا يبقى أهل دين إلا دخلوا فى الإسلام ، وقيل : إن المراد إظهاره فى جزيرة العرب وقد حصل ذلك ، فإنه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن الهاء فى (ليظهره) إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شىء منها « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار » أى علماء اليهود « والرهبان » أى عبادالنصارى « ليأكلون » أى يتناولون « أموال الناس بالباطل » كالرشوة ، وإنما عبر بالأكل لأنه معظم المراد من المال ، وإشارة إلى تحقير الأحبار والرهبان بأن يفعلوا ما ينافى مقامهم الذى أقاموا أنفسهم فيه بإظهار الزهد والمبالغة فى التدين ، قال الرازى : ولعمرى من تأمل من أحوال الناس فى زماننا وجده فى هذه الآيات كأنها أنزلت فى شأنهم وشرح أحوالهم ؛ فترى الواحد منهم كأنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه فى الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين ، حتى إذا أدى الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل فى سبيله نهاية الذل «ويصدون» الناس « عن سبيل الله » أى دينه ، ولما كان هدف الخلق فى الدنيا هو المال والجاه ، بين الله تعالى فى صفة الأحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الأمرين ، أما المال فهو المراد بقوله تعالى « ليأكلون أموال الناس بالباطل» ، وأما الجاه فهو المراد بقوله « ويصدون عن سبيل الله » فإنهم لو أقروا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته ، وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم ، ولأجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون فى المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم ، ويبالغون فى إلقاء الشبهات فى استخراج وجوه المكر والخديعة وفى منع الخلق من قبول دينه الحق « والذين

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » يحتمل أن يراد بقوله الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ، ووصفهم أيضا بالبخل الشديد والامتناع عن إخراج الواجبات من أموال أنفسهم بقوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة » ، وإن يراد: المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانهم بالمرتشيين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم المال من غير وجوهه المشروعة له العذاب العظيم ، وإن يراد : كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحبار والرهبان أو كان من المسلمين . قال معاوية : ماهذا فينا . ماهذه الآية إلا فى أهل الكتاب، فقال له أبو ذر: إنها فيهم وفينا، فصار ذلك سببا فى الوحشة بينهما ، فكتب إلى عثمان أن أقبل إلى، فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل، فشكوت ذلك إلى عثمان وقلت : إنى والله لن أدع ما كنت أقول .. وأصل الكنز فى كلام العرب : الجمع، وكل شىء جمع بعضه فهو مكنوز ، يقال: هذا جسم مكتنز الأجزاء: إذا كان يجتمع الأجزاء ، واختلف علماء الصحابة فى المراد بهذا الكنز المذموم على قولين :

الأول ـ وهو ما عليه الأكثر ـ أنه المال الذى لا تؤدى زكاته، لما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا[1] أقرع يطوقه يوم القيامة، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » الآية ، وروى لما نزلت هذه الآية كبر على المسلمين، فذكر عمر رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطلب بها ما بقى من أموالكم ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى « ولا ينفقونها فى سبيل الله » يريد الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، قال القاضى عياض : تخصيص هذا المعنى بمنع

---

(١) أى حية رقطاء ، وهى أخبث الحيات .

الزكاة لا سبيل إليه ، بل الواجب أن يقال : الكنز هو الذى لم يخرج منه ما وجب إخراجه ، ولا فرق بين الزكاة وبين ما يجب من الكفارات ، وبين ما يلزم من نفقة الحج ، وبين ما يجب إخراجه فى الدين أو الحقوق والإنفاق على الأهل والعيال ، فيجب على كل هذه الآثام وأن يكون داخلا فى الوعيد .

والقول الثانى أنه المال الكثير فهو الكنز المذموم ، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بعموم الآية ، وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : تبا للذهب تبا للفضة ، قالها ثلاثا ، فقالوا له : أى مال نتخذ ؟ قال : لسانا ذاكراً وقلبا خاشعا وزوجة تعين أحدكم على دينه ، وقال عليه الصلاة والسلام : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها . وأجاب القائلون بالأول : إن هذا كان قبل فرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم أن يجمع عبده مالا من حيث أذن فيه ويؤدى ما أوجبه عليه فيه ثم يعاقبه ، وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال : كان قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله تعالى طهرة للأموال ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أدى زكاته فليس بكنز ، وكان فى زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة معهم الأموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم من أكابر الصحابة ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن التملك ، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه .

وقوله تعالى « ولا ينفقونها » ، مع أنه ذكر الذهب والفضة ، لأن الضمير راجع إلى المعنى دون اللفظ لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، وقيل : الضمير راجع إلى الأموال ، وقيل : التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب؛ لأنه داخل فى الفضة؛ ولأن ذكر أحدهما يغنى عن الآخر ، كقوله تعالى « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها » فجعل الضمير للتجارة ، وقيل التقدير : والذهب كذلك ، وخصهما بالذكر من بين سائر الأموال لأنهما اللذان يقصدان بالكنز ، فكان ذكر كنزهما دليلا على سواهما ،

ثم أنه تعالى لما بين من يكنز الذهب والفضة قال تعالى « فبشرهم » أى أخبرهم « بعذاب أليم » أى مؤلم ، وعبر بالبشارة على سبيل التهكم «يوم يحمى عليها» أى الكنوز بأن تدخل « فى نار جهنم » فيوقد عليها « فتكوى » أى تحرق « بها » أى بهذه الأموال « جباههم وجنوبهم وظهورهم » وسئل أبو بكر الوراق رضى الله تعالى عنه : لم خصت الجباه والجنوب والظهور بالكى ؟ قال : لأن الغنى صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته . وإذا جلس الفقير تباعد ، عنه وولى عليه ظهره ، وقيل : المعنى يكوون على الجهات الأربع .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مامن صاحب ذهب ولا فضة لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، كلما بردت عليه أعيدت له حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله ، إما فى الجنة ، وإما إلى النار « هذا ما كنزتم » على إرادة القول ، أى يقال لهم : هذا ما كنزتم « لأنفسكم » أى لمنفعتها « فذوقوا ما كنتم تكنزون » أى تمنعون حقوق الله تعالى فى أموالكم . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة ؛ فقلت : يارسول الله فداك أبى وأمى من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا إلا من قال : هكذا وهكذا من بين يديه وعن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الثانى من سورة التوبة وقد تضمن ماتضمن من الأصول الجليلة ، وفى مقدمتها أن الشرك لايجتمع مع الإيمان . وأن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لاتغنى عن الإيمان بالله شيئا ، ولا تستوى معه بأية حال من الأحوال ، فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لهم الدرجات العلى عند الله ، وهم الفائزون برضوانه وجنته ، يبشرهم

الله برحمة منه ورضوان ونعيم مقيم وعز لايحول ولا يزول ، ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يؤثروا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم بالصداقة والولاية إن اختاروا الكفر على الإيمان ، فالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة لايصح ان تكون عند المسلم أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله . . ويمتن الله على المسلمين بنصره لهم فى مواطن كثيرة ، وفى يوم حنين خاصة ، إذأعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا ، وولوا مدبرين حتى أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بملائكته البررة ، وخذل الذين كفروا وأورثهم ذل الهزيمة .. ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يسمحوا للمشركين بعد عامهم هذا أن يقربوا المسجد الحرام ، والله عز وجل هو الذى يغنى من يشاء من فضله .. ويأمر الله عز وجل المؤمنين أن يقاتلوا المشركين أواليهود والنصارى الذين يصدون عن سبيل الله ودينه الحق ،ويبين كفرهم وشركهم وشرك اليهود والنصارى مثلهم ، وعداوتهم للإسلام ومقاومتهم له ومحاولتهم إطفاء نوره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .. ويبين الله عز وجل صنيع كثير من الأحبار والرهبان هذا الصنيع المادى العجيب ، من حبهم للمال ، وجمعه من طرق الحرام . ومن صدهم عن سبيل الله ، ومن كنزهم الأموال وعدم إنفاقها فى سبيل الله ، ويهددهم بعذاب أليم ، وغضب من الله شديد .

الربع الثالث من سورة التوبة

٣٦ — إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ .

٣٧ — إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين اللتين هما مطلع الربع الثالث من سورة التوبة يبين الله عز وجل ضلال ما كان عليه المشركون من أمر النسىء ، ومن تغييرهم الشهور وفق أهوائهم وشهواتهم ، ويذكر أن الله جعل السنة اثنى عشر شهرا منها أربعة حرم ، وينهى عن النسىء نهيا قاطعا . وعن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ، ويجعلون المحرم صفرا ، ويقولون : إذا برا الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر .

وكان أول من أنسأ الشهور من مضر : مالك بن كنانة وكانت النساءة قبل ذلك فى كندة ، وتولى بعده النساءة الحرث بن مالك بن كنانة .. ثم صارت النساءة فى بنى فقيم من بنى ثعلبة حتى جاء الإسلام ، وكان آخر من نسىء منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد الله بن فقيم ، وجاء جنادة إلى الركن الأسود فى عصر عمر بن الخطاب ، فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال : أيها الناس أناله جار ، فأخروا ، فخفقه عمر بالدرة ، ثم قال : أيها الجلف الجافى قد أذهب الله عزك بالإسلام ، وقيل : أول من أنسأ الشهور هو القلمس حذيفة بن عبد الله بن فقيم ، ثم ابنه عياد بن حذيفة ، ثم قلع بن عياد ، ثم امية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن عوف ، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام .

وكان الذى ينسىء لهم إذا أرادوا أن يحلوا المحرم، يقوم بفناء مكة فيقول : أيها الناس، لاتحلوا حرماتكم ، وعظموا شعائركم ، فإنى أجاب ولا أعاب لقول.

قلته ، فهنالك تحرمون المحرم ذلك العام ، فكان ينسىء الإنساء سنة ويترك سنة ، ليحلوا الشهور المحرمة ، وليحرموا الشهور التى ليست بمحرمة ، فإذا أراد النسىء قام نخطب بفناء الكعبة ويجتمع إليه الناس يوم الصدر فيقول : أيها الناس ، قد انسأت العام صفر الأول[1] ـ يعنى المحرم ـ فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به ، فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول : صفرين ، ويقولون لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى شهرى ربيع ، ويقولون لجمادى الآخرة ولرجب : جمادين ، ولشعبان ورمضان : شعبان ، ولشوال رمضان، ولذى القعدة شوال ، ولذى الحجة ذا القعدة ، ولصفر الأول وهو المحرم الشهر الذى أنسأه ذا الحجة ، فيحجون تلك السنة فى المحرم ، ويبطل من هذه السنة شهر تنسئه ، ثم يخطب فى السنة الثانية فى وجه الكعبة فيحرم المحرم وهو صفر الأول ؛ ثم ينسأ فى السنة التالية فينسأ صفراً الأول ، وهكذا يستدير الحج كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذى ابتدأوا منه الإنساء وفى هاتين الآيتين يقول الله عز وجل . . . « إن عدة الشهور » أى عدها « عند الله اثنى عشر شهرا » وهو المحرم وصفر وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الثانى وجمادى الأول وجمادى الثانى ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة . . هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم ، وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ثلثمائة وستون يوما وربع يوم ، فتنقص السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف . قال المفسرون : وسبب نزول هذه الآية من أجل النسىء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية ، فكان حجهم يقع تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من

---

(١) كانت العرب فى جاهليتهم يسمون المحرم صفر الأول ، وصفرا صفر الآخر .

الشهور ، فأعلم الله تعالى أن عدة الشهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنى عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها ، وهو قوله تعالى « إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً » فى علمه وحكمه « فى كتاب الله » أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل ، وهو أصل للكتب التى أنزلها على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل: فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا « يوم خلق السموات والأرض » أى أن هذا الحكم حكم به وقضاه يومئذ أن السنة اثنى عشر شهراً « منها » أى من الأشهر « أربعة حرم » ثلاثة سواء ذو القعدة بفتح القاف وذو الحجة بكسر الحاء على المشهور فيها ـ وسميا بذلك لقعودهم عن القتال فى الأول ولوقوع الحج فى الثانى، والمحرم ـ وسمى بذلك لتحريم القتال فيه كأنه قيل: هذا الشهر الذى ابتدأ أول السنة ، وواحد فرد وهو رجب هو الصواب كما قاله النووى فى شرح مسلم، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنى عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان » ، وعده الكوفيون من سنة واحدة ، فقالوا المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، ومعنى الحديث أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة، وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة ، وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ، ومعنى المحرم أن المعصية فيها أشد عقابا والطاعة فيها أكثر ثوابا ، والعرب كانوا يعظمونها جداً حتى لو لقى الرجل أباه لم يتعرض له ، ولا استبعاد فى تخصيص بعض الأشهر بمزيد فضل وحرمة « ذلك » أى تحريم الأشهر الأربعة « الدين القيم » أى المستقيم وهو دين إسمعيل وإبراهيم عليهما السلام ، والعرب ورثوه منهما، وقيل : المراد بالدين الحساب ، يقال: الكيس من دان نفسه أى حاسبها ، والقيم معناه المستقيم ، فتفسير الآية على هذا التقدير : هذا الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوى ، وقال الحسن : ذلك للدين القيم

الذى لا يبدل ولا يغير ، فالقيم هنا بمعنى القائم الدائم الذى لا يزول وهو الدين الذى فطر الناس عليه « فلا تظلموا فيهن » أى الأشهر الحرم « أنفسكم » بالمعاصى، فإنها فيها أعظم وزر ، لأن الله تعالى خص هذه الشهور بمزيد احترام فى آية أخرى وهو قوله تعالى « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » فهذه الأشياء غير جائزة فى غير الحج أيضاً ، إلا أنه تعالى أكد فى المنع منها فى هذه الأيام تنبيها على زيادتها فى الشرف ، وقال ابن عباس : إن المراد : فلا تظلموا فى الشهور الإثنى عشر أنفسكم . والمقصود منع الإنسان من الإقدام على الفساد مطلقاً فى جميع العمر ، قال الفراء : والأول أولى ، لأن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة (فيهن)، فإذا جاوزوا هذا العدد قالوا (فيها) ، والجمهور على أن حرمة المقاتلة فى الأشهر الحرم منسوخة ، وعن عطاء : لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم والأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ، ويؤيد الأول ماروى أنه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة « وقاتلوا المشركين كافة » أى جميعا فى كل الشهور « كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » بالعون والنصرة، ومن كان الله معه نصره لا محالة « إنما النسىء » أى التأخير لحرمة شهر إلى آخر كما كانت الجاهلية تفعل ، فكانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ورفضوه خصوصا الأشهر ، واعتبروا مجرد العدد فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمون صفراً ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير صفر أخروه إلى ربيع وهكذا شهر بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها ، وكانوا يحجون فى كل شهر عامين، فحجوا فى ذى القعدة عامين ثم حجوا إلى المحرم عامين ثم حجوا إلى صفر عامين، وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة فى ذى القعدة قبل حجة الوداع بسنة ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجه فى شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع ، فوقف بعرفة فى اليوم المشروع

التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر ، وأعلمهم أن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام ، وقد رجع المحرم إلى وضعه الذى وضعه الله فيه . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته لنا : أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس الشهر الحرم ؟ قلنا : بلى، قال : فأى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس البلد الحرام ؟ قلنا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلاترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألاهل بلغت، ألاهل بلغت ، قلنا نعم ، قال: اللهم اشهدوا. واختلفوا فى أول من سأل النبى صلى الله عليه وسلم : فقال ابن عباس : بنو مالك بن كنانة ، وكان يليه أبو ثمامة وجنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، وكان يقوم على جمله من الموسم فينادى : عليكم المحرم فحرموه ، وقال الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، وقيل : أول من فعل ذلك عمرو بن لحى ، وهو أول من سيب السوائب ، وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار « زيادة فى الكفر » حكى الله عنهم أنواعا كثيرة فى الكفر فإنما ضموا تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى وهو كفر ، فكان ضم هذا العمل إلى تلك الأنواع المتقدمة من الكفر زيادة فى الكفر ، لان الكافر كلما أحدث طاعة ازداد بها كفرا ، كما أن المؤمن كلما ازداد طاعة ازداد بها إيمانا ، لقوله تعالى «فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون » ، « يضل به » أى بهذا التأخير الذى هو النسيء « الذين كفروا

يحلونه ، أى يحلون النسيء من الأشهر الحرم : عاما ، ويحرمون مكانه شهرا آخر ، ويحرمونه عاما ، فيتركونه على حرمته ، وإنما فعلوا ذلك « ليواطئوا » أى ليوافوا « عدة » أى عدد « ماحرم الله » الأشهر ، فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون عنها ولا ينظرون إلى أعيانها « فيحلوا ما حرم الله » بمواطأة العدة من غير مراعاة الوقت الذى يحلون إليه الأشهر الحرم « زين لهم سوء أعمالهم » قال ابن عباس : زين لهم الشيطان هذا العمل الذى عملوه حتى حسبوا هذا القبيح حسنا « والله لا يهدى القوم الكافرين » أى هداية موصولة إلى الاهتداء لما سبق لهم فى الأزل أنهم من أهل النار .

٣٨ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

٣٩ — إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

٤٠ — إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٤١ — انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

٤٣ — لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة حث على القتال فى سبيل الله والإسلام ، وتوبيخ على التثاقل وكراهية الحرب والقتال ، وفيها اعتداد بنعمة الله عز وجل على محمد وعلى المسلمين ، بنصره لهم ، وتأييده إياهم ، ورعايته للرسول وصاحبه أبى بكر فى هجرة الرسول من مكة إلى المدينة .

ويؤكد الله عز وجل أمر المسلمين بالجهاد فى سبيل الله وبالخروج للقتال دون وناة أو إبطاء ، ويبالغ فى توبيخهم على ترددهم وبطئهم.. وفى سبب نزول هذه الآيات يروى أنه لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف إلى المدينة وحث على غزوة تبوك ،وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر ، وطابت ثمـار المدينة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلاورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزو ، فشق عليهم الخروج وتثاقلوا ، فنزل قوله : « ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم » أى تثاقلتم وتباطأتم « إلى الأرض » والمقصود فيها الاستفهام للتوبيخ . قال المحققون : وإنما تثاقل الناس من وجوه : الأول شدة فى الضيق والقحط ، والثانى بعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به عادتهم فى سائر الغزوات ، والثالث إدراك الثمار بالمدينة فى ذلك الوقت ، والرابع شدة الحر . . ثم قال لهم الله تعالى : « أرضيتم بالحياة الدنيا » وغرورها « من الآخرة » ونعيمها « فما متاع الحياة الدنيا فى » جنب متاع « الآخرة إلا قليل » أى حقير لأن متاع الدنيا يفقد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الدوام . فلهذا

السبب كان متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة قليلا . وفى هـذا دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت ، لأن الله تعالى نص على أن تثاقلهم فى الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عابهم فى التثاقل ، ويؤكد هذا الوعيد المذكور فى قوله تعالى : « إلا تنفروا » أى تخرجوا مع النبى صـلى الله عليه وسلم للجهاد «يعذبكم عذابا أليما » أى مؤلما فى الآخرة ، لأن العذاب الأليم لا يـكون إلا فيها أو بالإهلاك بسبب قطيع كحفظ وظهور عدو ، وقيل : باحتباس المطر عنهم ، قال ابن عباس : استنفر رسول الله صـلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا ، وأمسك الله عنهم المطر فـكان ذلك عذابهم « ويستبدل قوما غيركم » أى يأت بهم بدلكم « ولا تضروه شيئاً » أى ولا تضروا الله ، أو لا تضروا رسول الله شيئاً قليلا فضلا عن الـكثير « والله على كل شىء قدير » أى فيقدر على نصر الضعفاء وعلى ذلة الأقوياء .

وقول الله تعالى فى كتابه الحـكيم : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصـاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سـكينته عليه ؛ وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ؛ وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حـكيم » . يشير إلى الهجرة ونصرة الله عز وجل لرسوله فيهـا ، وهى معجزة وعاها الزمن ، ورددتها الأجيال ؛ ووقف التاريخ حيالها معجباً مشدوهاً ، يتدبر ليفهم آياتها الـكبرى ؛ يمعن ليدرك أسرارها الخالدة ؛ وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية . . هذا الرسول النبى الأمى يتلقى الدعوة من الله ؛ فيصدع بما يؤمر ، ويجاهد فى سبيل نشر كلمة التوحيد ؛ ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان، كفاحا لم تر الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور والرحمة والخير والحرية والإخاء والسلام ، ولـكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل . وامتدت يد الطغيان بالإيذاء والبطش والتهديد والوعيد إلى محمد صلى الله عليه وأصحابه ، وحاولوا أن يكموا أفواه دعاة الرسول حتى لا يفتتن الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من أسلم بالامتهان والعذاب الأليم ،

ووقفوا يحولون بين محمد صلوات الله عليه وتبليغ رسالته بكل مايستطيعون ، منعوه بالقوة أن يلقى القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشر المشركون دعايات أثيمة لتنعر الناس منه ، فقالوا . هو شاعر وساحر وبه جنة وهى أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، وائتمرت قريش بالرسول وهددوا عمه أبا طالب بالحرب ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته وقاطعوهم أعواما ثلاثة ، واضطهدوا أنصارهم وشردوهم ولاحقوهم فى البلاد ؛ وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، ومحمد صامد فى جهاده سائر إلى غايته ؛ يضحى بنفسه لإنقاذ البشرية وتغيير مجرى الحياة ؛ وهو يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ؛ والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وأخذ الرسول يصدف عن قريش والمشركين إلى أهل المدينة من حجاج بيت الله العتيق ، يبلغهم الدعوة ، فآمن به من آمن ، ثم عقد معهم حلفا ، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة ، وأذن لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . لكن قريشا والمشركين لم يكفوا ، فأجمعوا أمرهم على قتل الرسول ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه رابط الجأش ، مطمئن الإيمان ، ينشر على من حوله السكينة والطمأنينة ، ويقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة » . ونبأه الله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح ، يعلمه الأمر ، وأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة ؛ وأنه اختار أبا بكر صاحبه فى هجرته ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه من الفرح ، وأخذ للأمر أهبته ، وبات على فى مكان الرسول الأعظم فى الليلة الموعودة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة مهاجرا إلى المدينة . وأحاطه الله بتأييده ورعايته ونصرته وحفظه ، وأيده بالملائكة يذودون عنه ويحمونه وهو فى الغار ، كما أيده بهم من بعد فى بدر والأحزاب وحنين . .

ولقد أذن الله تعالى له بالهجرة والخروج من مكة بعد أن جعل المشركون الدعوة إلى الإسلام ضربا من المحال ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، ولكن الله لم يتركه ، بل كان معه ، ينصره وينصر دينه ، ويحمى دعوة السلام والحق والإيمان ، ويذود المشركين عن محمد هو وصاحبه فى الغار ، ثم وهما سائران فى الطريق إلى المدينة ، وأنزل عليه وعلى صاحبه السكينة والأمن والطمأنينة ، وحفه بجنود الله من الملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا وما أجمعوا عليه من الشرك والكفر والطغيان والإثم ، وما دبروه من كيد لقتل محمد وخنق رسالته ، جعل كلمتهم هى السفلى ، وكلمة الله ودعوة التوحيد ورسالة الحرية والسلام والإسلام دائما أبدا هى العليا ، لا يخفت لها صوت ولا ينطفىء لها نور ، ولا تنكس لها راية ، ومهما ارتفع صوت الكافرين والماديين من أولى الحضارات التى تتنكر للإسلام ، فإلى أمد وحين ، والغلبة والعزة لله ورسوله وللمؤمنين . ولقد بنى لها محمد صرح الخلود والعزة والمجد والجلال ، من يوم أن خلصه الله من أيدى الكفار ، ونجاه فى هجرته إلى المدينة . . فالهجرة كانت المبدأ فى إعزاز كلمة الله ونشر دعوة الإيمان والإسلام ، وهى نصر من السماء ما بعده نصر ، وتأييد ليس يعلوه تأييد ، والله عزيز فى حكمه لا يغلبه غالب ، وحكيم فى تدبيره لا ينقضه إنسان . فكيف بكم أيها المسلمون تتأخرون ، إذا دعا الرسول للجهاد فى ساعة العسرة . حين عزم على غزو الروم فى تبوك عام عشرة من الهجرة ، وقت قحط وقيظ ، ومع بعد الشقة وكثرة العدو وأخطار الجهاد ؟ كيف بكم لا تلبون داعى الله ، وتخلدون إلى الأرض والهوان : أآثرتم الدنيا وزينتها على حب التضحية والكفاح فى سبيل الله والدين ؟ إلا تنصروا الله ودينه ورسوله حينئذ ، فإنه ناصره ومؤيده وراعيه ، وقد نصره فى مواطن كثيرة : يوم هجرته ، ويوم بدر ، والأحزاب ، وحنين ، حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، وأعز الإسلام ، وكتب المجد والفخار والخلود والعزة للمسلمين .

ولنترك عائشة أم المؤمنين ، تحدثنا حديث يوم الهجرة الخالد ، وما سبقه

من أيام عظيمة خالدة ، قالت عائشة فيما رواه البخاري عنها : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة ـ وهو سيد من سادات العرب ـ فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال ابن الدغنة : فإن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه بن الدغنة ، فطاف الرجل عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لايخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الدهر؟ فلم تكذب قريش بجواره ، وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك[1] ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان ، فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت

(١) أى ننقض عهدك

له ، فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل..
والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ؛ وقد هاجر من هاجر قبل المدينة ،
ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل
المدينة ـ للهجرة إليها ـ فقال له رسول الله : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن
لى ـ أى بالهجرة إلى المدينة ـ فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه » .

قالت عائشة : فبينما نحن يوم جلوس فى بيت أبى بكر فى نحو الظهيرة ،
قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، فى ساعة لم
يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه
الساعة إلا أمر . فجاء رسول الله ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال لأبى
بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يا رسول
الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى يا رسول
الله ، قال رسول الله : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى
راحلتى هاتين ،. قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ـ أى أسرعه ـ وصنعنا
لهما سفرة ـ أى زاداً ـ فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ـ
أى حزامها ـ فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين .

بات على فى تلك الليلة الموعودة مكان رسول الله ، وخرج محمد
صلوات الله عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون
والأرصاد ، والسيوف والأحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف
لسفك دمه فى آخر الليل . وسار معه أبو بكر حتى وصلا غاراً بجبل ثور ـ
وهو قرب مكة على مسيرة ساعة ـ فدخلاه ومكثا فيه ثلاث ليال وقريش
يكاد يذهلها الجنون ؛ ويقتلها الغيظ ، وقصاصو الأثر فى كل مكان وطريق ،
يبحثون عن محمد وصاحبه ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين ، حتى وصلوا
إلى الغار ، والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول
للرسول . لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك ،
فانك إن قتلت هلكت الأمة ، وإن تصب اليوم ذهب دين الله . فقال له
الرسول : لا تحزن إن الله معنا ، وما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ويقول : اللهم

أعم أبصارهم . . قالت عائشة : وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ، فيدلج - أي يخرج - من عندهما بسحر . فيصبح مع قريش بمكة فلا يسمع أمرا إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

وبعد أن خف طلب المشركين لهما جاءهما رجل أمناه ، براحلتيهما ، صبح ثلاث ليال ، وأخذ طريق الساحل إلى المدينة . وكان كفار قريش قد جعلوا في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فخرج سراقة بن خثعم بفرسه ورمحه سائرا في الصخر يبحث عن الرجلين ، حتى سمع قراءة رسول الله وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه في الأرض فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى جاء رسول الله وأبا بكر ، فقال : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض سراقة عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا وقالا له : اكتم عن الناس خبرنا ، وكتب له الرسول كتاب أمن ، وسار رسول الله ، فلقي الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام بتجارتهم ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابا بيضا ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج محمد من مكة ، وهجرته إلى بلدتهم الطيبة ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فرجعوا يوما إلى بيوتهم بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم اطلع رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم لأمر من أموره ، فشاهد محمدا وصاحبه قادمين نحو المدينة فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا رسولكم وجدكم - أي حظكم - الذي تنتظرون ؛ فهب المسلمون وأخذوا السلاح يتلقون رسول الله خارج المدينة ؛ فوصل إليها يوم الإثنين تاسع شهر ربيع الأول ، وأقام رسول الله في حي بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ؛ وصلى فيه رسول الله ؛ ثم ركب راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مكان يصلي فيه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هذا إن شاء الله المنزل ؛ واشترى الأرض من صاحبيها وكانت لغلامين يتيمين ، وبنى فوقها مسجده

النبوى الشريف ؛ وما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأخذ يؤلف القلوب ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار، ويحالف سكان المدينة من اليهود . ليفرغ لبناء أول دولة إسلامية قامت على ظهر الأرض ، فأعزه الله وأيده بروح من عنده . وهكذا صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم المشركين والمفسدين والمتآمرين وحده ، إذ نجى محمدا فى هجرته ، وحاطه بتأييده ورعايته، وأيده بالملائكة لحمايته ، وصدق الله العظيم حين يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . عاش محمد بعد الهجرة كما كان ، رسول رب العالمين ، ومثال الإنسانية الرفيعة ، ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، ومشرق النور الإلهى العظيم ، ورئيس الدولة الإسلامية العادل الحكيم ، والمثل الكامل للناس جميعا ، يعلم العلماء أسمى نظام الكون ، والمصلحين أكمل نظم الاجتماع ، والمشرعين أصلح قواعد التشريع ، ويضع أساس دولة ليس لها نظير بين الدول على وجه الأرض ؛ كان هو قائدها المحنك المدرب العظيم ، وبطلها المرجى المحبوب الشجاع .

ولقد صنع محمد المعجزة التى لم يصنعها أحد قبله : بهجرته . وبما تلا . هجرته : من جهاده الخالد العظيم فى سبيل الله ، لبعث يقظة روحية جديدة تغمر العالم كله ، وللدعوة إلى مبادىء حية لم يسمع بمثلها سمع الزمان . والتبشير بحياة مثلى تسودهم المساواة والعدالة والمحبة والتعاون والإخاء والاشتراكية الحقة والديمقراطية الصحيحة والشعور بالمسئولية فى الحياة . وكانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .. ففى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ، ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد

والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد .. ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها — طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

والطائفة الثانية — هم الذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة — يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لا بد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة . واطمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد

بحمايتهم والدفاع عنهم فى وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها ، والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، وبين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريداً فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : تآخيا فى الله أخوين أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله بين المهاجرى والأنصارى فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى بين هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ فى العقيدة لا فى النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة . وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء . وجدت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لاعهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم ؟ هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم . فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ، ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع ، ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعمر وعلى وسواهم ، وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها نجاحاً عجيباً ، كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب

إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله ولم تخافون عليه ؟ كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا . ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ؛ حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان وإطعام الجائع ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء ، وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه . قالت عائشة : ماشبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، لو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ قالت : أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا أنى لست أقدر على طعام آكله ، حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال : لاتجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة . وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها ، وعاد لايمسك منها درهما . وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما فى فضيلة

الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم، وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة ، اذهبوا بهـا إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة : فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبو إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الجليلة : « إلا تنصروه » أى إلا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون « فقد نصره الله » فإنه المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم فى إعزاز دينه وإعلاء كلمته ، أعنتموه أم لم تعينوه ، فإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد . وقد نصره الله « إذ » أى حين « أخرجه الذين كفروا » من مكة حين مكروا به وتشاوروا فى قتله أو إخراجه أو إثباته فى دار الندوة ، فكان ذلك لإذن الله له فى الخروج من بينهم حالة كونه « ثانى اثنين » أحدهما أبو بكر رضى الله عنه لا ثالث لهما ، لم ينصرهما إلا الله تعالى « إذ » بدل من إذ قبله « هما فى الغار » غار ثور بأسفل مكة على بعد ساعة منها « إذ » بدل ثان « يقول » صلى الله عليه وسلم « لصاحبه » أبى بكر الصديق رضى الله عنه ـ وثوقا بربه غير منزعج من شىء ، وقد قال له أبو بكر لما رأى أقدام المشركين ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا « لاتحزن » الحزن هم شديد بتوجع يرق له القلب ، وإنما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يحدث ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما طلب المشركون الأثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لاتحزن « إن الله معنا » فقال له أبو بكر : وإن الله لمعنا ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم ، فجعل يمسح الدموع عن خده .. وروى أنه لما طلع المشركون فوق الغار وأشفق

أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن تصب اليوم ذهب دين الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما ظنك باثنين ثالثهما الله تعالى . وروى أنهما لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أعم أبصارهم ، فجعلوا يترددون حول الغار ولا يشهدون أحدا .. وقد دلت هذه الآية على ما يأتى :

١ — أن الهجرة كانت بإذن الله تعالى ، وكان فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين ، وكانوا فى النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب من أبى بكر رضى الله عنه ، فلولا أن الله أمره بأن يستصحبه فى تلك الوقعة الصعبة الهائلة لكان الظاهر أنه لايخصه بهذه الصحبة ، وتخصيص الله تعالى له بهذه التشريف دل على منصب عال له فى الدين .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « لاتحزن إن الله معنا » لاشك أن المراد من هذه المعية الحفظ والنصر والحراسة والمعونة ، وقد جمع صلى الله عليه وسلم بين نفسه وبين أبى بكر فى هذه المعية وكفى بها شرفا .

٣ — قوله : « لا تحزن » نهى عن الحزن مطلقا ، والنهى يوجب الدوام والتكرار ، وذلك يقتضى أنه لايحزن أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد ذلك البتة ، قبل الموت وعند الموت وبعده .

هذا وقد أطبق الكل على أن أبا بكر هو الذى اشترى الراحلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن عبد الله بن أبى بكر وأسماء بنت أبى بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام . وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبى بكر : أنت صاحبى فى الغار وصاحبى فى الحوض ، قال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو جائر لإنكاره نص القرآن .. « فأنزل الله سكينته » أى طمأنينته « عليه » ، والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم أو لأبى بكر رضى الله عنه ورجح الثانى بوجوه :

الأول : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور ، وأقرب المذكور المتقدم فى هذه الآية هو أبو بكر لأنه تعالى قال «إذ يقول لصاحبه لاتحزن»، والتقدير إذ يقول محمد صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبي بكر رضى الله تعالى عنه : « لاتحزن » .. وعلى هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فوجب عود الضمير إليه .

الثانى : أن الحزن والخوف كانا حاصلين لأبى بكر لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان آمنا ساكن القلب فيما وعده الله أن ينصره على قريش ، فلما قال لأبى بكر : لا تحزن صار آمنا ، فصرف السكينة لأبى بكر ليصير ذلك سببا لزوال خوفه أولى من صرفها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان قبل ذلك ساكن النفس قوى القلب .

الثالث : أنه لوكان المراد إنزال السكينة على الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذلك كان خائفا ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبى بكر رضى الله تعالى عنه : « لاتحزن إن الله معنا » .. فمتى كان خائفا لا يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ، ولو كان راجعا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال: فأنزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لاتحزن ، فيكون ذلك مما يدل على فضيلة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

ولما قربا من المدينة وصل الخبر إلى الأنصار فخرجوا مسرعين فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهر الحرة ونزلوا بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام فى بنى عمرو بضع عشرة ليلة ، وأسس رسول الله المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .. وكان مكانه مربد تمر لسهيل وسهل ، فساومهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا ، فقالا: بل نهبه لك يارسول الله ، ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنائه . . هذا وإظهار خروجه صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه مما يدل على فضيلته وفضائله رضى الله عنه .. وقوله تعالى « وأيده » الضمير للنبى صلى الله عليه وسلم وهو معطوف

على قوله تعالى « فقد نصره الله » ، « بجنود لم تروها » أى من الملائكة الكرام في الغار ويوم بدر والأحزاب وحنين وجميع مواطن قتاله « وجعل كلمة » أى دعوة « الذين كفروا » أى الكفر « السفلى » أى المقلوبة « وكلمة الله » أى الإسلام « هى العليا » أى الغالبة الظاهرة ، وقيل : كلمة الذين كفروا ما كانوا قدروها بينهم من الكيد بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وكلمة الله هى ماوعده بالنصر والظفر بهم ، فكان ماوعده الله حقا وصدقا « والله عزيز » فى ملكه « حكيم » فى أمره وتدبيره لايمكن أن ينتقض شىء من مراده فلا محيص عن نفوذ ماأراده « انفروا خفافا وثقالا » أى على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التى يثقل عليكم ، وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة ، ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها . فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نشاطا وغير نشاط ، وقال الهمدانى : أصحاء وأصحاب مرض ، وعن صفوان ابن عمرو : كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو ، قلت : يا عم قد تجاوز الله عنك ، فرفع حاجبيه ، وقال : استنفرنا الله خفافا وثقالا لأن من يحبه الله يبتليه ، وعن الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقال : إنك عليل صاحب مرض فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكننى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ، وعن ام مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أعلى أن أنفر ؟ قال : ماأنت إلا خفيف أو ثقيل ، فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، الآية فهى منسوخة بذلك ، وقال ابن عباس : نسخت : بقوله تعالى « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » الآية : وقال السدى : لما نزلت اشتد شأنها على المسلمين فنسخها الله تعالى وأنزل « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » . وقال عطاء الخراسانى : إنها منسوخة بقوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ، « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » أمر إيجاب للجهاد « ذلكم »

أى هذا الأمر العظيم « خير لكم إن كنتم تعلمون » أى تعرفون ثواب الجهاد فى سبيل الله . ونزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك « لوكان » أى ماتدعون « عرضا » أى متاعا من الدنيا يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر « قريبا » أى سهل المأخذ « وسفرا قاصدا » أى وسطا ، فحذف اسم كان وهو ماقدرته ، قال الزجاج : وحذفه لدلالة ماتقدم عليه ، وإنما سمى السفر قاصدا ، لأن المتوسط بين الإفراط والتفريط يقال له تقصد ، لأن المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل واحد ، وقوله تعالى (قاصدا) أى ذو قصد «لاتبعوك» أى وافقوك فى طلب الغنيمة « ولكن بعدت عليهم الشقة » أى المسافة التى تقطع بمشقة « وسيحلفون » أى المتخلفون « بالله » إذا رجعت من تبوك معتذرين « لو استطعنا » أى لو كان استطاعة بالبدن أو العدة « لخرجنا » أى فى هذه الغزوة « معكم يهلكون أنفسهم » أى بسبب هذه الأيمان الكاذبة « والله يعلم أنهم لكاذبون » فى ذلك ، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج .

٤٣ — عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

٤٤ — لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ .

٤٥ — إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث عتاب للرسول صلى الله عليه وسلم على إذنه بالتخلف لهؤلاء المترددين والمتخلفين عن رسول الله ، وتقرير لحقيقة الأمر ، وهو أن المؤمنين بالله حق الإيمان لا يستأذنون من رسول الله فى التخلف عنه فى معركة من المعارك ، إنما يستأذن منه ضعاف الإيمان بالله ورسوله ، ممن ملأت الحيرة والنفاق قلوبهم .. « عفا الله عنك لم أذنت لهم » أى عفى الله

تعالى عنك يامحمد ما كان منك فى ذلك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك إلى تبوك ، واختلفوا هل فى ذلك معاتبة للنبى صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ فقال عمرو بن ميمون : اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من أسارى بدر . فعاتبه الله تعالى كما تسمعون ، وقال سفيان بن عيينة : بدأ الله تعالى بالعفو قبل أن يعيره ، وقال القاضى عياض فى الشفاء : إن هذا لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه فلم يعده أهل العلم معاتبة ؟ وغلط من ذهب إلى ذلك ، وليس عفا بمعنى غفر بل كما قال صلى الله عليه وسلم : « عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق » ولم يجب عليهم قط أى لم يكن يلزمكم ذلك ونحوه ؛ قال : وإنما يقول : العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب ، وقال مكى : هو استفتاح كلام مثل : أصلحك الله وأعزك ، وقال السمرقندى : إن معناه عافاك الله ، وقال الرازى : إن ذلك يدل على مبالغة الله فى توقيره وتعظيمه كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده : عفا الله عنك ما جوابك عن كلامك ، ورضى الله ما صنعت فى أمرى ، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم أى كما كانت عادة العرب فى مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا : أصلح الله الأمير أو الملك أو نحو ذلك « حتى يتبين لك الذين صدقوا » أى فى اعتذارهم « وتعلم الكاذبين » أى فيما أظهروا من الإيمان باللسان لو لم يأذن لهم لقعدوا بلا إذن غير مراعين ميثاقهم الذى واثقوك عليه بالطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، قال ابن عباس : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة « لا يستأذنك » أى لا يطلب إذنك بغاية الرغبة فيه « الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » أى الذى يكون فيه الخبر بالثواب والعقاب « أن » أى فى أن « يجاهدوا » وإنما حسن هذا الحذف لظهوره « بأموالهم وأنفسهم » بل يبادرون إلى الجهاد عند إشارتك إليه فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف

عنه ، فإن قيل : الخلص من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون : لا نستأذنه صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد مرة ، فأى فائدة إلى الاستئذان ولنجاهد معه بأموالنا وأنفسنا . وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلى رضى الله تعالى عنه فى غزوة تبوك لما أمره صلى الله عليه وسلم بأن يبقى فى المدينة شق عليه ولم يرض ، حتى قال له صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى « والله عليم بالمتقين » أى الذين يتقون مخالفته صلى الله عليه وسلم ويسارعون إلى طاعته « إنما يستأذنك » يا محمد فى التخلف عن الجهاد معك من غير عذر « الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر » وهم المنافقون لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا « وارتابت » أى شكت « قلوبهم » فى الدين ، وإنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان ، فإذا دخله الشك والارتياب كان ذلك نفاقا « فهم » أى فثبت عن ذلك أنهم « فى ريبهم يترددون » لأن المنافقين متحيرون ، فهم لا مع الكفار ولا مع المؤمنين . .
وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآيات ، فقيل : إنها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهو قوله : « إنما يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، وقيل : إنها محكمات كلها ، ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله تعالى وجهاد عدوهم من غير استئذان ، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بذلك .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الثالث من سورة التوبة . . وخلاصة ما تضمنه من أصول هى :

١ – تثبيت التقويم القمرى وتحريم النسىء .
٢ – الأمر بقتال المشركين لدفع شرهم واجتناب أحقادهم ومقاومتهم للإسلام والمسلمين . .

٣ — النهى عن التباطؤ فى الخروج لقتال المشركين ، وتوبيخهم على ذلك توبيخا شديداً .

٤ — امتنان الله عز وجل على المسلمين وعلى الرسول بنصره لهم فى هجرة محمد بن عبد الله ، وبتأييد الله لهم ، وإنقاذه هو وصاحبه أبى بكر من أيديهم الطاغية الباغية .

٥ — الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس وعتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم بالتخلف عن المعركة .

ولم يؤذن الله له بالهجرة إلا بعد أن صبر الرسول ثلاث عشرة سنة على ذلك الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فإنه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فوق الخمسين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها إلى الهدوء والسكينة . . ولو كانت مجرد مشادات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فإن من الناس من يأنسون إلى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ، ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى، حتى اضطر عدد كبير منهم إلى المهاجرة مرتين ، ضناً بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمتها على الهجرة إلى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبى على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة إلى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته . فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من

حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا إليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . وهذه الثقة من النبى صلى الله عليه وسلم فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة إلى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ، وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شرة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبى ليلحق به ، إلا والخطر محدق ولا يمكن دفعه ؟ وأعظم ما تجلت ثقة النبى صلى الله عليه وسلم بربه كان فى غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصديق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت إليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم . فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفلج ، وهذا لا يكون بغير وحى . . ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى إليه الأثر ، يأخذه العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبيلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم ، فيكون عدم تعويلهم على قوله : مع وجود الغار فاغرا فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما

يروى عن قوم كالعرب شديدى الكلب على اعدائهم ! رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه ترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن تتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه . ولا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم إلى أبعد حدود الخطورة . ولسنا نكتفى بهذا ، ولكننا نقول . كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كوكبة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فاذا لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدى دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا اتجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ إلى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى إلى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته . ولقد كانت الهجرة فاصلا بين الذلة والعزة ، وبين الضعف والقوة . خرجت بها من دار عفن جوها بالشرك والضلال ، وفسد هواؤها بالجور والظلم ، والكفر والفجور ، إلى دار عبق فيها عطر الحرية ، ويملأ جوها نسيم التوحيد والطهر وذكر الله ، ووجدت بيئة صالحة ترقى فيها التعاليم الإلهية ، والنظم القدسية ، وترتل الكتاب ، وتعد العدة لنشره على الناس ، ووضعت سياستك الحكيمة لإصلاح الأمم ، وتقويم الخلق ، ورفعهم إلى المستوى الذى أحبته ، واطمأنت إليه نفسك ، ورضيه الله للعباد ولهذا اختار المسلمون يوم الهجرة ، وجعلوه مبدأ التاريخ . فهو رمز إلى ما احتملته فى سبيل الله ، ورمز إلى انتصار الحق على الباطل ، ومذكر بمدأ العزة للمسلمين .

وعند ما يشرق على الكون هلال العام الهجرى يذكر المسلمون حادثا من أبسط الحوادث فى صوره ، لكنه من أجل الحوادث خطرا فى مغزاه وفى أثره ؛ حادث هجرة النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من مكة موطن آبائه وعشيرته ، وأول أرض مس جسده ترابها واستقبله هواؤها . وأول مكان اتصل فيه بعالم القدس وبالملأ الأعلى وتلقى رسالة ربه على يد ملائكته . يذكرون هذا وما أحاط به ثم يحمدون الله على فضله ؛ فقد وجهته العناية الإلهية هذه الوجهة لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى القربى ، وليجد حرية الرأى والعقيدة فى مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم حبه ، وملأ أفئدتهم جلاله ، واستعدوا للذود عن حياض الإيمان ومحاربة الباطل ، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ؛ ويثير حادث الهجرة تصور معركة عنيفة بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والحلم والجهل والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والرشد والغى ، والاستقامة والفجور ، وبين عدد قليل سلاحه الحجة والبرهان ، واليقين والإيمان ، وعدد كثير يعتمدون على تقليد الآباء ، ويضعون أصابعهم فى آذانهم لئلا تنفذ إليها الحجة ، والأغطية على عيونهم لئلا تبصر نور الحق ، ويعتمدون على القوة ؛ وتتمثل أمام النفس صورة الحق يكاد يخنقه الباطل ويتركه على الأرض صريعا لا يقوى على النضال ، وإذا بنفحة من قبل الحق تهب ، وإذا به ينهض فيصرع الباطل ويهزمه ، ويعلو عليه ويقتلع سلطانه .

الربع الرابع من سورة التوبة

٤٦ – وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ
انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

٤٧ – لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ .

٤٨ – لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ
الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ .

٤٩ – وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ

٥٠ – إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا
قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ .

٥١ – قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

٥٢ – قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ
أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ .

٥٣ – قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ

كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

٥٤ — وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

٥٥ — فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

٥٦ — وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ .

٥٧ — لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

هذه الآيات الكريمة الإثنتى عشرة هى فى شأن الذين تخلفوا عن الذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك ، وبيان فظاعة أمرهم ، وفداحة شأنهم ، وعظم جرمهم ، وشدة نفاقهم ، وكذب اعتذاراتهم، وباطل احتجاجهم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الإثنتى عشرة : « ولو أرادوا الخروج » أى الغزو معك « لأعدوا له » أى قبل حلوله « عدة » أى قوة وأهبة من السلاح وغيره بحيث يكونون كالحاضرين فى صلب الحرب الواقفين فى الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها ، ولما كان قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج » يعطى معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو، أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى : « ولكن كره الله انبعاثهم » أى لم يرض خروجهم معك إلى الغزو « فثبطهم » أى حبسهم بالجبن والكسل ، « وقيل » لهم « اقعدوا مع القاعدين » أى مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعتذار .

ومعنى « قيل لهم » أى قدر الله تعالى عليهم ذلك بأن ألقى فى قلوبهم العقود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين ، وقيل : القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه بالقعود فقال لهم : اقعدوا مع القاعدين . وخروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم إما إن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فلم قال : لنبيه صلى الله عليه وسلم « عفا الله عنك لم أذنت لهم » فى ترك الخروج ؟ أجيب بأن خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى : « لوخرجوا فيكم » أى معكم « مازادوكم » بخروجهم « إلا خبالا » أى فسادا أو شرا بتخذيل المؤمنين « ولأوضعوا خلالكم » أى أسرعوا بينكم فيما يخل بكم بالمشى بالنميمة « يبغونكم الفتنة » أى يطلبون منكم ما تفتنون به ، وذلك أنهم يقولون للمؤمنين : لقد جمعوا لكم كذا وكذا ، ولاطاقة لكم فيهم وأنكم مهزومون بهم ، ويظهرون عليكم ، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التى تبعث فهم الجبن « وفيكم » أى والحال أن فيكم « سماعون لهم » أى عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم العيون والأرصاد ، أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم ، وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم ، ويقولون قولا يؤثر فى قلوب ضعفة المؤمنين فى ضعف عزائمهم « والله عليم بالظالمين » وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين « لقد ابتغوا الفتنة » أى الفساد والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبى يوم أحد وحنين إذا انصرف بمن معه ، وعن ابن جريج : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنى عشر رجلا ليفتكوا به « من قبل » أى قبل غزوة تبوك « وقلبوا لك الأمور » أى ودبروا لك الحيل والمكائد وتداولوا الآراء بينهم فى إبطال أمرك « حتى جاء الحق » أى تأييدك ونصرك « وظهر أمر الله » أى غلب دينه « وهم كارهون » له وإنما دخلوا فيه ظاهرا . . ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك قال للحارث بن قيس وكان من المنافقين : يا أبا وهب هل لك فى جلاء بنى الأصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى

وخدما ؟ فقال الحارث بن قيس : يارسول الله لقد علم قومى أنى مغرم بالنساء وأنى أخشى إن رأيت بنات بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن ، ائذن لى بالقعود ولا تفتنى وأعنك بمالى ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اعتل الحارث ابن قيس ولم يكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فيه « ومنهم » أى من المنافقين « من يقول ائذن لى » أى فى القعود فى المدينة « ولا تفتنى » أى ببنات بنى الأصفر ، وقيل : لا توقعنى فى المدينة فى الإثم بأن لا تأذن لى ، فإنك إن منعتنى من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت فى الإثم ؛ وقيل : لا تلقنى فى الهلاك ، فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لى بها .. وقيل : لا تفتنى بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدى .. قال الله تعالى : « ألا فى الفتنة سقطوا » أى فى الفتنة التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف وظهور النفاق « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » أى جامعة لهم لامحيص لهم عنها يوم القيامة ، أو هى محيطة بهم فكأنهم فى وسطها « إن تصبك » يا محمد فى بعض الغزوات « حسنة » أى نصرة وغنيمة «تسؤهم» « أى تحزنهم لما فى قلوبهم من الضغن والمرض «وإن تصبك مصيبة» أى نكبة وإن صغرت فى بعض الغزوات كما وقع يوم واحد « يقولوا » أى سروراً ويحتجوا بحسن رأيهم « قد أخذنا أمرنا » أى بالجد والحزم فى القعود عن الغزو « من قبل » أى قبل هذه المصيبة « ويتولوا وهم فرحون » أى مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها . . قال الله تعالى : « قل » يا محمد لهؤلاء الذين فرحوا بما يصيبك من المصائب والمكروه « لن يصيبنا إلا ما كتب الله » أى قدره « لنا » فى اللوح المحفوظ ، فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا إن أراده مالم يقدر له الله « هو » أى الله «مولانا» أى ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فى جميع أمورهم لأن حقهم أن لا يتكلوا على غيره فليفعلوا ماهو حقهم « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « هل تربصون »

أى تنتظرون أن يقع « بنا » أى المنافقين « إلا إحدى الحسنيين » تثنية حسنى وتأنيث أحسن، إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهو النصر والشهادة، وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى إما أن يسلم ويغنم فيحصل له المال وإما أن يقتل فى سبيل الله تعالى فتحصل له الشهادة، وهى العاقبة القصوى، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيل الله لايخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه على ما نال من أجر أو غنيمة « ونحن نتربص بكم » أى إحدى السوأتين من العواقب إما « أن يصيبكم الله بعذاب من عنده » أى لاسبب لنا فيه كأن ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود « أو » « بعذاب « بأيدينا » أى بسببنا من قتل ونهب وأسر وغير ذلك « فتربصوا » بنا ماذكرنا من عواقبنا « إنا معكم متربصون » ماهو عاقبتكم، ولابد أن يلقى كلنا ما يتربصه لايتجاوزه « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « انفقوا طوعا أو كرها » أى من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، وسمى الإلزام إكراها لأنهم منافقون، فكان إلزامهم بالإنفاق شاقا عليهم كالإكراه، أوطائعين من غير إكراه من رؤسائهم، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم « لن يتقبل منكم » أى لم تقبل منكم نفقاتكم على أى حال كان.. وأمرهم بالإنفاق ثم قال: لن يتقبل منكم، لأن هذا الأمر فى معنى الخبر كقوله تعالى: « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً » .. وروى أنها نزلت فى الحارث بن قيس فى تخلفه عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مالى أعينك به فاتركنى، ثم علل تعالى سبب منع القبول بقوله تعالى: « إنكم » أى لأنكم « كنتم قوما فاسقين » والمراد بالفسق هنا الكفر، ويدل عليه قوله تعالى « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله » أى وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » أى متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط « ولا ينفقون » أى نفقة من

واجب أو غيره « إلا وهم كارهون » أى فى حال الكراهة وإن ظهر خلاف ذلك ، وذلك كله لعدم النية الصالحة . وهـذا لا ينافى طوعا ، لأن ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع « فلا تعجبك » يامحمد « أموالهم » أى وإن أنفقوها فى سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فإن ذلك من غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية « وأولادهم » الذين يتجملون بهم ، فإن ذلك استدراج ووبال، كما قال الله تعالى « إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » وإن كان يتراءى أنها لذيذة ، لأن ذلك من شأن الحياة ، وتعذيبهم بها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب .. وهذا لا يختص بالمنافق؛ ففائدة تخصيصه به أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا ، فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا ، والمنافق لا يعتقد ذلك، فبقى ما يحصل له فى الدنيا ، من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا « وتزهق » أى تخرج « أنفسهم » بسببها « وهم » أى والحال أنهم « كافرون » أى يموتون على الكفر ، فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة ، وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه فى الغالب كثر ماله وولده فكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ، والإعجاب السرور بالشىء مع الافتخار به مع اعتقاد أنه ليس لغيره مايساويه ، وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشىء وانقطاعه عن الله تعالى ، فإنه لا يبعد فى حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشىء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره ، والإنسان متى كان متذكرا لهذا المعنى زال إعجابه بذلك الشىء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : هلك المكثرون، وقال: ما لك من مالك إلا ما أكلت فشبعت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، وروى : من كثر ماله اشتد حسابه ومن ازداد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا . والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة ، والمقصود منها الزجر عن الإطناب إلى الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتخار بها ، فينبغى أن لا يشتد عجب الإنسان بالدنيا ، وأن لا يميل قلبه إليها بصورة

تخرجه عن حدود الله وتبعده عن الطاعة وتدنيه من العذاب المقيم فى الآخرة ...
ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خائبين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد إلى ذكر فضائحهم وقبائحهم : فمنها إقدامهم على الأيمان الكاذبة كما قال تعالى « ويحلفون » أى المنافقون « بالله » للمؤمنين إذا جاءوا معهم « إنهم لمنكم » أى على دينكم وملتكم « وما هم منكم » أى لكفر قلوبهم « ولكنهم قوم يفرقون » أى يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية « لو يجدون ملجأ » أى حصنا يلجأون إليه ، وقيل : لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم « أو مغارات » أى سراديب ، جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الإنسان أى يستتر « أو مدخلا » أى موضعا يدخلونه « لولوا إليه » والمعنى أنهم لو وجدوا مكانا على أحد هذه الوجوه الثلاثة ـ مع أنها شر الأمكنة ـ لدخلوا إليه وتحرزوا فيه « وهم يجمحون » أى يسرعون فى دخول ذلك المكان إسراعا لا يردهم شىء ، ومن هذا يقال : جمح الفرس وهو فرس جموح ـ وهو الذى إذا جمح لا يرده اللجام .

٥٨ — وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

٥٩ — وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما فى تصوير طعن الطاعنين من العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرد عليهم فى زعمهم الكاذب بأن الرسول الأعظم لم يعدل بين الناس فى قسمة الغنائم ، ففى هاتين الآيتين ذكر لطائفة من المنافقين ، عابوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمته للغنائم ، ورموه بالجور ، ونسبوه إلى الظلم ، فرد الله عليهم أبلغ رد ، وفند مزاعمهم أبلغ تفنيد ، وبين

الطريق السوى التى لو اتبعوها لكان خيرا لهم .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « ومنهم من يلمزك » أى يعيبك « فى الصدقات » قال أبو على الفارسى : ها هنا محذوف والتقدير : يعيبك فى تقسيم الصدقات ، واختلف فى سبب نزول هذه الآية ، فقال أبو سعيد الخدرى : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ أتاه ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بنى تميم رأس الخوارج، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم ، فقال يارسول الله : اعدل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟ وقال : خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ائذن لى أضرب عنقه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . وقال الكلبى : قال رجل من المنافقين يقال له الجواظ المنافق : ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أبا لك إنما كان موسى راعياً ، وإنما كان داود راعيا ، فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم : احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون ، وقال ابن زيد : قال المنافقون : والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا هواه فنزلت ، وروى أبو بكر الأصم فى تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه : ما علمك بفلان ؟ فقال : مالى به علم إلا أنك تدينه فى المجلس وتجزل له العطاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه منافق أخاف أن يفسد على غيره ، فقال : لو أعطيت فلانا بعض ما تعطيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه مؤمن أكمل إيمانه وأما هذا فنافق أداريه خوف فساده « فإن أعطوا منها » أى من الصدقات « رضوا » أى رضوا عنك فى قسمتها « وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » أى وإن لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا ، قال أهل المعانى : إن هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم ، وذلك لأنه لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات

عابوا الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الجور فى القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا ، وقال الضحاك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله من قليل فى المال وكثيره ، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله تعالى ، وأما المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلا سخطوا ، وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم من أجل المال وحده ، وكلمة إذا للمفاجأة أى وإن لم يعطوا منها فاجأوا بالسخط « ولو أنهم » أى المنافقين « رضوا ما آتاهم الله ورسوله » أى أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها ، وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره « وقالوا » أى مع الرضا « حسبنا الله » أى كافينا الله من فضله « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » أى من غنيمة أو صدقة أخرى ما يكفينا « إنا إلى الله » أى فى أن الله يغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس ويوسع علينا من فضله « راغبون » أى عريقون فى الرغبة ، ولذلك نكتفى بما يأتى من قبله كائنا ما كان ، والتقدير لكان خيرا لهم ، نقل عن عيسى عليه السلام أنه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال : ما الذى حملكم عليه ؟ فقالوا : الرغبة فى الثواب ، فقال : أصبتم . ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا : لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب بل لإظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية ، وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه ، فقال : أنتم المحقون .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة التوبة الذى اشتمل على ما اشتمل عليه من تصوير للجبناء الذين قعدوا عن المعارك وآثروا الدعة والأمن ، وأخذوا يعتذرون لرسول الله بالأعدار الكاذبة لئلا يخرجوا معه للحرب . والقرآن الكريم يصور فى بلاغة وإعجاز مداخل الشك فى قلوبهم ، ونفوسهم المريضة ، وعقولهم الواهنة ، وتفكيرهم الفاسد ، تصويرا بليغا رائعا . وما إن ينتهى القرآن الكريم

من شأن هؤلاء المعتذرين الذين يدعون الإيمان نفاقا ورياء ، وهم فى أعماق نفوسهم منطوون على الكفر ، حتى يذكر طبقة أخرى رمت الرسول الأكرم بالجور فى قسمة الغنائم وضلوا وأضلوا كثيرا عن سواء السبيل .

الربع الخامس من سورة التوبة

٦٠ — إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآية الكريمة بيان لمصارف الزكاة ومستحقيها .. يقول الله عز وجل يبين مصارف الصدقات تحقيقا لمافعله الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما الصدقات» أى الزكوات مصروفة «للفقراء» .. والفقير هو الذى لايجد مايقع موقعا من كفايته كأن يحتاج إلى عشرة دراهم ولا يجد إلا درهمين ، من الفقار كأنه أصيب فقاره «والمساكين» .. المسكين هو الذى لا يجد مايقع موقعا من كفايته ولا يكفيه ، كأن يحتاج إلى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية ، مأخوذ من السكون كأن العجز أسكنه ، والمسكين أعلى من الفقير ، ويدل عليه قوله تعالى : «أما السفينة فكانت لمساكين» ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر . وقيل : المسكين هو الفقير لقوله تعالى «أو مسكينا ذا متربة» .. «والعاملين عليها» أى الزكاة ، فيعطى العامل وإن كان غنيا ويدخل فى «العاملين» الساعى وهو الذى يبعثه الإمام لأخذ الزكاة ، والكاتب والحاسب والحافظ للأموال والكيال والوزان وكل من لهم عمل فيها «والمؤلفة قلوبهم» وهم إما ضعيف النية فى الإسلام فيعطى ليقوى إسلامه ، أو شريف فى قومه يتوقع بإعطائه إسلام غيره ، أو كاف لشر من يليه من الكفار . وأما المؤلفة فهم الكفار لترغيبهم فى الإسلام ، فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للإجماع ، ولأن الله تعالى أعز الإسلام وأهله وأغنى عن التأليف «وفى الرقاب» وهم المكاتبون الأرقاء الذين اشتروا رقابهم وحريتهم بمال معلوم يؤدونه لمالكى رقابهم «والغارمين» وهم من لزمتهم

الديون فى سبيل الله والحق والخير والإسلام والمعروف « وفى سبيل الله » وهم الغزاة المتطوعون « وابن السبيل » أى الطريق ، وهو المسافر الذى أبعده السفر عن ماله وأهله فاحتاج إلى المال بعينه على الوصول إلى غايته « فريضة من الله » منصوب بفعله المقدر، أى فرض لهم الصدقات فريضة « والله عليم » أى بالغ العلم بمـا يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين « حكيم » يضع الأشياء فى مواضعها ، وإنما أضيفت الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك ، وإلى الأربعة الأخيرة بفى الظرفية للإشعار بإطلاق الملك فى الأربعة وتقييده فى الأخيرة، حتى إذا لم يحصل الصرف فى مصارفها استرجع، بخلافه فى الأولى ، والظاهر أن الآية سواء فى زكاة الفطر وزكاة المال. وشرط أخذ الزكاة من هذه الثمانية : الحرية، والإسلام، وأن لا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا مولى لهما كما بينته السنة ، هذا مذهب الشافعى رضى الله عنه ، وقال الرازى وغيره : لا دلالة فى الآية على قول الشافعى فى أنه لا بد من صرفها إلى جميع الأصناف ، ولأنه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الأصناف ، وأما أن صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الأصناف كلها فلا ، كما أن قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه » الآية توجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق ، وماذهب إليه الشافعى رضى الله تعالى عنه هو قول عكرمة ، وماذهب إليه الأئمة الثلاثة من جواز صرفها إلى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وكل على هدى من ربه . وجاءت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين وكيدهم ، لأنه تعالى ذكر ذلك ليدل على أن هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم ، وعلى أن هؤلاء المنافقين ليسوا منهم حسما لأطماعهم وإشعارا باستحقاقهم الحرمان وأنهم بعدواعنها وعن مصارفها ، فمالهم ومالها ؟ وما سلطهم على التكلم فيها ؟ وعلى قاسمها ؟

فى هذه الآية الكريمة بين الله عز وجل مصارف الزكاة ، وجعلها للفقراء والمساكين والموظفين الذين يقومون على جمعها أو على صرفها لمستحقيها ، وللمؤلفة قلوبهم ، وفى فك رقاب العبيد ليصيروا أحرارا ، وفى معاونة أصحاب

الديون على سداد ديونهم ، وفى سبيل الله مما يتناول كل عمل يعود بالخير على الأفراد والجماعات الإسلامية ، وكل مشروع يقصد به خدمة الشعب ، وكل إصلاح يرجع على المسلمين بالرخاء والخير ، ولابن السبيل المنقطع عن ماله .

وقد أبانت الآية أن الزكاة فريضة فرضها الله عز وجل على كل مسلم ومسلمة ، والله عليم بما فيه مصلحة عباده ، حكيم فيما يضع لهم من تشريعات .. وإذا كان أحد مصارف الزكاة هو فك رقاب العبيد ، فإننى أقول : إن الإسلام قد حارب الرق ، وأعلن عليه الحرب الشديدة ، ووجه كثيرا من نظامه المالى لتحرير الأرقاء ، ومع ذلك لم يعلن إلغاء الرق إلغاء كاملا ، لأن سبيل الحروب ضد الإسلام كانت لا تزال موجودة .

٦١ — وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٦٢ — يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

٦٣ — أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ .

فى هذه الآيات الثلاث الكريمة بيان لشأن طائفة من المنافقين كانت تكره الإسلام وتحاربه ، وتتناول الرسول بالإيذاء والسب ثم تنتصل من كل ما قالت ، وقد فضح الله أمرهم ، وهددهم تهديدا شديدا ، وأنذرهم عذابا عظيما .. يقول الله عز وجل : « ومنهم » أى المنافقين « الذين يؤذون النبى » هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ويعيبونه

وينقلون حديثه «ويقولون» إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه « هو أذن » أى يسمع كل مايقال له ويصدقه ، سموه أذنا للمبالغة، كأنه من فرط أسماعه صارت جملته آلة السماع، كما يسمى الجاسوس عينا لذلك.. واختلف فى سبب نزول هذه الآية :

فقال ابن عباس نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض: لاتفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه مانقول فيوقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد ـ وهو من المنافقين: بل نقول ماشئنا ثم نأتيه فننكر ماقلنا ونحلف له فيصدقنا فيما نقول ، فإن محمدا أذن ، أى أذن سامعة كل مايقال له ، يصدقه ويقبله .

وقال محمد بن إسحق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبيل بن الحارث، وكان رجلا ثائر الشعر أحمر العينين مشوه الخلقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبيل بن الحارث ، وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين ، فقيل له : لاتفعل ذلك فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه، فنقول ماشئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فنزلت ، وقال الحسن : كان المنافقون يقولون: ماهذا الرجل إلا من شاء صرفه حيث شاء ، لاعزيمة له ، ومقصود المنافقين بقولهم هذا أذن ليس له ذكاء : بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما سمع ، فلهذا السبب سموه بأذن وقوله تعالى « قل » يامحمد لهؤلاء المنافقين « أذن خير لكم» تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذى ذموه به ، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله ، ثم فسر تعالى ذلك بقوله « يؤمن بالله » أى يصدق به لما قام عنده من الأدلة « ويؤمن للمؤمنين » أى ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين « ورحمة » أى وهو رحمة « للذين آمنوا منكم » لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولايكشف سره ، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم . ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخير بين أن كل من أذاه استوجب العذاب الأليم بقوله تعالى « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » أى مؤلم ، لأنه إذا كان يسعى فى إيصال الخير والرحمة إليهم مع كونهم فى غاية الخبث والخزى ،

ثم إنهم مع ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور ، فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ، ثم ذكر نوعا آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى «يحلفون بالله لكم ليرضوكم» أى لترضوا عنهم، واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبى : نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتو يعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ؛ وقال قتادة والسدى: اجتمع ناس من المنافقين فيهم ابن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن أشر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس ، فحرفوه وقالوا هذه المقالة ، فغضب الغلام وقال : والله ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامرا كذب، وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل عامر يدعو: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت «والله ورسوله أحق أن يرضوه» أى بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضاء الله ورضاء رسوله لتلازمهما ، أو أن العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى وإخلاص القلب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وبهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر ، ولأن الكلام فى إيذاء الرسول «إن كانوا» أى هؤلاء المنافقين «مؤمنين» أى مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة «ألم يعلموا» قال أهل المعانى: هذا خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه وتركه، فيقال له : ألم تعلم أنه كان كذا وكذا، ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله تعالى «ألم تعلموا» .. «أنه» أى الشأن «من يحادد الله» أى من يخالف الله، ورسوله» ، وأصل المحادة فى اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة ، واشتقاقه من الحد، يقال: حاد فلان فلانا أى صار فى حد غير حده كقولك : شاقه أى صار فى شق غير شقه ، ومعنى «يحادد الله» أى يصير فى حد غير حد أولياء الله تعالى بالمخالفة «فإن له نار جهنم» أى فحق أن له نار

جهنم. قال الرازى : أو أن معناه : فله نار جهنم وأن تكريره للتوكيد ، أو التقدير: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك، فإن له نار جهنم « خالدا فيها » أى دائما من غير انقضاء لما كانت نيته المحادة أبدا ، ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى « ذلك » أى الأمر البعيد الوصف العظيم الشأن « الخزى العظيم » أى الهلاك الدائم .

٦٤ — يَحْذَرُ الْمُنٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ .

٦٥ — وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ .

٦٦ — لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث تصوير للمنافقين ودخيلة نفوسهم المريضة ، وما كانوا يثرثرون به فى مجالسهم من كفر وبهتان ، ويهددهم الله عز وجل بأن لهم العذاب لأنهم كانوا مجرمين . . يقول الله عز وجل فى هـذه الآيات الثلاث الكريمة . . « يحذر » أى يخاف « المنافقون أن تنزل عليهم » أى المؤمنين « سورة تنبئهم » أى تخبرهم « بما فى قلوبهم » أى فى قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين ، كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزئون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن فى شأنهم ، قال قتادة : هـذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة ـ أثارت مخازيهم ، قال ابن عباس : أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين « قل » يا محمد لهؤلاء المنافقين « استهزئوا » أمر تهديد « إن الله مخرج » أى مظهر

« ما تحذرون » إخراجه من نفاقكم ، قال ابن كيسان : نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلا من المنافقين ، وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له فى ليلة مظلمة ، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما قدروا وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها ، فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق ، فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم ، فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم ، بل يكفيناهم الله « ولئن » اللام لام القسم « سألتهم » أى المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك «ليقولن» معتذرين « إنما كنا نخوض ونلعب » فى الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك ، قال ابن قتادة : كان النبى صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك ، قيل: كانوا يقولون : إن محمداً يريد أن يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك ، وقيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه نزل فى أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال : احبسوا الركب على ، فدعاهم وقال لهم : قلتم كذا وكذا فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب أى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعل الركب لنقطع الطريق بالحديث واللعب ، قال الله تعالى : « قل » يا محمد لهؤلاء المنافقين « أبالله » أى بفرائضه وحدوده وأحكامه « وآياته » أى القرآن وسائر ما يدل على الدين الذى لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير وبنصره « ورسوله » محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاءكم بالبينات ، وهو يجتهد فى إصلاحكم وتشريفكم وإعلامكم « كنتم تستهزئون » توبيخا وتقريعا

لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به ، وإلزاما للحجة عليهم باعتقادهم الكاذب . . ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال الله تعالى : « لا تعتذروا » أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة « قد كفرتم » أى أظهرتم الكفر بقولكم هذا « بعد إيمانكم » أى بعد إظهار الإيمان ؛ فإن قيل : المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى : قد كفرتم بعد إيمانكم ؟ فالجواب إنهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان ، فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر ، فقد أظهروا الكفر بعدما أظهروا الإيمان « إن يعف عن طائفة منكم » أى بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ، « تعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » أى مصرين على النفاق والاستهزاء ، قال محمد بن إسحاق الرضى : رجل واحد وهو ابن حمير الأشجعى يقال هو الذى كان يضحك ولا يخوض ، وكان يمشى مجانبا لهم ، وكان ينكر بعض ما يسمع ، والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول : خرج فلان إلى مكة على الخيل أو على الجياد ، والله تعالى يقول : « الذين قال لهم الناس » يعنى نعيم بن مسعود ، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه ، وقال : اللهم إنى لا أزال اسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب ، اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد : أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه .

٦٧ — ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

٦٨ — وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

٦٩ — كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا

وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

٧٠ — أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

٧١ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٧٢ — وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

٧٣ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

٧٤ — يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

فى هذه الآيات تصوير بعد تصوير بعد تصوير لنفاق المنافقين وشركهم، وللعذاب الشديد الذى كتبه الله لهم ولأمثالهم .. فقد بين الله تعالى نوعا آخر من أنواع نفاقهم وفضائحهم وقبائحهم، والمقصود منه بيان أن إناثهم كذكورهم فى تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة .. يقول الله تعالى: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان «يأمرون بالمنكر» أى يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم «وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» عن الإنفاق فى كل خير من زكاة وصدقة وإنفاق فى سبيل الله. والأصل فى هذا أن المعطى يمد يده ويبسطها بالعطاء، فقيل لمن منع وبخل: قد قبض يده؛ فقبض اليد كناية عن الشح، وقوله: «نسوا الله فنسيهم» لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما، لأن عدم النسيان ليس فى وسع البشر، والخبر «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان»، وأيضاً فوقوع النسيان فى حق الله تعالى محال فلابد من التأويل، وهو من وجهين: الأول: معناه أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته، وجاء هذا من مزاوجة الكلام كقوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» .. الثانى: النسيان ضد الذكر، أى فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء عليه تعالى ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والإحسان، وإنما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لأن من نسى شيئاً لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم .. «إن المنافقين هم الفاسقون» أى الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الإسم الفاحش الذى وصف الله تعالى به المنافقين حين بالغ فى ذمهم، وقد كره

رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول: كرهت، كسلت، لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله تعالى : « إلا وهم كسالى » فما ظنك بالفسق ؟ ولما بين سبحانه وتعالى كثيراً من أحوال المنافقين والمنافقات وأنه نسيهم أى جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى ، أكد هذا الوعيد وضم المنافقين إلى الكفار فيه بقوله تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار » أى المجاهدين فى عنادهم يقال : وعدهم بالخير وعداً وأوعده بالشر وعيداً « نار جهنم خالدين فيها » أى مقدرين الخلود ، ولا شك أن النار المخلدة من أعظم العقوبات « هى حسبهم » أى كافيتهم فى العذاب « ولعنهم الله » أى أبعدهم من رحمته ، ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج ، نفى ذلك بقوله تعالى : « ولهم عذاب مقيم » أى دائم لا ينقطع وقوله تعالى : « كالذين من قبلكم » رجوع من الغيبة إلى الخطاب والكاف فى (كالذين) للتشبيه ، والمعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم - شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الأيدى عن فعل الخير والطاعة ، ثم إنه تعالى وصف الكفار بأنهم كانوا أشد منهم أى من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولاداً بقوله تعالى « كانوا أشد منكم قوة » أى بطشا ومنعا « وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم » أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة ، والخلاق النصيب ، وهو ما خلق الإنسان وقدر له من خير وشر كما يقال : قسم له « فاستمتعتم بخلاقكم » أى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم ، فهو خطاب للحاضرين « كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » ذم الأولين باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ العاجلة ؛ تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم .

ولما بين سبحانه وتعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك المتقدمين فى طلب الدنيا وفى الإعراض عن طلب الآخرة - بين حصول المشابهة بين

الفريقين فى تكذيب الأنبياء وفى المكر والخديعة بقوله تعالى «وخضتم» أى ودخلتم فى الباطل والكذب على الله تعالى ، وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين «كالذى خاضوا» أى كالذين خاضوا وكالفوج الذى خاضوه ، هذا كله إذا جعلنا الذى موصولا اسميا ، ويصح أن يكون موصولا حرفيا فيؤول هو مع صلته بمصدر ، أى كخوضهم ، والفوج الجماعة ، وفائدة قوله تعالى «فاستمتعوا بخلاقهم» وقوله «كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم» مغن عنه كما أغنى قوله «كالذى خاضوا» ، هو أن فائدة ذلك أن يذم الأولين بما مر ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك غاية فى المبالغة كما تريد أن تنبه ظالما على قبح ظلمه بقولك: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب. وأما «وخضتم كالذى خاضوا» فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن بإسناده إليه عن تلك المقدمة «أولئك» أى هؤلاء الأشقياء حبطت أى بطلت «أعمالهم فى الدنيا» أى بزوالها عنهم ونسيان لذاتها «والآخرة» أى فى الدار الآخرة لأنهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم فى الدارين بل يعاقبون عليها ، وزاد فى التنبيه على بعدهم مما تمنوا لأنفسهم من النفع بقوله تعالى «وأولئك هم الخاسرون» أى الذين خسروا الدنيا والآخرة ، والمعنى : أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون ، وفى الالتفات إلى مقام الخطاب إشارة إلى تحذير كل سامع من مثل هذه المقالة ، قال بعض كبراء التابعين : أدركت سبعين ممن أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وذكر أن مالكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع ، فقال له صبى : ياشيخ قم فاركع ، فقام وركع ولم يحاججه بما يراه مذهبا ، فقيل له فى ذلك ، فقال: خشيت أن أكون من الذين قيل لهم : اركعوا لا يركعون ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما ، وقال تعالى : «لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى» ، ينظر المنافق إلى مايسقط فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم ، لما روى أن الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن

الآخذ لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوئ أهل المساوئ فكيف بمعايب أهل المحاسن ، والمنافق يأخذ من الدين ماينفع فى الدنيا ولا يأخذ ماينفع فى العقبى ، ويجتنب فى الدين مايضر فى الدنيا ، «ألم يأتهم» فيه رجوع من الخطاب إلى الغيبة أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم «نبأ» أى خبر «الذين من قبلهم» من الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ، ولما شبه الله تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين فى الرغبة فى الدنيا فى تكذيب الأنبياء والمبالغة فى إيذائهم لرسلهم، بين منهم ستة طوائف: الطائفة الأولى «قوم نوح» أهلكوا بالطوفان ، «و» الثانية «عاد» وهم قوم هود أهلكوا بالريح «و» الثالثة «ثمود» وهم قوم صالح أهلكوا بسلب النعمة «و» الخامسة «أصحاب مدين» وهم قوم شعيب ويقال: إنهم من ولد مدين بن إبراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة «و» السادسة «المؤتفكات» وهى قوم لوط أى أهلها ، أهلكوا بأن جعل الله تعالى أعالى أرضهم سافلها وأمطر عليهم الحجارة ، وإنما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن ، وكل ذلك قريب من بلاد العرب ، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ، وقوله تعالى «أتتهم رسلهم» راجع إلى كل هؤلاء الطوائف «بالبينات» أى المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم ، فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون ، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم «فما كان الله ليظلمهم» باستعجال العقوبة لهم «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب ، ولما ذكر سبحانه وتعالى وصف المنافقين بعضهم من بعض بالأعمال الفاسدة والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ؛ هذا فى مقابلة قوله تعالى «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» ، وقال فى وصف المؤمنين «بعضهم أولياء بعض» لأنه لما كان نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى

والطبيعة والعادة قال فيهم «بعضهم من بعض» ، ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهى النفس ، وصفهم بأنهم بعضهم أولياء بعض « يأمرون بالمعروف » أى بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره ، والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة « وينهون عن المنكر » أى الشرك والمعاصى ، والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع ، فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين « يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » « ويقيمون الصلاة » أى المفروضة ويتمون أركانها وشروطها « ويؤتون الزكاة » أى الواجبة عليهم، مقابلة قوله تعالى فى المنافقين « نسوا الله فنسيهم » ولما ذكر تعالى ما أوعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهى ثواب الآخرة بقوله تعالى « ويطيعون الله ورسوله أولئك » أى المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات «سيرحمهم الله» بوعد لا خلف فيه « إن الله عزيز » أى غالب على كل شىء لا يمتنع عليه ما يريده « حكيم » أى لا يقدر واحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه . . ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الإجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » فذكر فى هذه الآية أن الرحمة هى هذه الأنواع المذكورة فى هذه الآية : أولها قوله تعالى « جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى البساتين التى يحير فى حسنها الناظر ؛ لأنه تعالى قال « ومساكن طيبة فى جنات عدن » أى إقامة وخلود ، وهذا هو النوع الثانى ؛ فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنان الأخر هى البساتين التى يتنزهون فيها ، فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقد كثر كلام أصحاب الآثار فى صفة جنات عدن ، وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، أى دار الله التى أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من أوليائه وعباده ؛ وقال الرازى : حاصل الكلام أن فى جنات عدن قولين :

أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة ، وهذه الأخبار والآثار تقوى

هذا القول ، قال الكشاف « وعدن علم بدليل قوله تعالى «جنات عدن التى وعد الرحمن عباده » .

والقول الثانى أنه صفة الجنة ، قال الأزهرى : مأخوذ من قولك : عدن بالمكان ، إذا أقام به ـ يعدن عدونا ، فبهذا الاشتقاق قالوا : الجنان كلها جنات عدن.. « ورضوان من الله » روى عن أبى مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى ؟ وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا ، وهذا هو النوع الثالث ، « ذلك » أى الرضوان أو جميع ما تقدم « هو الفوز العظيم » الذى يستصغر دونه الدنيا وما فيها .

ولما وصف سبحانه وتعالى المنافقين بهذه الصفات الخبيثة وأوعدهم بأنواع العقاب ، وكانت عادة الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد ، لذلك عقبه بوصف المؤمنين بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ، ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجات العالية ... ثم عاد إلى شرح أحوال الكفار والمنافقين بقوله تعالى « يا أيها النبى جاهد الكفار » أى المجاهرين « والمنافقين » أى الساترين كفرهم بظهور الإسلام .. والآية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جائز ، فإن المنافق كما مر هو من يستر كفره ، ومن كان كذلك لم تجز محاربته ومجاهدته ، وجواب ذلك أنه ليس فى الآية ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر ، وإنما يدل على وجوب الجهاد مع الفريقين ، وكيفية تلك المجاهدة إنما تعرف بدليل آخر ، وقد دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ، ومع المنافقين بالحجة والبرهان .. وحمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود

عليهم إذا تعاطوا أسبابها ، قيل : هذا ليس بشيء لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق ، ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعاً على الرفق وحسن الخلق قال تعالى «وأغلظ عليهم» الغلظة الشدة ، والمراد بالشدة عليهم عدم التهاون معهم ، ومعاملتهم معاملة فيها إظهار للقوة والعنف ، حتى يتوبوا إلى الله ويتوبوا عن النفاق «ومأواهم» أى مسكنهم فى الآخرة «جهنم وبئس المصير» أى المرجع هى «يحلفون» أى المنافقون «بالله ما قالوا» أى ما بلغك عنهم من السب ، والمفسرون ذكروا فى أسباب نزول هذه الآية وجوها :

الأول : روى أنه عليه الصلاة والسلام أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : لئن كان ما يقول محمد فى إخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقا لنحن شر من الدواب ، فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : والله إن محمداً صادق وأنت شر من الدابة ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره ، فحلف بالله عز وجل ما قاله ، فرفع عامر يده ، وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب ، فنزلت ، فقال الجلاس : لقد ذكر الله تعالى التوبة فى هذه الآية ، ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ، ثم تاب وحسنت توبته .

الثانى : أنها نزلت فى عبد الله بن أبى لما قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ـ وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فهم عمر رضى الله عنه بقتل عبد الله بن أبى ؛ فحلف أنه لم يقل .

الثالث : روى قتادة أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الجهنى على الغفارى ، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسل

إليه فسأله . فحلف بالله ما قال فنزلت « ولقد قالوا كلمة الكفر » وهى سب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل: هى كلمة جلاس بن سويد ، وقيل: هى كلمة عبدالله ابن أبى « وكفروا بعد إسلامهم » أى وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام « وهموا بما لم ينالوا » أى من قتل النبى صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من تبوك ، حيث توافق خمس عشرة منهم إذا تسنم العقبة أى علاها بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة وقع أخفاف الإبل وصوت السلاح ، فالتفت فإذا قوم ملثمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، وقيل : هم المنافقون هموا بقتل عامر حين رد على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما نقموا » أى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » فإن أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالأموال وصاروا آمنين ، وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين فى بذل النفس والمال لأجله، وقتل للجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدية فاستغنى ، فالمنافقون عملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم أن نقموا منه ، وقال ابن قتيبة : معناه ليس هناك شىء ينقمون منه «فان يتوبوا» أى من كفرهم ونفاقهم «يك خيراً لهم» فى العاجل والآجل من إصرارهم على ذلك ، وهذا الذى حمل الجلاس على التوبة ، والضمير فى يك للتوبة «وإن يتولوا» أى يعرضوا عن الإيمان ويصروا على النفاق والكفر « يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا » بالقتل والأسر والإذلال « والآخرة » بالعذاب الأكبر الذى لاخلاص لهم منه وهو خلودهم فى النار « ومالهم فى الأرض » أى التى لا يعرفون غيرها « من ولى » يحفظهم منه « ولا نصير » يمنعهم ، وأما السماء فهم أقل أن يطمعوا منها فى شىء وأغلظ أكبادا من أن يرتقى فكرهم إلى ما بها من العجائب وما بها من الجنود ، واعلم أن هذه السورة أكثرها فى شرح

أحوال المنافقين ، ولا شك أنهم أقسام وأصناف ، فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى : «ومنهم الذين يؤذون النبي ، ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى » .

* * *

وبهذا ينتهى هذا الربع الخامس ، وخلاصة موضوعاته وأصوله ما يلى :

١ — بيان مصارف الزكاة ، ومن هذه المصارف تحرير رقاب العبيد ، وذلك يدل على أن الإسلام قد كفل الحرية للناس عامة ، واعتز بحرية الأفراد ، كما اعتز بحرية الجماعات والأمم والشعوب . . . وطبقة العبيد حصرهم الإسلام فى طبقة الأسرى الذين أسروا فى حرب منظمة ضد الإسلام والمسلمين والوطن الإسلامى ؛ ومن المعروف فى قوانين الحرب الحديثة أن الجيش المنظم يجوز له إعدام الأسرى ، وهذا الحق ثابت فى الإسلام أيضاً ، ولكن الله عز وجل أمر بالعطف على الأسرى ، وضمن لهم حق الحياة والاحترام والعمل ، وجعلهم جزءا من المجتمع الإسلامى ، وأوصى بمعاملتهم أحسن معاملة ، وحبب فى تحريرهم ، بل أوجبه وحث عليه ، كما جعل تحريرهم مصرفا من مصارف الزكاة .. ولو بحثنا عما تتبعه أمم الغرب فى العصر الحديث مع طبقات تعدها من المنبوذين اجتماعيا ، كما تصنع روسيا مع أعداء الشيوعية ، وكما تصنع أمريكا مع الزنوج ، وكما كانت تصنع ألمانيا فى معسكرات الاعتقال الذين ملأت بهم اليهود ، وكما تصنع كثير من دول الغرب مع الأسرى ؛ لهالنا الأمر ، ولرأينا سماحة الإسلام جلية ظاهرة للعيان .

ومع ذلك فإننى أؤكد هنا أن دعوة الإسلام إلى تحرير الرقاب وعمله فى هذا السبيل أكبر دليل على ما أذهب إليه من أن الإسلام حارب الرق وأعطى حق الحرية للناس جميعاً ، وأحاديث الرسول وأعماله ومبادىء القرآن وأصوله ،

فيها الدليل كل الدليل على أن الإسلام هو أول من ألغى الرق ، ودعا إلى تحرير الرقيق وحض عليه .

٢ — التنديد بمواقف المنافقين الذين وقفوا حياتهم ومالهم على محاربة الإسلام ورسوله الكريم، وبيان مصيرهم الأسود فى الدنيا والآخرة ، وتقرير أن عذاب الله قريب منهم ، وأنهم لا يعجزون الله ، وأن شأنهم فى ذلك شأن من قبلهم من الأمم التى أهلكها الله ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، ممن ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم الله ، واستحقوا العذاب بذنوبهم ، وبما كانوا يفسدون .

٣ — بيان فضل المؤمنين على المنافقين ، والتنويه بأخلاقهم الكريمة ، وذكر ما سوف يلقونه من رحمة الله ورضوانه ونعيمه وثوابه المقيم .

٤ — دعوة الرسول إلى جهاد الكافرين والمنافقين ، وإلى الشدة فى معاملتهم ، وإلى الاحتراس من مكائدهم ، وتحبيب التوبة إليهم ، فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ، ومالهم فى الأرض من دون الله من ولى ولا نصير .

الربع السادس من سورة التوبة

٧٥ — وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

٧٦ — فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

٧٧ — فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

٧٨ — أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

هذه الآيات الأربع فى تصوير نفسية طبقة من البخلاء الذين يعطيهم الله من فضله الكثير ، ثم يبخلون بما لهم على الفقراء واليتامى والمساكين ، ويظنون أن المال هو مالهم ، قد جاء من كدهم وتعبهم ، وأنهم لا يمكن أن ينفقوا منه قليلا أو كثيراً ، ولو فى الأبواب التى يدعو الإسلام إلى الإنفاق فيها ، ويضنون بمالهم ، فلا يخرجون زكاته ، ولا يتصدقون بشىء منه على فقير أو مسكين ... يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن» أى لنتصدقن « ولنكونن من الصالحين » قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام فلحقته شدة، فحلف بالله وهو واقف فى بعض مجالس الأنصار : لئن أتانى الله من فضله لأصدقن ولأؤدين منه حق الله ، والمشهور فى سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، فراجعه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما لك فى رسول الله أسوة حسنة، فوالذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ، ثم أتاه بعد ذلك ، وقال: يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر، ويصلى فى غنمه باقى الصلوات، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد جمعة ولا جماعة ، فكان إذا حان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فقال : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنما ما يسعها واد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة ثلاثا ، فنزلت آية الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لأخذ الصدقة ، وكتب

لهما أصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما، مرا بثعلبة وخذا صدقاته: فأتياه وسألاه الصدقة وقرآ عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذه إلا جزية أو أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إلى ، فانطلقا ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال كمقالته الأولى ولم يدفع إليهما شيئا ، فرجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله تعالى فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته ، فقال : إن الله تعالى منعنى أن أقبل صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد قلت لك فما أطعتنى فرجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبى بكر فلم يقبلها ، ثم جاء بها إلى عمر أيام خلافته فلم يقبلها ، فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها ، وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه . . وقد يقال : إن العبد إذا تاب تاب الله عليه فلماذا منع الله تعالى من قبول صدقته ؟ والجواب أن الله تعالى لما قال : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه ، امتنع لهذا السبب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة .

وقوله تعالى «فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون» أى منعوا حق الله تعالى « فأعقبهم » أى صير عاقبتهم « نفاقا » متمكنا « فى قلوبهم إلى يوم يلقونه » أى الله يوم القيامة « بما أخلفوا الله ما وعدوه » أى بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ، لأن الجزاء من جنس العمل « وبما كانوا يكذبون» أى يجددون الكذب دائما مع الوعد أو منفكا عنه، فقد استكملوا النفاق فغدروا وأخلفوا وحدثوا فكذبوا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان « ألم يعلموا » أى المنافقون « أن الله يعلم سرهم ونجواهم » أى ما أسروا

فى أنفسهم من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه ، ونجواهم ، أى ما تناجوا بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها ، فكيف يتجرأون على النفاق الذى الأصل فيه الاستمرار والتناجى فيما بينهم ، مع علمهم بأن الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر ، وأنه تعالى يعاقب عليه ، وأن الله علام الغيوب ، والعلام مبالغة فى العلم والغيب ما كان غائبا عن الخلق .

٧٩ — ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٨٠ — ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

فى هاتين الآيتين رد على المنافقين الذين يسخرن من المؤمنين المتصدقين ، وبيان لعذابهم الشديد عند الله، وفيهما تذكير للرسول الأكرم بأن مثل هؤلاء لا يخفف من مسئوليتهم استغفار أحد لهم ، ولو كان الذى يستغفر لهم هو الرسول نفسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وذلك كله بسبب كفرهم ، وما دل عليه ناموس السماء من أن الفاسقين لا يهديهم الله طريقا إلى الخير والعزة ، ولا ينير لهم سبيلا إلى المجد والكرامة ، لأنهم مشغولون بفسقهم ولذاتهم عن عظائم الأمور . قال الله تعالى : « الذين يلمزون » أى يعيبون « المطوعين » أى المتصدقين « من المؤمنين » أى الراسخين فى الإيمان « فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم » أى طاقتهم فيأتون به « فيسخرون منهم » أى يستهزئون بهم « سخر الله منهم » أى جازاهم على سخريتهم « ولهم عذاب أليم » على كفرهم، وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو لمزهم

لمن يأتى بالصدقات . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف درهم فأجعلها فى سبيل الله ، وأمسكت أربعة آلاف لعيالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت، فبارك الله تعالى فى مال عبد الرحمن ابن عوف حتى إنه خلف امرأتين يوم مات ، فبلغ ثمن ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم ، وجاء عاصم بن عدى الأنصارى بمال كثير ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة ، وكذلك فعل أبو عقل الأنصارى ، فلمزهم المنافقون ، وقالوا : ما تصدق عبد الرحمن وعثمان إلا رياء ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صالح بن عقيل ، ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت « استغفر لهم » أى يا محمد « أولا تستغفر لهم » تخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار وتركه ، قال صلى الله عليه وسلم : إنى خيرت فاخترته ـ يعنى الاستغفار ـ رواه البخارى « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى ـ وكان من المخلصين ـ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: سأزيد على السبعين ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص ، لأنه الأصل لجواز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ماوراه، فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد ، وإنما خص السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ، ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ، ولأن آحاد السبعين سبع وهو عدد شريف ، فإن السموات سبع والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع ، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفار الرسول فى شأنهم ليس لبخل من الله ولا قصور فى الرسول ، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها « والله

لا يهدى القوم الفاسقين » أى المتمردين فى كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره ، وهو عدم يأسه عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلال ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

٨١ — فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ .

٨٢ — فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

٨٣ — فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ .

٨٤ — وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ .

٨٥ — وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ .

٨٦ — وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ

ٱلْقَاعِدِينَ .

٨٧ — رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

٨٨ — لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

٨٩ — أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

فى هذه الآيات التسع الكريمة ذكر لصنيع هؤلاء الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتحلوا شتى المعاذير ليجلسوا فى بيوتهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه يجابهون نار المعركة وشدتها وحدهم ، وقد عظم الله من جريمة التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وندد بصنيع هؤلاء المتخلفين ، واستحقاقهم لغضب الله ولعذابه الشديد . . ثم وازن بينهم وبين المؤمنين الصادقين المخلصين فى إيمانهم ، وأشار إلى عظم شأن المؤمنين وإلى جزائهم الكريم وثوابهم العظيم فى الآخرة عند الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « فرح المخلفون » عن غزوة تبوك « بمقعدهم » أى بعقودهم فهو اسم للمصدر « خلاف رسول الله » هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد ، والمخلف : المتروك ممن مضى وهم قد احتالوا حتى تخلفوا ، فكانوا متخلفين لا مخلفين ؛ ولكنهم لما تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه إلى الجهاد مع المؤمنين يوصفون بأنهم تخلفوا حيث لم ينهضوا وأقاموا . . وفى قوله تعالى : « خلاف » قولان : الأول وهو قول الزجاج ، بمعنى مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ساروا وأقاموا ، قال : وهو منصوب لأنه مفعول له والمعنى : بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانى قال الأخفش : إن خلاف

بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم، وإيثارهم ذلك على السكون والراحة، وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهون وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان وداعى الإيقان ؟ « وقالوا » أى قال بعض المنافقين لبعض ، أو قالوا : للمؤمنين تثبيطا « لا تنفروا » أى لا تخرجوا إلى الجهاد « فى الحر » وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر ، فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون» أى يعلمون أن بعد هذه الدار دار أخرى، وأن بعد هذه الحياة حياة أخرى وأن هذه المشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما تخلفوا «فليضحكوا قليلا» أى فى الدنيا « وليبكوا كثيراً » أى فى الآخرة ، ورد بصيغة الأمر ومعناه الإخبار بأن ستحصل لهم هذه الحالة ، وقليل ذلك «جزاء بما كانوا يكسبون» أى أن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة فى الدنيا . روى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول أعمارهم فى الدنيا قليل بالنسبة إلى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، روى عن أنس أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء . قال البيضاوى : ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم، والمراد من القلة العدم « فإن رجعك » أى ردك « الله » من غزوه تبوك « إلى طائفة منهم » أى ممن تخلف بالمدينة من المنافقين، وإنما قال : إلى طائفة منهم ، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف واعتذر بعذر صحيح ، وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين، وأراد بالطائفة المنافقين منهم « فاستأذنوك للخروج » معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك « فقل » يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم « لن تخرجوا معى أبداً » أى فى سفر من الأسفار ، إن الله تعالى قد

أغنانى عنكم وأحوجكم إلى « ولن تقاتلوا معى عدوا» إخبار بمعنى النهى للمبالغة وقوله تعالى : « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة » تعليل لهم ، وأول مرة هى الخرجة إلى غزوة تبوك « فاقعدوا مع الخالفين » أى المتخلفين من الغزو من النساء والصبيان وغيرهم ، قال الرازى : واعلم أن هذه الآية تدل على أن الرجل إذا ظهر له من بعض إخوانه مكر وخداع ورآه متشدداً فيه مبالغا فى تقرير موجباته فإنه يجب عليه أن يقطع علاقته به وأن يحترز عن مصاحبته .. ولما أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه إلى الغزوات إذلالا لهم، أمره بمنع الصلاة على من مات منهم إذلالا لهم أيضاً لقوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » روى أن ابن أبى رأس المنافقين دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه، فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلى عليه ، وإذا مات أن يقوم على قبره، ثم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه ، فقال عمر رضى الله عنه : لم تعط القميص للرجس النجس؛ فقال صلى الله عليه وسلم : إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى أؤمل من الله أن يدخل فى الإسلام ، وأسلم كثير بهذا السبب ، فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مات جاء ابنه يعرفه ،وكان ابنه صحابيا مسلما خالصا صالحا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: صل عليه وادفنه فقال: إن لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم ، فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه ، فقام عمر رضى الله عنه بينه وبين القبلة . فنزلت هذه الآية..وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ ، وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضى الله عنه ، وذلك أن الوحى ينزل وفق قوله فى آيات كثيرة : منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر ، ومنها آية تحريم الخمر ، ومنها آية تحويل القبلة ، ومنها آية الحجاب،ومنها هذه الآية؛ فصار نزول الوحى على مطابقة قول عمر منصبا عالياً ودرجة رفيعة له فى الدارين ، ولهذ قال فى حقه عليه الصلاة والسلام : لو لم أبعث لبعثت ياعمر نبيا ، وإنما لم ينه رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن التكفين فى القميص ونهى عن الصلاة عليه ؛ لأن الضن بالقميص كانت تخل بالكرم. وكان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » ؛ ولأن ابنه كان بالوصف المتقدم، فأكرمه النبى صلى الله عليه وسلم لأجل ابنه ، ولأن الرأفة والرحمة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم، ولأنها كانت مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين كان أسر ببدر ، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له ، وهو ممنوع فى حق الكافر ، قال البيضاوى : مات أبدا يعنى الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب لا للتمتع « ولا تقم على قبره » قال الزجاج : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى فى جنازة ودفن الميت وقف على قبره ودعا له ، فمنع ههنا منه ، قال الكلبى: لا تقم لإصلاح مهمات قبره ، وهو من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وتولاه ، وقيل : لا تقم عند قبره أو زيارة قبره والأول أولى ، لأن النهى للتحريم ؛ ثم أنه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » أى كافرون، يعنى لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم ، والكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا ؛ فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد أن وصفه بالكفر تنبيها على أن طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العلم، فإن قيل : كيف وقد هم صلى الله عليه وسلم أن يصلى على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه ؟ أجيب بأن التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم : نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » سبق ذكر هذه الآية فى هذه السورة بعينها ، ولكن حصل بينهما تفاوت فى ألفاظ أربعة :

أولها أن فى الآية المتقدمة « فلا تعجبك أموالهم » بالفاء وههنا بالواو، لأن الآية الأولى ذكرت بعد قوله تعالى « ولا ينفقون إلا وهم كارهون » وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة

تلك الأموال والأولاد ، فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو .

ثانيها : أنه قال تعالى فى الآية الأولى «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم» وههنا كلمة (لا) محذوفة لأن مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالأقل ثم يترقى إلى الأشرف فيقال : لا يعجبنى أمر الأمير ولا أمر الوزير ، وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم ، وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم .

ثالثها : أنه تعالى قال هناك : إنما يريد الله ليعذبهم وههنا قال: إنما يريد الله أن يعذبهم ؛ فالفائدة فيه التنبيه على أن التعليل فى أحكام الله تعالى محال وأنه إنما ورد حرف التعليل ، ومعناه أنه كقوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله» أى وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله .

رابعها : أنه ذكر فى الآية الأولى «فى الحياة الدنيا» ، وههنا سقط لفظ «الحياة» تنبيها على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة إلى أنها لا تستحق أن تسمى حياة ، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ (الدنيا) تنبيها على كمال دناءتها .

قال الرازى : فهذه وجوه فى الفرق بين هذه الألفاظ ، والعالم بتحقيق القرآن هو الله تعالى ، والحكمة فى التكرير أنه أشد الأشياء جذبا وطلبا للخواطر ، إلا أن الاشتغال بالدنيا هو الأموال والأولاد ، وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى ، كما أعاد تعالى قوله فى سورة النساء «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» مرتين ، وقيل: إنما كرر هذا المعنى لأن الآية الأولى فى قوم منافقين لهم أموال وأولاد فى وقت نزولها ، وهذه الآية فى قوم آخرين ، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين فى أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع آخرين «وإذا أنزلت سورة» يحتمل أن يراد بالسورة سورة براءة لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد «أن آمنوا بالله» أى بأن آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة «وجاهدوا مع رسوله» أمر المؤمنين بالإيمان يقتضى الأمر بتحصيل الحاصل وهو محال،

وأجيب بأن معناه الدوام على الإيمان والجهاد فى المستقبل ، وقيل : هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهو المنافقون، أى أخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد. لأن الجهاد بغير إيمان لايفيد شيئا، ثم حكى الله تعالى أن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى « استأذنك أولو الطول منهم » وقال ابن عباس : يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال ورؤساء المنافقين وكبرائهم « وقالوا » أى أولو الطـــول « ذرنا نكن مع القاعدين » أى الذين قعدوا لعذر كالمرضى والزمنا ، وقيل : مع الصبيان والنساء .. ثم ذمهم الله تعالى بقوله « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » جمع خالفة أى النساء اللاتى تخلفن فى البيوت ، وقيل: الخوالف صغار الناس وسفلتهم يقال : فلان خالفه قومه إذا كان دونهم ، وإنما خص أولو الطول بالذكر لأن الذم لهم لازم لأجل كونهم قادرين على السفر والجهاد ، وأما من لامال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج إلى الاستئذان قال المفسرون : كان يصعب على المنافقين تشبيهم بالخوالف « وطبع » أى وختم « على قلوبهم » أى هؤلاء المنافقين « فهم لا يفقهون » أى لا يعلمون مافى الجهاد من الفوز والسعادة ومافى التخلف من الشقاوة والهلاك ، ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه بقوله تعالى « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » أى بذلوا المال والنفس فى طلب رضوان الله تعالى والتقريب إليه ، وفى قوله تعالى « لكن » فائدة وهو التقدير أن يخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو ، فقد توجه إليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا ، كقوله تعالى « إن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما » ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة إلى الجهاد وصف ماله من الفوائد والمنافع وهو أنواع : أولها ماذكره الله تعالى بقوله « وأولئك لهم الخيرات » أى منافع الدارين : النصرة والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل: الخيرات الحور العين . لقوله تعالى فيهن «خيرات حسان» ثانيها ماذكره

الله تعالى بقوله « وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالمطالب المتخلفون من العقاب والعتاب ، وثالثها ماذكره تعالى بقوله « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » هذا بيان مالهم من الخيرات الأخروية .

٩٠ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٩١ — لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٩٢ — وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث الكريمة موازنة بين المنافقين المتخلفين عن المعارك وبين المؤمنين الصادقين ، والمعتذرين من المرضى ، وهنا يؤكد الله عز وجل أن الضعفاء والمرضى وغير القادرين على دفع ثمن السلاح والعتاد الذى يذهبون به إلى المعركة لا حرج عليهم فى تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« وجاء المعذرون » أى المعتذرون بمعنى المعذورين من الأعراب إلى النبى صلى الله عليه وسلم « ليؤذن لهم فى القعود لعذرهم فأذن لهم ، واختلف فى هؤلاء المعذرون فقيل : هم أسد وغطفان قالوا : إن لنا عيالا وإن بنا جهداً فأذن لهم فى التخلف ، وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك غارت

أعراب طيء على أهالينا ومواشينا ، فقال صلى الله عليه وسلم : سيغنيني الله عنكم ، وقيل : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله . . وعن قتادة . . اعتذروا بالكذب . والاعتذار في كلام العرب على قسمين : يقال اعتذر : إذا كذب في عذره ، ومنه قوله تعالى « يعتذرون اليكم إذا رجعتم إليهم » فرد الله تعالى عليهم بقوله « قل لا تعتذروا » فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ، ويقال : اعتذر إذا أتى بعذر صحيح كما في قول لبيد : ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر ، يريد فقد جاء بعذر صحيح .. وقيل : هو التعذير الذي هو التقصير يقال عذر يعذر إذا حضر ولم يبالغ ، فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ، ومن المفسرين من قال : إنهم كانوا صادقين بدليل ما يلي : « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » من منافقي الأعراب ، قعدوا عن المجيء للاعتذار ، فلما فصل بينهم وبينهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام قال : إن أقواما تكلفوا عذرا بباطل ، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله « وجاء المعذرون » وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبه عذر ، جرأة على الله ، وهم المرادون بقوله تعالى : « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » .. « سيصيب الذين كفروا منهم » أى من الأعراب أو من المعذرين ، فان منهم من اعتذر بكسله لا لكفره « عذاب أليم » في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار ، ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد في حق من توهم العذر مع أنه لا عذر له ذكر أصحاب الأعذار الحقيقية ، وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى « ليس على الضعفاء » كالشيوخ ومن خلق في أصل الفطرة ضعيفا نحيفا « ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » في الجهاد حرج أى إثم في التخلف عنه ، فنفى سبحانه وتعالى عن أصحاب هذه الأقسام الثلاثة الحرج ؛ فيجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو ، وليس في الآية بيان أنه يحرم عليهم الخروج ، لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته إما لحفظ متاعهم أو لتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا

عليهم ،كأن ذلك طاعة مقبولة ثم إنه سبحانه وتعالى شرط فى جواز هذا التأخر عن الغزو شروطا بقوله ، « إذا نصحوا لله ورسوله » فى حال قعودهم بالإيمان والطاعة فى السر والعلانية ، وأن يحترزوا عن إلقاء الإرجافات وعن إثارة الفتن ويسعوا فى إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا ، إما أن يقوموا بإصلاح المهمات ، وإما أن يسعوا إلى إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم ، فان جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد ، وقوله تعالى : « ما على المحسنين » هو لبيان إحسانهم وأنه ليس عليهم مسئولية مع إحسانهم « من سبيل » أى طريق إلى ذمهم أو لومهم ، والمعنى أنه سد باحسانه طريق العتاب ، ومن أعظم الإحسان من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصا من قلبه ، فان ما عليه من سبيل فى نفسه وماله لإباحة الشرع بدليل منفصل ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمحسن هو الآتى بالإحسان، ورأس أبواب الإحسان ورئيسها هو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله « والله غفور » أى للذنوب « رحيم » أى بجميع عباده ، وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير وإن اجتهد فلا يسعه إلا العفو . ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء، وبين أنه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط أن يكونوا ناصحين لله ورسوله ، وهو كونهم محسنين ، وإنه ليس لأحد عليهم سبيل، ذكر قسما رابعاً من المعذورين بقوله تعالى « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم» إلى الغزو وهم البكاءون سبعة من الأنصار : معقل بن يسار وصخر ابن خنساء ، وعبد الله بن كعب ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن مغفل ، وعلية بن زيد ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نريد الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة لنغزو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ـ تولوا وهم يبكون ، ولذلك سموا بالبكاءين . وقيل : هم بنو مقرن بن مزينة وكانوا ثلاثة إخوة : معقل وسويد والنعمان ، وقيل : أبو موسى وأصحابه ، وقيل : نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل ما ذكر « قلت لا أجد ما أحملكم عليه » حال من

الكاف فى أنوك بإضمار قد ، وقولة تعالى «تولوا» جواب إذا «وأعينهم تفيض» أى تسيل «من الدمع » أى دمعها فاض. ومن للبيان كقولك : أفداك من رجل وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعا فياضا ، وقوله تعالى « حزنا » منصوب على العلة « أن لا يجدوا » أى لئلا يجدوا « ماينفقون » فى الجهاد .

* * *

وبهذا ينتهى الربع السادس من سورة التوبة ، وقد تضمن هذا الربع من الأصول العالية فى الإسلام مايلى :

١ — النعى على طبقات كثيرة من المنافقين وضعاف الإيمان ، ممن يؤمنون بأفواههم ، ولا يتجاوز إيمانهم هذه المنزلة إلى القلب وموطن العقيدة فى نفس الإنسان .

٢ — التنديد بشأن البخلاء الذين يأبون إعطاء الفقراء مالهم من حقوق فيما أعطاهم الله عز وجل من ثراء وغنى : وقد وصف الله عز وجل هؤلاء الأشحاء بأسوأ الأوصاف ، بيانا لنفسيتهم المريضة ، ولشحهم العجيب ، ولحبهم للمال وعبادتهم له من دون الله ، ولانصرافهم المطلق عن الله عز وجل وعن تقواه حق تقاته ، ولجهلهم بأن الله يعلم السر والنجوى ، ويعلم ما تنطوى عليه جوانحهم من كفر وعصيان ، وشح وبخل وتقتير .

٣ — التنديد كذلك بطبقة من المسلمين تعيب على المنفقين فى سبيل الله إنفاقهم وتهون من شأن صنيعهم ، وتدعى تارة أنهم إنما يفعلون ذلك حمقا ، وتارة أنهم إنما يفعلون هذا سفها ، وتارة أخرى أنهم إنما يصنعون ذلك لعدم تقديرهم للمسئولية التى عليهم نحو أبنائهم ، إلى غير ذلك من وجوه العيب التى يلصقونها بهؤلاء المنفقين المتصدقين من الأغنياء والفقراء على حد سواء .

٤ — التنديد أيضا بطبقة من الناس تفر من الجهاد فى سبيل الله ، وتقعد فى بيوتها والناس يتوافدون على ميدان المعركة من كل حدب وصوب ، وتكره

الجهاد بالنفس أو بالمال فى سبيل عزة الإسلام ومجده . وتنتحل شتى الأعذار لعدم الخروج مع قائدهم صلى الله عليه وسلم إلى الميدان ، وإلى ملاقاة أعداء الإسلام وخصومه ، فتارة كانوا يعتذرون بالحر ، وتارة كانوا يدعون المرض وأخرى كانوا ينتحلون شتى الأعذار ليبتعدوا عن مكاره الحرب وشدتها . . صور القرآن الكريم سوء صنيع هؤلاء ، وندد بهم ، وبين سوء مصيرهم فى الآخرة ، وطلب من الرسول عدم قبولهم فى جيش المسلمين المناضل فى سبيل الله والإسلام ، لأنهم دعاة هزيمة ، ومصدر شر وبلاء على الإسلام والمسلمين.. وهنا يصفهم القرآن الكريم بالكفر والفسق والجبن ، والفرار من الحرب ، وليت ذلك كان عن ضعف أو مرض أو عذر صحيح من الأعذار ؛ بل إنهم كانوا يعتذرون عن طول وقوة وغنى ومال ، راضين بأن يجلسوا فى بيوتهم مع النساء ، فى الوقت الذى كان مصير الإسلام ودعوته يقرر فى ميدان المعركة بين الرسول والمشركين .. شتان بينهم وبين المؤمنين المجاهدين الباذلين أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وممن كتب الله لهم الفوز والخير والنعمة فى الدنيا والآخرة ؛ وممن كانت الجنة مصيرهم يوم القيامة . . وشتان بين هاتين الطبقتين : طبقـــة المؤمنين بقلوبهم ، وطبقة المؤمنين بألسنتهم ، وانظروا إلى الفرق واضحا جليا ، يجىء أصحاب الأعذار الصحيحة إلى رسول الله ليأذن لهم فى الاشتراك فى المعركة ، ويقعد عن الحرب أمثال هؤلاء المنافقين الكاذبين الذين يكذبون فى ادعائهم الإسلام والإسلام براء منهم .. إن الإسلام يبيح لكل صاحب عذر مقبول من الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون الأداة اللازمة للاشتراك فى المعركة ، أو لا تجد الدولة لهم مكانا فى الجيش المحارب .. مع بقائهم فى الصفوف الخلفية للمعركة داعين إلى الخير ناصحين لأولى الأمر ، متعاونين مع الدولة فى تقوية الروح المعنوية فى الأمة .

الربع السابع من سورة التوبة

٩٣ — إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٩٤ — يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٩٥ — سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

٩٦ — يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

فى هذه الآيات الأربع الكريمة التى يبتدىء بها الربع السابع من سورة التوبة - يبين الله عز وجل مسئولية الذين يفرون من الجهاد فى سبيل الله ، ويرضون لأنفسهم القعود مع النساء والأطفال والعجزة والمرضى فى البيوت ونار الحرب مشتعلة من حولهم ، ويحاولون الاعتذار بشتى الأعذار لعدم الاشتراك فى الحرب . . ومثل هؤلاء جدير بالقائد الأكبر أن لا يسمع لهم كلمة ولا يقبل منهم عذرا ، ولا يرضى عن إثم اقترفوه ، وجريمة اكتسبوها ، وشر أقدموا عليه ؛ إن هؤلاء رجس من عمل الشيطان ، ومصيرهم إلى النار ، جزاء لهم على ما اقترفوه من سيئات ، وهم موضع غضب الله ، لأنهم عاصون له

فاسقون خارجون عن رضائه ، والله عز وجل لا يرضى عن القوم الفاسقين . .
يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الأربع ..

«إنما السبيل» أى إنما يتوجه الطريق بالعقوبة ، والمراد بالسبيل المسئولية « على الذين يستأذنونك » يا محمد فى التخلف عنك والجهاد « وهم أغنياء » أى قادرون على أهبة الخروج معك « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » استئناف كأنه قيل مالهم: استأذنوا وهم أغنياء ، فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان « وطبع الله على قلوبهم » فلأجل ذلك الطبع وصفهم الله تعالى بقوله « فهم لا يعلمون » أى ما فى الجهاد من منافع الدارين : أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو ، وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع « يعتذرون » أى هؤلاء المنافقون « إليكم » أى فى التخلف « إذا رجعتم » من الغزو « اليهم » بالأعذار الباطلة ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له ، ويحتمل أن يكون له وللمؤمنين ، يروى أن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلا ، فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل « قل » لهم يا محمد « لا تعتذروا » بالمعاذير الباطلة « لن نؤمن لكم » أى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به « قد نبأنا » أى أعلمنا « الله من أخباركم » أى بعض أحوالكم التى أنتم عليها من الشر والفساد ، لأن الله تعالى إذا أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يعلمه بأحوالهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم « وسيرى الله عملكم ورسوله » أى أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه « ثم تردون » أى بالبعث « إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » أى الله المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد ، وغير ذلك من الخبائث التى أنتم عليها « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم » أى رجعتم « إليهم » من تبوك أنهم معذورون فى التخلف «لتعرضوا عنهم» أى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم « فأعرضوا عنهم » أى فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من

النفاق ، قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام ، قال مقاتل : قال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ؛ ثم ذكر الله تعالى علة الإعراض عنهم بقوله تعالى «إنهم رجس» أى قذر لخبث باطنهم يجب الاحتراز عنهم وعن رجسهم المعنوى خوفا من سريانه إلى الإنسان ، وحذرا من أن يميل طبعه إلى تلك الأعمال «ومأواهم جهنم» من تمام العلة «جزاء بما كانوا يكسبون» من الأعمال الخبيثة فى الدنيا . . واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت فى الجرب بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، كانوا ثمانين رجلا من المنافقين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ؛ وقال مقاتل: نزلت فى عبدالله بن أبي، حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل «يحلفون لكم لترضوا عنهم» أى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم «فإن ترضوا عنهم» أى فإن رضيتم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم «فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» لأنه تعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم ، والمقصود من الآية عدم الرضاء عنهم ، والاغترار بمعاذيرهم ، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم .

٩٧ — ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

٩٨ — وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٩٩ — وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ

أَنَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٠٠ — وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

١٠١ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

فى هذه الآيات الخمس بيان لشأن جماعات من الأعراب ، آمنت بالإسلام نفاقا ، ودخلت فى عقيدته رياء ، وهم أشد الناس جهلا بالإسلام وشرائعه وعقيدته ، بل هم أضن الناس بمالهم عن أن ينفقوه فى سبيل الله والفقراء ، حتى ليعدون أداء الزكاة مغرما ، والصدقة خسارة لا ربحا ، وحتى إنهم ليتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين ، يتمنون من قرارة نفوسهم لله ولدينه ولرسوله وللمسلمين الخذلان والفشل، وبئسما يتمنون من شر ووبال . وشتان بين هؤلاء وبين أقوام من المسلمين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا من أموالهم فى سبيل الله تقربا إلى الله وإلى رسوله الكريم ، وبين أقوام آخرين آمنوا بالله حق الإيمان ، وأخلصوا له حق الإخلاص ، فكانوا السابقين الأولين إلى الإسلام ، وتبعهم آخرون ورثوا عنهم الإخلاص والإيمان والتقوى والطاعة وورثوا عنهم علمهم وأخلاقهم .. فهؤلاء السابقون من مهاجرين وأنصار ، ومن تبعهم بإحسان ، لهم عند الله الرحمة والرضوان وجنة النعيم ، ولهم الفوز فى الدنيا والآخرة ، وذلك الذى أعده الله لهم فى الدنيا والآخرة هو الفوز العظيم . . شتان بين هؤلاء حقا ، وبين المنافقين من

الأعراب ، والمردة من أهل المدينة على الإسلام ورسوله الكريم ، ممن كانوا أمثلة حية للنفاق ، وممن لم يعلم بجرائمهم الرسول ، وإنما أحاط الله بكل شيء أضمروه فى أنفسهم ، وممن كتب الله لهم العذاب فى الدنيا والآخرة . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات التى نزلت فى سكان البادية: « الأعراب » أى أهل البدو « أشد كفرا ونفاقا » أى من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم ، وقلة استماعهم للكتاب والسنة واستيلاء العاطفة عليهم ، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم ، وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ولا ضبط ضابط فنشأوا كما نشأوا ، ومن كان كذلك كان أشد الناس نفاقا ، وفى اللغة يقال : رجل عربى إذا كان له نسب فى العرب ، وجمعه عرب . ورجل أعرابى بالألف إذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الأعرابى على الأعراب والأعاريب ؛ والأعرابى إذا قيل له : يا عربى فرح ، والعربى إذا قيل له : يا أعرابى غضب ؛ ومن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم أعراب ، والذى يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : حب العرب من الإيمان ، وأما الأعراب فقد ذمهم الله تعالى فى هذه الآية .. وقيل : سموا بالعرب لأن ألسنتهم معربة عن ضمائرهم ، ولا شك أن اللسان العربى مختص بأنواع الفصاحة والجزالة لا يوجد فى سائر الألسنة . قال الرازى : ورأيت فى بعض الكتب عن بعض الحكماء قال : حكمة الروم فى أدمغتهم ، وذلك لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة ، وحكمة الهند فى أذهانهم ، وحكمة اليونان فى أفئدتهم ، وذلك لكثرة مالهم من المباحث العقلية ، وحكمة العرب فى ألسنتهم ، وذلك لحلاوة ألسنتهم وعذوبة عباراتهم ، ثم حكم الله تعالى على الأعراب بحكم آخر فقال تعالى : « وأجدر » أى أحق وأولى « أن » أى بأن « لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » من الأحكام والشرائع فرائضها وسننها « والله عليم » بما فى قلوب عباده « حكيم » فيما فرض من فرائضه وأحكامه « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق » فى سبيل

الله تعالى « مغرما » أى غرامة وخسرانا ، والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لأنه لاينفقه إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده ، وهم أسد وغطفان « ويتربص » أى ينتظر « بكم الدوائر » أى دوائر الزمان أن تنقلب عليكم ، فيموت النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون ، قال الله تعالى : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم وهو اعتراض بين كلامين : دعاء عليهم بنحو ما دعوا به ، قال الله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » . . . أى يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه إلا ما يسوؤهم ويكيدهم « والله سميع » لأقوالهم « عليم » بما فى ضمائرهم ؛ ولما بين سبحانه وتعالى أنه حصل فى الأعراب من يتخذ إنفاقه فى سبيل الله مغرما ، ذكر أيضاً من يتخذ إنفاقه فى سبيل الله تعالى مغنما فى قوله تعالى « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر » كبعض جهينة ومزينة ، فوصفهم الله تعالى بوصفين : كونهم مؤمنين بالله وباليوم الآخر ، ولا بد فى جميع الطاعات من تقديم الإيمان ، والثانى ما ذكره بقوله تعالى « ويتخذ ما ينفق قربات » جمع قربة أى يقربه « عند الله وصلوات » أى دعوات « الرسول » صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ، ويستغفر لهم ، كقوله صلى الله عليه وسلم : اللهم صل على آل أبى أوفى ، قال تعالى : وصل عليهم أى ادع لهم . ولما كان ما ينفق سبباً لذلك ، قيل : يتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول « ألا إنها » أى نفقاتهم « قربة لهم » عند الله ، وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق الواثق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول .. وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه ، وهو قوله تعالى « ألا » وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى « إنها » ، ثم زاد فى التأكيد فقال تعالى « سيدخلهم الله فى رحمته » فإن دخول السين توجب مزيد التأكيد ، وهذه النعمة هى أقصى مرادهم « إن الله غفور » أى بليغ الستر لمعاصى من تاب « رحيم » بهم .

ولما ذكر تعالى فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله ، وما أعد لهم من الثواب ، بين تعالى أن فوق منزلتهم منازل أعلا وأعظم بها بقوله تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أما من المهاجرين فقال سعيد بن المسيب : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقال عطاء بن رباح : هم أهل بدر ، وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان ، وقال محمد بن كعب : هم جماهير الصحابة ، وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة ، واختلف فى أول الناس إسلاما ، وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض العلماء : أول من أسلم بعد خديجة على بن أبى طالب ، وهذا قول جابر ، واختلفوا فى سنه وقت إسلامه : فقيل : كان ابن عشر سنين ، وقيل: أقل من ذلك ، وقيل : أكثر ، وقيل : كان بالغا ، والأكثرون على أنه لم يكن بالغا وقت إسلامه ، وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق ، وهذا قول ابن عباس ، وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول عروة بن الزبير ، وكان إسحق بن إبراهيم يجمع بين هذه الروايات فيقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهؤلاء الأربعة هم السباقون فى الخلق إلى الإسلام ، وأما من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى وكانوا ستة نفر ، ثم العقبة الثانية من العام المقبل ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا ، فهؤلاء هم السباقون إلى الإسلام من الأنصار ، وقيل : المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة ، ويدل على هذا أنه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون بأى شىء ، فبقى اللفظ مجملا ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما وضع له إجمالا ، وما به قد صاروا مهاجرين وأنصاراً ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه السابقين الأولين فى الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ . وأيضا فإن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة ؛ لأنهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه

وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم ؛ فلذلك أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم « والذين اتبعوهم » أى الفريقين إلى يوم القيامة « بإحسان » أى فى اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقتهم ، وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم ، وقيل : بقية المهاجرين سوى السابقين الأولين ، وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، والمد ربع الصاع ، والنصيف نصفه ، والمعنى لو أن أحداً عمل ما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق فى سبيل الله ما بلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة .. وعن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران : فلا أدرى أذكر بعده قرنين أم ثلاثا ، والقرن الأمة من الناس يقارب بعضهم بعضا ، واختلفوا فى مدته من الزمان ، فقيل : من عشر سنين إلى عشرين سنة ، وقيل : ثلاثون وقيل : أربعون ، وقيل : من مائة إلى مائة وعشرين سنة . ثم جمعهم الله تعالى فى الثواب فقال « رضى الله عنهم » والسابقون مرفوع بالابتداء وخبره « رضى الله عنهم » أى رضى عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم « ورضوا عنه » بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة فى الدنيا والآخرة « وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى هى كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ما يجرى منه نهر « خالدين فيها » وقد أكد المراد من الخلود بقوله تعالى « أبدا » ثم استأنف مدح هذا الذى أعده لهم بقوله تعالى « ذلك » أى الأمر العالى الرتبة « الفوز العظيم » أى الذى ليس هناك فوز مثله ..

ولما شرح تعالى أحوال منافقى المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقى الأعراب، ثم بين أن فى الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص ، وبين رضاءه على رؤساء المؤمنين منهم ، وهم السابقون من المهاجرين والأنصار ، ذكر جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى « وممن حولكم » أى أهل بلدتكم

وهى المدينة « من الأعراب منافقون » وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها « ومن أهل المدينة » عطف على « ممن حولكم » ويجوز أن يكون جملة مستأنفة أى ومن أهل المدينة قوم « مردوا على النفاق » . . .

وقال الزجاج : فى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ، أى ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه ، « لاتعلمهم » بأعيانهم أى يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط توقيهم ما يشكك فى أمرهم ، ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى « نحن نعلمهم » أى لايعلمهم إلا الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره ؛ لأنهم يبطنون الكفر فى قلوبهم إبطانا ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين لاتشك معه فى إيمانهم . وذلك أنهم مردوا على النفاق ومرنوا عليه فلهم فيه اليد الطولى ، واختلفوا فى تفسير قوله تعالى « سنعذبهم مرتين » فقال الكلبى والسدى : قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال: اخرج يافلان فإنك منافق، اخرج يافلان فإنك منافق ، اخرج يافلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم ، فهذا هو العذاب الأول ، والثانى عذاب القبر، فالله تعالى أعلم بهم ؛ وقال مجاهد : الأول : القتل والسبى ، والثانى : عذاب القبر ، وقال ابن زيد : الأول المصائب فى الأولاد والثانى عذاب الآخرة ، وقال ابن عباس : الأول إقامة الحدود عليهم والثانى عذاب القبر ، وقيل: عذبوا بالجوع مرتين،وقيل : الأول ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم ، والثانى عذاب القبر ، وقيل: الأول إحراق مسجدهم مسجد الضرار ، والثانى إحراقهم بنار جهنم ، كما قال تعالى « ثم يردون » أى فى الآخرة « إلى عذاب عظيم » هو النار ؛ وقد يصح أن تقول: إن العذاب الأول هو فضح أسرارهم وكشف نفاقهم أمام الناس ، والعذاب الثانى هو نصر الله عز وجل للإسلام وخذلانه لهم .

١٠٢ — وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٠٣ — خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٠٤ — أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ .

١٠٥ — وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

١٠٦ — وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآيات الخمس الكريمة يتحدث الله عز وجل عن طبقتين من الناس فى عهد الرسالة ؛ طبقة أخطأت ثم أقرت بالخطأ وتابت منه ، نافقوا واعتذروا عن القتال والحرب ، ولكنهم ندموا على مافعلوا وتابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله ، وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وهؤلاء قبول توبتهم مرجعه إلى الله عز وجل ، والله غفور رحيم ، وقد أمروا بالصدقة تكفيرا لذنوبهم ، وتطهيرا لنفوسهم ، وتزكية لقلوبهم ، وأمر الرسول العظيم بأن يستغفر لهم ، ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان ؛ ومثل هؤلاء جديرون بالتفاؤل والأمل وبرضاء الله عنهم ، وتوبته عليهم ، وعفوه عن جرائمهم ؛ وجديرون أيضا بالعمل بالإسلام وشريعته ووفق مبادئه ، عما يؤدى بالمسلم إلى الخير والفوز فى الآخرة والأولى .

أما الطبقة الثانية فهى التى لم تتب إلى الله ، فأمرهم بيد الله عز وجل ، إما أن يعذبهم أو يتوب عليهم ، والله عليم حكيم . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

« وآخرون » أى وقوم آخرون « اعترفوا بذنوبهم » أى ولم يعتذروا

من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة « خلطوا عملا صالحا » أى وهو جهادهم قبل ذلك واعترافهم بذنوبهم ، أو غير ذلك « وآخر سيئا » أى وهو تخلفهم « عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .
وقد نزلت هذه الآية فى طائفة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، واختلف فى عددهم : فعن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة عشر ، وروى عنه أنهم كانوا خمسة، وقال سعيد بن جبير : كانوا ثمانية ، وقيل : كانوا ثلاثة ، ندموا لما بلغهم نبأ المتخلفين وتابوا ، وقالوا : نكون فى الظلال ومعنا النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللواء ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا : والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقها ويعذرنا ، فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته فى رجوعه من سفره ، فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم وترضى عنهم. فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا : يارسول الله هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئا، فأنزل الله تعالى: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم» من الذنوب وحب المال المؤدى إلى مثله ،وتجرى لهم مجرى الكفارة ، هذا قول الحسن كان يقول : ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وإنما هى كفارة الذنب الذى صدر ، ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم ، والصدقة الواجبة لا يؤخذ منها ثلث المال « وتزكيهم » أى وتنمى « بها » حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين « وصل عليهم » أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ، والسنة أن يدعو عند أخذ الصدقة : آجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهورا وبارك لك فيما أبقيت « إن صلاتك سكن لهم»

اى تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لأن روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية باهرة . فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخـــير فاضت آثار من قوة روحه على أرواحهم ، وصفت أسرارهم ، وانتقلوا من الظلمة إلى النور ، ومن الجسمانية إلى الروحانية ، فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة وقيل : إن هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء، وعليه أكثر الفقهاء إذ استدلوا لهذه الآية على إيجاب الزكاة « والله سميع » لأقوالهم واعترافهم ودعائك لهم « عليم » بندامتهم ونياتهم..

* **

وقد تعرضت هذه الآيات لأحداث غزوة تبوك ، وكان الرسول الكريم أمر الناس أن يتهيأوا لغز الروم ، وكانت أيام عسرة وضيق وشدة من الحر وجدب فى البلاد ، وكان النبى إذا هم بمباشرة حرب لم يصرح بذكر المكان الذى يقصده ، أما فى هذه الحرب ضد الروم ، فإنه قد بينها صراحة للناس ، ليعرفوا طريقهم ، ويعدوا عدتهم لمواجهة عدوهم الكثير العدد ، واجتمع المنافقون قبل مسير الجيش فقالوا لأنفسهم : لاتخرجوا فى هذه الحرب لشدة الحر علينا ، وكان ذلك منهم زهدا فى الجهاد وشكا فى الحق ، فنزلت آيات كريمة فى لعنهم ومقتهم . . وحض النبى أغنياء المسلمين على معاونة المجاهدين، فبذل المسلمون أموالهم وحملوا المقاتلين على رواحلهم احتسابا لوجه الله ، وجاء عثمان بن عفان فوضع فى حجرة رسول الله ألف دينار لينفقها على المجاهدين ويجهز بها من كان منهم فى عسرة ، فقال النبى : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه . وجاء إلى النبى سبعة رجال من المجاهدين يبكون إذ لم يجدوا الدواب التى تحملهم إلى ميدان القتال وكانوا فى شدة وحاجة ، فقال لهم النبى : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون ؛ فنزل فيهم القرآن ثناء عليهم كما نزل بشأن الذين تخلفوا عن الجهاد من المنافقين ؛ وترك النبى على بن أبى طالب فى المدينة ليرعى أهله ، وأمره بالإقامة بينهم فتكلم فيه المنافقون ، وقالوا : إن النبى تركه استثقالا له وتخفيفاً عن نفسه ، فتألم على من هذا الإرجاف ، فحمل سلاحه ولحق برسول الله ،

وكان على ثلاثة أميال من المدينة فقال له : يا رسول الله، زعم المنافقون أنك خلفتنى لأنك أردت أن تخفف عن نفسـك عبئى ، فقال له : لقد كذبوا ولـكننى خلفتك لمن تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى ياعلى أن تـكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ، فعاد على إلى المدينة راضياً . ورجع من الطريق رجل من كبار المسلمين أسمه أبو خيثمة فقد عاد إلى أهله فى يوم شديد الحر، فوجد زوجتين له فى عريشين لهما داخل بستان وقد رشت كل واحد منهما عريشها وبردت لزوجها فيه الماء وهيأت له طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى زوجتيه وما صنعتا له ، فداخله الحياء من الله وقال : أيـكون رسول الله يعانى لهيب الحر وقسوته وتلفحه الريح برمضائها وأقيم أنا فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، ما هذا بحلال ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله . . ثم ركب راحلته وسار حتى جلس بين يدى رسول الله وقص عليه ما وقع منه ومارآه فدعا له بخير ، وتخلف عن ركب النبى كثيرون أعوزتهم الحاجة إلى ما يركبونه لشدة الضيق والعنت ، فكان الناس يقولون : يارسول الله ، لقد تخلف فلان فيقول : دعوه فإن يك به خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . . وكان من أصحاب النبى رجل من صلحاء المسلمين اسمه أبو ذر فقال الناس : يا رسـول الله قد تخلف أبو ذر فقال : دعوه فإن يك فيـه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وكان أبو ذر قد ركب بعيراً ضعيفا فأبطأ به عن الناس ، فخاف أن يفوته الجهاد فترك البعير وحمل متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر النبى ماشيا ، فنظر بعض الناس فرأوا رجلا يمشى على الطريق وحده فخبروا به النبى ، فقال : كن أبا ذر ، فلما قرب وتأمله الناس ، قالوا : هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده . فحدث للرجل ما قاله النبى .

فلما بلغ النبى تبوك وهى من بلاد شرق الأردن قدم عليه يوحنا بن رؤبة

حاكم مدينة أيله ، وهى ثغر العقبة فصالح رسول الله وأعطاه الجزية . وقدم عليه أهل جرباء وأذرح فأعطوا الجزية، فكتب النبى لهم عهدا بذلك . ودخلت على المسلمين السنة التاسعة للهجرة ، وقد عاد النبى من قتال الروم بتبوك واستقر بالمسلمين الأمر . قال أبو موسى رضى الله عنه : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله أن يحملهم إذ هم معه فى جيش العسرة وهى غزوة تبوك ، فقلت : يا نبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم ، فقال : والله لا أحملكم على شيء، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزينا من منع النبى صلى الله عليه وسلم، ومن مخافة أن يكون النبى وجد فى نفسه على فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادى: أى عبد الله بن قيس فأجبته ، فقال : أجب رسول الله يدعوك. فلما أتيته قال: خذ هذين القرينين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد ، فانطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله ، أوقال: إن رسول الله ، يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، فانطلقت إليهم بهن فقلت : إن النبى يحملكم على هؤلاء ، ولكنى والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ، لا تظنوا أنى حدثتكم شيئا لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لى: والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت ، فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله منعه إياهم ثم إعطاءهم بعد ، فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى .

وممن تخلف عن الغزوة كعب بن مالك رضى الله عنه ، قال : لم أتخلف عن رسول الله فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى

كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله فى حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدوا كثيرا. فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له مالم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بى حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ماقلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله، قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل: إن رسول الله قد أظل قادما، زاح عنى الباطل، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال؛ فجئت أمشى حتى جلست

بين يديه فقال لى: ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى والله يارسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت فى نفسى الأرض ، فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه سلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت ، فعدت له فنشدته

فسكت، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك ،فقلت لامرأتى :الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ، فقالت يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ، ولكن لا يقربك، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ، وما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال الذى ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته

يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة ، يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول : إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، فقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، وأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - وكونوا مع الصادقين » ، فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال الله عز وجل : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم - إلى قوله - فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

ذكر الله سبحانه وتعالى حديث القوم الذين تقدم ذكرهم وأنهم تابوا عن

ذنوبهم وأنهم تصدقوا ، ولم يذكر إلا قوله « عسى الله أن يتوب عليهم » ، وما كان ذلك صريحا فى قبول توبتهم ، ومن أجل ذلك ذكر بعد ذلك أنه يقبل التوبة وأنه سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات ترغيبا لكل العصاة فى الطاعة بقوله تعالى « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ » أى يقبل « الصدقات » ، والضمير إما للمتوب عليهم ، والمراد أن يمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم ، وإما لغيرهم ، والمراد به التخصيص عليها ، والآية وإن وردت بصيغة الاستفهام إلا أن المراد بها التقرير فى النفس . ومن عادة العرب فى إفهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن تقول : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين ، أما الذين لم يتوبوا من المتخلفين فهؤلاء كانوا لا يكلمون ولا يجالسون ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة ، ثم زاد أمرهم تأكيدا بقوله تعالى « وأن الله هو التواب الرحيم » أى وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم ؛ وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله يقبلها من عبده . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيبا ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب ، إلا يضعها فى يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربى لأحدكم فلوه ، حتى إن اللقمة لتأتى يوم القيامة وإنها كمثل الجبل العظيم ، ثم قرأ « إن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » ، « وقل اعملوا » أى وقل لهم أو للناس يا محمد : اعملوا ما شئتم « فسيرى الله عملكم » فإنه لا يخفى عليه شىء خيراً كان أو شراً .. وفيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين ، فكأنه قال : اجتهدوا فى العمل فإن الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها «و» يرى أيضا «رسوله والمؤمنون» أعمالكم .. وأما رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله تعالى إياه على أعمالكم ، وأما رؤية المؤمنين فيما يقذف الله تعالى فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة» أى وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم

وعلانيتكم ولا يخفى عليه شىء من أعمال بواطنكم وظواهركم « فينبئكم » أى فيخبركم « بما كنتم تعملون » من خير وشر فيجازيكم على أعمالكم ، واعلم أن الله تعالى قسم المختلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام : أولهم المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثانى: التائبون وهم المرادون بقوله تعالى «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» وبين أنه تعالى قبل توبتهم ، والقسم الثالث: الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون فى قوله تعالى : « وآخرون » أى من المتخلفين « مرجون » أى مؤخرون عن التوبة « لأمر الله » أى لحكم الله تعالى فيهم ، والفرق بين القسم الثانى وبين هذا أن أولئك سارعوا إلى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا إليها ، قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية تخلفوا كسلا وميالا إلى الراحة لا نفاقا ، ولم يعتذروا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إما يعذبهم » بأن يميتهم من غير توبة « وإما يتوب عليهم » إن تابوا ، وقد يقال : إن كلمة أما وإما للشك والله تعالى منزه عن ذلك ، والجواب أن الترديد بالنسبة للعباد ، أى ليكن أمرهم عندكم على هذا فى الخوف والرجاء ، فإن الله تعالى لا يخفى عليه خافية ، وفى هذا دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى « والله عليم » بأحوال عباده « حكيم » فيما يفعل بهم وقد مضت قصة كعب وزميليه ، وسيأتى ذكر لها عند قوله تعالى : « وعلى الثلاثة ، الذين خلفوا » .

١٠٧ — وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

١٠٨ — لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ .

١٠٩ — أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

١١٠ — لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

يندد الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الكريمة بطبقة من المسلمين فى عهد الرسالة اتخذوا مسجداً لهم وأخذوا يعقدون فيه الاجتماعات لشن الإشاعات ضد الرسول والمؤمنين ، والطعن فى الرسالة والرسول ، وللفرقة بين المسلمين ، ولتدبير الدسائس والمكائد ، ولإعلان الحرب الداخلية فى صفوف المجتمع الإسلامى الجديد . . وقد أمر الرسول الأعظم بأن يتجنب هؤلاء ، ويتجنب الذهاب إلى مسجدهم هذا ، فإنما يسعى الرسول إلى المساجد التى أقيمت على الخير ، وبنيت لجمع كلمة المسلمين ، وأسست على التقوى . . وهنا يضرب الله عز وجل المثل واضحا جليا ، رائعا بليغا لهؤلاء وهؤلاء ، للمؤمنين والمنافقين ، للذين بنوا بيوت الله عالية للعبادة ولنشر الإسلام ، ولتمكن كلمة المسلمين ، وللذين بنوها لتفريق كلمة المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وبث الفرقة والعداء والخصومة فى صفوفهم ، وللدس للإسلام والمسلمين ولصاحب الرسالة ، فالأولون بناؤهم مؤسس على تقوى من الله ورضوان ، وعملهم لهم منه الثمرة الطيبة المرجوة ، ولهم منه الخير والفوز والفلاح ، والآخرون بناؤهم قد أسس على الرمال فلا يلبث أن ينهار ، وأن يقذف بهم فى نار جهنم حيث العذاب الشديد ، وسوء المصير ، والعاقبة الأليمة الدامية . . .

ولما ذكر تعالى أصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى « والذين

اتخذوا مسجدا ، قال ابن عباس : هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا، ضرارا ، أى مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ، وكفرا ، أى وتقوية للنفاق ، وقال ابن عباس : يريد به ضرارا للمؤمنين وكفرا بالنبى صلى الله عليه وسلم والإسلام ،وتفريقا بين المؤمنين، لأنهم كانوا جميعاً يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم ، فيؤدى ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة ،وإرصادا، أى ترقبا ، لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر ولد أبى حنظلة الذى غسلته الملائكة ، وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لأنه زالت رياسته ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، قال له أبو عامر : أنا عليها ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، فقال له أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : آمين ، وسماه من الفاسقين ، فلما كان يوم أحد قال أبو عامر : لاأجد قوما يقاتلون إلاقاتلتك معهم ، ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين ؛ فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من القوة والسلاح ، وابنوا لى مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء وانتظروا مجىء أبى عامر ليصلى بهم فى ذلك المسجد ، من قبل ، أى حارب من قبل أن يسافر هؤلاء بالتخلف ، ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الأربعة قال تعالى ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، أى وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الغاية الحسنى وهى الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والقلة والعجز عن المصير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المظلمة والشاتية ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، فى قولهم .

ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك . وقالوا يارسول الله : بنينامسجدا لذى العلة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة، فقال صلى الله عليه وسلم: إنى على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه؛ فلما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد نزل قوله تعالى « لاتقم فيه أبدا » قال ابن عباس معناه : لا تصلى فيه أبدا ، وقال الحسن : هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى ذلك المسجد فنادى جبريل : لاتقم فيه أبدا ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، فخرجوا جميعا سريعا ، حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك : أنظرونى حتى أخرج لكم بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا يشتدون حتى دخل المسجد وفيه أهله فهدموه وأحرقوه وتفرق عنهم أهله ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً ، وقيل: كل مسجد بنى لرياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى أو بمال غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار ، وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على عهد عمر رضى الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لايتخذوا فى مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه «لمسجد» أى والله لمسجد على تقدير قسم « أسس » أى وضع أساسه وقواعده « على التقوى » أى تقوى الله تعالى « من أول يوم » أى من أول أيام وجوده ، لأن « من » تعم الزمان والمكان أى فأحاطت به التقوى ؛ لأنها إذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره « أحق » أى أولى أن تصلى فيه « أن » أى بأن « تقوم » أى تصلى « فيه » واختلف فى هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، فقيل : هو مسجد المدينة ، قاله زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى ، قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت

بعض نسائه فقلت : يا رسول الله أى المسجد أسس على التقوى قال : فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا مسجد المدينة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى . . وقيل : هو مسجد قباء ، قاله سعيد بن جبير وقتادة ، أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام قيامه بقباء وهو يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة، ويدل على هذا القول قوله تعالى : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » أى من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله تعالى عليهم « والله يحب المطهرين » أى يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ، روى أنها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال المؤمنون : أنتم ، فسكت القوم ثم أعادها ، فقال عمر: يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه الصلاة والسلام: أترضون بالقضاء ؟ فقالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : مؤمنون ورب الكعبة ، فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الذين تصنعون ، وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن ساعدة أنه صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن إليكم الثناء فى الطهر، وفى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟ قالوا : يا رسول الله ، والله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون فغسلنا كما غسلوا ، وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول ، وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة ، « فمن أسس بنيانه » أى بنيان دينه « على تقوى من الله ورضوان » أى على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من أسس بنيانه شفا » أى طرف « جرف » أى جانب « هار » أى على قاعدة هى أضعف القواعد وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار أى مشرف على السقوط « فانهار به » أى سقط

بيانيه « فى نار جهنم » وهذا تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤول إليه ، والاستفهام للتقرير .. والأول خير ، وهو مثال مسجد قباء ، والثانى مثال مسجد الضرار ، قال الرازى : ولا ترى فى العالم مثالا أحسن مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال ، وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنيانه تقوى الله ورضوانه ، والبناء الثانى قصد بانيه المعصية والكفر فكان البناء الأول شريفا واجب الإبقاء وكان الثانى خسيسا واجب الهدم ؛ قيل : حفرت بقعة فى مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منها « والله لايهدى القوم الظالمين » أى إلى مافيه صلاح ونجاح « لا يزال بنيانهم الذى بنوا » أى بناؤهم الذى بنوه ، وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبين ، وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال : صنعة الفنان ونسج العامل ، أى مصنوعه ومنسوجه « ريبة » أى شكا «فى قلوبهم» والمعنى : إن بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم ، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة ، وإنما جعل سببا للريبة لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم فى كل الأوقات ، وصاروا مرتابين فى أنهم هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم ؛ وقال الكلبى : صار حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه ، وقال السدى : لا يزال هدم بنائهم ريبة أى حرارة وغيظا فى قلوبهم « إلا أن تقطع قلوبهم » قطعا إما بالسيف وإما بالموت أو ندما وأسفا « والله عليم » بأحوالهم وأحوال عباده « حكيم » فى الأحوال التى يحكم بها عليهم وعلى غيرهم ..

* * *

وبهذا ينتهى الربع السابع من سورة التوبة ، وهو مطلع الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم .. وقد تضمن هذا الربع من الأصول ما يلى :

١ — الإعفاء من الاشتراك فى الجيش الإسلامى المحارب يكون للمرضى ، وللذين لايليقون للعمل الحربى الشاق من الضعفاء ، وللذين لايجدون المال أو العتاد اللازم لهم وهم فى المعركة ، عندما كانت الدولة لاتتكفل بنفقات

المحاربين وعتادهم ، أما اليوم فالدولة هى المسئولة عن كل ذلك . أما القادرون الأقوياء الذين يليقون للعمل العسكرى ، فإن اشتراكهم فى الأعمال الحربية واجب ، كل حسب طاقته واستعداده ، فلا إعفاء لهم ، إنما عليهم واجب الدفاع عن الوطن الإسلامى ، فإذا حاولوا الاعتذار والتخلف عن الانضمام لجيش المسلمين فإن عليهم مسئولية كبرى ، أمام الله والملائكة والناس ، وأمام الحاكم الإسلامى العام . . واعتذارهم قبل المعركة أو بعد المعركة شىء لا يؤبه به ، فهو اعتذار كاذب ، لا يعول عليه . . ومثل هؤلاء موضع غضب الله فى الدنيا ، وعذابه الشديد فى الآخرة ، وهم غير أهل لرضاء الله ورسوله والمسلمين عنهم .

٢ — التنديد بروح الجاهلية التى كانت ـ وما زالت ـ مسيطرة على الأعراب فى عهد الرسالة ، وبما كانوا عليه من نفاق وكفر ؛ وبروح الشر والفهم الخاطىء للإسلام ، مما كان مسيطرا عليهم من مثل ذهابهم إلى أن الزكاة مغرم لا فائدة له ، ومن مثل تربصهم الدوائر بالإسلام العظيم وبرسوله الكريم ، وهم الذين سوف تحل بهم الدائرة . . فأين هؤلاء من الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ، وآمنوا بالبعث والحساب والنشور ، وآمنوا بأن ما ينفقون من مال فى سبيل الله فهو قربات لهم عند الله ورحمته ، ولهم عليه الثواب الكريم ؛ وأين هؤلاء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن الذين اتبعوهم بإحسان ، ممن كتب لهم الرحمة والمغفرة ، وأعد لهم الجنة ثوابا من عند الله ، خالدين فيها أبداً ، وذلك هو الفوز العظيم .

٣ — كشف القناع عن وجوه المنافقين من الأعراب حول المدينة ، ومن أهل المدينة ، ممن لهم العذاب الشديد فى الدنيا ، عذابهم بفضيحتهم وفضيحة نفاقهم وكشف أسرارهم أمام الناس ، وعذابهم بإظهار الإسلام وبخذلانهم هم خذلانا شديداً وهزيمتهم هزيمة منكرة ، وبانقطاع آمالهم فى انتصار خصوم الإسلام ومحاربيه ومقاومى دعوته التحررية العظمى .

٤ — الرحمة بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، ممن اعترفوا بذنبهم

وتقصيرهم ، وأقروا بالمسئولية عليهم ، وعسى الله أن يتوب عليهم ، وواجب عليهم أن يعملوا على تطهير أنفسهم وأرواحهم ، وعلى تزكية قلوبهم وجوارحهم ، بإخراجهم الزكاة والصدقات للفقراء والمساكين ؛ ودعوات الرسول لهم بالرحمة والمغفرة سبب خير وصلاح فى الدنيا والآخرة ، ووسيلة اطمئنان وهدوء لأنفسهم القلقة المتعبة المكدودة . . والله غفور رحيم ، وهو الذى يقبل عن عباده ، وهو التواب الغفور .. إن هؤلاء قد سكن القرآن من قلقهم ، ودعاهم إلى التوبة ، وإلى إخراج الصدقات تطهيراً وتزكية ، وإلى العمل ، العمل الخالص لوجه الله ، فسيرى الله ورسوله والمؤمنون عمل العاملين ، وسيردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

٥ — ذكر طائفة من المتخلفين عن رسول الله فى غزوة تبوك ، أمرهم مفوض إلى الله ، إما أن يعذبهم ، وإما أن يتوب عليهم ، والله عليم بأمرهم ، حكيم فى وضع الجزاء لهم ، وهؤلاء ممن لم يبادروا إلى التوبة ، ولم يسرعوا إلى الإنابة ..

٦ — التنديد مرة أخرى بفريق من المنافقين بنوا مسجدا وجعلوه مركزاً لمقاومة الإسلام ودعوته ، والدس على الرسول ورسالته ، وشتان بين هؤلاء وبين الذين بنوا المساجد للعبادة وشيدوها على التقوى ، وقاموا فيها للعبادة ، مخلصين لله ، منيبين إليه ، مطيعين لرسوله صلى الله عليه وسلم ..

الربع الثامن من سورة التوبة

١١١ — إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

١١٢ — ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما مطلع الربع الثامن من سورة التوبة ، وفيهما حث على الجهاد فى سبيل الله ، وتعظيم أمره ، وأمر المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله ، وكتب الله لهم الجنة ، جزاء استشهادهم فى سبيل نشر الإسلام ، ورد كيد خصومه .. لقد باعوا الله أنفسهم وأموالهم، ومنحهم الله الجنة ، جزاء قتالهم فى سبيله، والجنة أغلى جزاء، وقد وعد الله بها الشهداء فى جميع الكتب السماوية المقدسة ؛ والشهداء أهل لهذا الجزاء الكريم ، فاستشهادهم ينطوى على معان جليلة : من التوبة والعبادة والحمد والإخلاص لله ، ولا شك أن هؤلاء الذين أقدموا على الاستشهاد فى سبيل الله هم من التوابين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود الله ، وهؤلاء لهم البشرى ، فهم مؤمنون حقا ، والبشرى للمؤمنين ...

ولما تقدم الإنكار على المتثاقلين عن الجهاد فى سبيل الله فى قوله تعالى : « مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله » الآية ثم الجزم فى الجهاد بالنفس والمال فى قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » الآية .. ذكر فضيله الجهاد وحقيقته فى قوله تعالى « إن الله اشترى » أى بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة « من المؤمنين » بالله ورسوله وبما جاء من عند ربه « أنفسهم » التى تفرد بخلقها « وأموالهم » التى تفرد برزقها وهو يملكها دونهم ، وقدم النفس إشارة إلى أهمية بيع النفس والتضحية بها .. ولما ذكر البيع أتبعه الثمن بقوله تعالى « بأن لهم الجنة » روى أن الأنصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى بما تمنعون به أنفسكم

وأموالكم قالوا :فإذا فعلنا ذلك فمالنا ؟ قال: الجنة، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت . ومر أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها، فقال الأعرابى: كلام من؟ قال عليه الصلاة والسلام: كلام الله عز وجل، فقال الأعرابى: والله بيع مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد .. وقال الحسن: واسمعوا الله بيعة رابحة وكفة راجحة، بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة ، والمراد بالأموال إنفاقها فى سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم فى جميع وجوه البر والطاعة ، والمراد على أية حال من الأحوال هو بذل النفس والتضحية بها فى سبيل الله ودينه « يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » هـذا بيان لحالهم ولعظمة بذلهم «وعدا عليه حقا» أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت « فى التوراة » كتاب موسى عليه السلام « والإنجيل » كتاب عيسى عليه السلام « والقرآن » أى قد أثبته فيهما كما أثبته فى القرآن ، الكتاب الجامع لكل ما قبله « ومن أوفى بعهده من الله » أى لا أحد أوفى منه سبحانه ، لأن الإخلاف لا يقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذى له الغنى المطلق « فاستبشروا » أى فافرحوا غاية الفرح « ببيعكم الذى بايعتم به » فإنه أوجب لكم أعظم الغايات وهو دخول الجنة « وذلك هو الفوز العظيم » .. و هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات :

أولها قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » بكون المشترى هو الله المقدس عن الكذب والخيانة ، وذلك من أجل الدلائل على تأكيد هذا العهد .

ثانيها أنه تعالى عبر عن إيصاله هـذا الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد .

وثالثها قوله تعالى : « وعد الله » ووعد الله تعالى حق .

ورابعها قوله تعالى : « عليه » وكلمة (على) للوجوب .

خامسها قوله تعالى : « حقا » وهو لتأكيد التحقيق .

سادسها قوله تعالى : «فى التوراة والإنجيل والقرآن» وذلك يجرى مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبالغة .

سابعها قوله تعالى : «ومن أوفى بعهده من الله» ؟ وهو غاية فى التأكيد .

ثامنها قوله تعالى : «فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به» وهو أيضاً مبالغة فى التأكيد .

تاسعها قوله تعالى : «وذلك هو الفوز» .

وعاشرها قوله تعالى : «العظيم» ، فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة فى التأكيد والتقرير والتحقيق :

ولما بين الله تعالى فى هذه الآية أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية : «التائبون» مرفوع على المدح أى هم التائبون ، أى المذكورون فى قوله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين» أى التائبون عن الكفر هم الجامعون لهذه الخصال ، والتائبون هنا تشمل التوبة من كل المعصية ، والتوبة إنما تحصل عند أربعة أمور : أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ، ثانيها الندم على ما مضى ، ثالثها العزم على الترك فى المستقبل ، رابعها أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته ، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو لغرض من الإغراض الدنيوية فليس صاحبها بتائب ، ولا بد من من رد المظالم إلى أهلها إن كانت .. «العابدون» أى الذين أخلصوا العبادة لله ، وقال الحسن : هم الذين عبدوا الله فى السراء والضراء . «الحامدون» هم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : أول من دعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله السراء والضراء «السائحون» اختلف فى المراد منهم فقال ابن عباس : هو الصوم ، قال صلى الله عليه وسلم : سياحة أمتى الصيام ؛ وعن الحسن : إن هذا صوم الفرض ؛ وقيل : الذين يديمون الصيام ، قال الأزهرى : قيل للصائم سائح

لأن الذى يسيح فى الأرض متعبدا لا زاد معه كان ممسكا عن الأكل والصيام ممسك عن الأكل ، فلهذه المشابهة يسمى الصائم سائحا، وقال عطاء : السائحون الغزاة فى سبيل الله ، وروى عن عثمان بن مظعون أنه قال يا رسول الله : إئذن لنا فى السياحة فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وقال عطاء : السائحون هم طلاب العلم ، والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس لأنه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة ، وهى تنمى من ثقافة الإنسان وعقله ، وتوسع مداركه وتجاربه فى الحياة ؛ فالسياحة لها أثر قوى فى الدين «الراكعون الساجدون» أى المصلون ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأن بهما يتميز المصلى عن غيره بخلاف حالة القيام والقعود، لأنهما حالة المصلى وغيره ، ولأن القيام أول مراتب التواضع لله تعالى، والركوع وسطها والسجود بالذكر لدلالتها على غاية التواضع والعبودية ، تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم «الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» أى الآمرون بالإيمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ، ودخول الواو فى «والناهون» عن المنكر للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم صفتين لا صفة واحدة ، فكأنه قال : الجامعون بين الوصفين «والحافظون لحدود الله» أى لأحكامه بالعمل بها، والمقصود أن تكاليف الله تعالى كثيرة وهى محصورة فى نوعين : أحدهما ما يتعلق بالعبادات، والثانى ما يتعلق بالمعاملات ، فإن قيل : ما الحكمة فى أن الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ، ثم ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال فى هذه الصفة الأخيرة ، فالجواب عن ذلك أن التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها فى أغلب أوقاته ، فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل ، وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها فى أكثر أوقاته مثل أحكام البيع والشراء مثلا «وبشر المؤمنين» حذف الله تعالى المبشر به للتعظيم ، فكأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

١١٣ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ.

١١٤ — وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

١١٥ — وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١١٦ — إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

فى هذه الآيات الأربع الكريمة بيان لعظم جريمة الشرك والمشركين، وأنهم ليسوا أهلا لرضاء الله ولا لرحمته، ولا لدعاء الرسول لهم بالمغفرة والرضوان، مهما بلغت منزلتهم من قلب الرسول ومن القرابة له . . . وهنا يرشد الله ورسوله الكريم بأن الكفار ليسوا أهلا لاستغفاره هو ولا لاستغفار المؤمنين، ويرد على الشبهة التى يمكن أن تعترض هذا الإرشاد وذلك النهى الإلهى، وهى استغفار إبراهيم لأبيه وقد كان مشركا، فبين الله عز وجل أن استغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه . . ويقرر الله عز وجل أن مثل هذا الإرشاد لابد منه للرسول وللمؤمنين، لأن الله لا يترك المسلمين بعد إذ هداهم إلى الإسلام حتى يبين لهم وجوه المشكلات وصواب الرأى فيها، وما أعظم قدرة الله، وما أجل ملكه، فملك السموات والأرض، وبيده الحياة والموت، وليس لأحد من دون الله من ولى ولا نصير . . .

واختلف فى سبب نزل قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن هـذا نزل فى شأن أبى طالب ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : أى عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليـه إلى تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : أنا على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فنزلت هذه الآيات ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال سول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ، قال : لو لا إنى أخاف أن تعيرنى قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ، فأنزل الله تعالى : «إنك لا تهدى من أحببت» الآية ، وقال بريدة : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليـه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها ، فنزل قوله تعالى « ما كان » الآية ؛ وقال أبو هريرة: زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من حوله ، وقال : استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزورها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت ؛ وقال قتادة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له : تستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وروى الطبرانى بسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجالا قالوا يا نبى إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العانى ، أفلا نستغفر لهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والله لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى :

« ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » .. « من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » أي بأن ماتوا على الكفر ، قال البيضاوى : وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان ، وبهذا دفع النقض باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر فقال « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » أي وعدها إبراهيم إياه بقوله « لأستغفرن لك » أي لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان فإنه يقطع ويمحو ماقبله ، وقرئ : وعدها أباه « فلما تبين له أنه عدو لله » بأن مات على الكفر أو أوحى إليه أنه لن يؤمن « تبرأ منه » أي قطع استغفاره « إن إبراهيم لأواه » أي كثير التطوع والدعاء « حليم » أي صبور على الأذى ، والجملة بيان لسر ما حمله على الاستغفار لأبيه مع صعوبة خلق أبيه عليه « وما كان الله ليضل قوما » أي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لأجل ارتكابهم المنهى عنه « بعد إذ هداهم » أي للإسلام « حتى يبين لهم » بيانا شافيا « ما يتقون » أي ما يجب اتقاؤه « إن الله بكل شيء عليم » أي بالغ العلم ، فهو يبين لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف عليه الهدى ، وما يتركه الله تعالى فإنما يتركه رحمة لهم ، لا يضل ربي ولا ينسى « إن الله له ملك السموات والأرض » فلا يخفى عليه شيء ، فهو خبير بكل ما ينفعكم أو يضركم « يحي ويميت » أي يحي من يشاء على الكفر أو الإيمان ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه فى حكمه وعبيده « وما لكم » أيها الناس « من دون الله » أي غيره « من ولى » يحفظكم منه « ولا نصير » يمنع عنكم الضر .

١١٧ — لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

١١٨ — وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله عز وجل أنه قد شمل برحمته ومغفرته رسوله الصادق الأمين ، ومن آمن به وأخلص لدعوته من المهاجرين والأنصار ، الذين وقفوا مع الرسول فى الشدة ، واتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد الزيغ يصل إلى قلوب فريق منهم ، ومن بعد ما شكوا فى عون الله ونصره ، كما شمل كذلك برحمته ومغفرته هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وضاقت عليهم الأرض بسبب جرمهم وذنبهم وتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله ، فتاب الله عليهم ، وغفر لهم ذنبهم ، وكتب لهم رحمته .. يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « لقد تاب الله » أى أدام توبته « على النبى والمهاجرين والأنصار » وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبته على النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان سبب توبتهم ، فذكره معهم ، كقوله تعالى : « فإن لله خمسه وللرسول » ونحوه ، وقيل : هو بعثه على التوبة ؛ والمعنى : ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، وفى هذا إظهار لفضل التوبة وأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده « الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » أى فى وقت العسرة ، لم يرد ساعة بعينها ، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، والجيش المشترك فيها يسمى جيش العسرة ، والعسرة الشدة ، فكانت عليهم عسرة فى الزاد والماء والعتاد ، قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يتعقبونه ، يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم التمر والشعير ، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى

يأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة ، فمضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وأرضاهم ورضى عنا بهم ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن الله تعالى قد عودك بالدعاء خيراً فادع الله تعالى ، قال : أتحب ذلك ؟ قال نعم ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعا حتى أظلت السماء ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر « من بعد ما كاد تزيغ » أى قرب أن تميل « قلوب فريق منهم » أى هم بعضهم عند تلك الشدة أن يفارق النبى صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ، ولم يرد الميل عن الدين ولا الهرب من المعركة ، فلذلك قال الله تعالى « ثم تاب عليهم » لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الأمر العسر ، وقد ذكر الله تعالى التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا ، لأن الله تعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم « إنه بهم رءوف رحيم » هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب ، فالرأفة هى رقة القلب والسعى فى إزالة الضر ، والرحمة هى تشبع عواطف الإنسان بحب الخير والمثل الشريفة وسعيه فى إيصال المنفعة للناس « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » أى عن غزة تبوك ، وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وهذه الآية معطوفة على الآية الأولى ، والتقدير: لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم ، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الأنصار ، وهم المذكورون فى قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله » . « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » أى مع رحبها أى سعتها فلا يجدون مكانا يطمئنون إليه « وضاقت عليهم أنفسهم » أى قلوبهم

بالغم والوحشة أى بتأخير توبتهم ، فلا يسعهم سرور ولا أنس « وظنوا » أى أيقنوا « أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم » أى وفقهم للتوبة « ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

١١٩ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّـٰدِقِينَ .

١٢٠ — مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

١٢١ — وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث دعوة للمؤمنين بتقوى الله وبصدق الإيمان ، بل بالصدق فى كل شىء ، ودعوة لأهل المدينة بالوقوف بجانب الرسول العظيم صفا واحداً فى سبيل نشر الإسلام وحمايته والتمكين له ، ومقاومة خصومه ، فكل ما ينالهم فى هذا السبيل من تعب ونصب وتضحية ومشقة فأجره على الله ، والله يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وهم المحسنون ، والله لا يضيع أجر المحسنين . الجهاد فى سبيل الإسلام فرض محتوم ، وواجب مقدس ، لأنه جهاد فى سبيل تقدم الإنسانية وحضارتها وازدهارها ، وجهاد فى سبيل المثل العليا الشريفة فى الحياة ، وجهاد فى سبيل المبادىء الجليلة التى ينطوى عليها

معنى خلافة الإنسان لله فى الأرض ، وجهاد فى سبيل العقيدة الصالحة التى هى ضرح سعادة وأمن وسلام للبشر وللإنسان وللعالم جميعا ؛ والجهاد فى سبيل حماية الإسلام واستمرار دعوته ، والمحافظة على شرف رايته ، هو جهاد من أجل الله ورسوله ، ومن أجل الخير والحق والعدل والسلام ، ومن أجل دين الله الحق ، دين المرحمة ، ودين القيمة ، ودين الحرية والإخاء والمساواة . .

ولما حكم الله بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله » بترك معاصيه « وكونوا مع الصادقين » أى مع النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم أجمعين فى الغزوات ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين فى البيوت ، وقيل : كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة ، وقيل (مع) بمعنى (من) أى وكونوا من الصادقين .. وفى الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ، ويدل عليه أيضا أشياء كثيرة منها ما روى عن بن مسعود أنه قال : عليكم بالصدق فانه يقرب إلى البر والبر يقرب إلى الجنة ، وإن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يقرب إلى الفجور والفجور يقرب إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ألا ترى أنه يقال : صدقت وبررت وكذبت وفجرت . . ومنها ما روى أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: أريد أن أؤمن بك إلا أنى أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب ، والناس يقولون : إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لى على تركها فإن قنعت منى بتركى واحدة منها ، فقال صلى الله عليه وسلم : أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم ، فلما خرج من عند النبى صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال : إن شربت وسألنى النبى صلى الله عليه وسلم وكذبت فقد نقضت العهد ، وإن صدقت أقام على الحد فتركها ، ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا فى السرقة ، فعاد إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما فعلت ، لما

منعتنى عن الكذب انسدت أبواب المعاصى على .. ومنها ما قيل فى قوله تعالى حكاية عن إبليس : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، لأن إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء ، لأنه لولم يذكره لصار كاذبا فى ادعاء إغواء الكل، فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الإستثناء ، وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف منه إبليس لعنه الله تعالى فالمسلم أولى أن يستنكف منه . .
ومنها قول ابن مسعود : الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولأن لا يعد أحدكم أخاه خير له من أن يعده ثم لا ينجز له .. اقرأوا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين « ما كان » أى ما صح وما يبقى بوجه من الوجوه « لأهل المدينة » أى دار الهجرة ومعدن النصرة « ومن حولهم » أى فى جميع نواحى المدينة الشريفة « من الأعراب » أى سكان البوادى ، وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، وقيل : عام فى كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى « أن يتخلفوا عن رسول الله » أى عن السير معه إلى المعركة وقوله تعالى « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » أى بأن يصونوها عما رضيه لنفسه عليه الصلاة والسلام من الشدائد . . « ذلك » أى النهى عن التخلف « بأنهم » أى بسبب أنهم « لا يصيبهم ظمأ » أى عطش « ولا نصب » أى تعب « ولا مخمصة » أى مجاعة « فى سبيل الله » أى فى طريق دينه « ولا يطأون » أى يدوسون موطئاً مصدر وطأ أى مكان وطء « يغيظ » أى يغضب الكفار أى وطؤهم له بأرجلهم ودوابهم « ولا ينالون من عدو نيلا » أى قتلا أو أسرا أو غنيمة أو هزيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيراً « إلا كتب لهم به » أى بذلك « عمل صالح » أى ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » أى لا يترك ثوابهم ، ولم يقل الله عز وجل : لا يضيع أجرهم ، تنبيها على أن الجهاد إحسان. وفى هذه الآية دلالة على أن من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة له عند الله تعالى ، وكذا القول فى طرف المعصية فان حركة العاصى كلها سيئات. فما أعظم بركة الطاعة وما أكبر ذل المعصية ، إلا أن يغفرها الله تعالى . وعن

أبي عيسى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله تعالى على النار « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة « ولا يقطعون » أى يجاوزون « واديا » أى أرضا فى سيرهم مقبلين أومدبرين « إلا كتب لهم » ذلك من الإنفاق وقطع الوادى « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » أى يجزيهم الله جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب . . هذا والوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل ، وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الأرض ، يقولون : لا تصل فى واد غير واديك ، وفى الآية دليل على فضل الجهاد والإنفاق ، ويدل عليه أشياء : منها ما روى عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه فى سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة . ومنها ما روى عن زيد ابن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومنها ما روى عن سهل ابن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ومنها ما روى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أفضل ؟ ، قال : مؤمن مجاهد بنفسه فى سبيل الله ، قال : ثم أى ؟ قال : ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله تعالى .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثامن من سورة التوبة ، وقد تضمن من الأصول الجليلة ما يلى :

١ - بيان أهمية الجهاد فى سبيل الله ، والاستشهاد من أجل نشر دينه ؛ وذكر ما للشهداء من ثواب كريم عند الله فى الدنيا والآخرة ، والتنويه بمنزلة الشهداء وأخلاقهم الفاضلة الكريمة التى هى سر إقبالهم على الاستشهاد فى سبيل الله . .

٢ - النهى عن استغفار الرسول والمؤمنين للمشركين ولو كان هؤلاء

المشركون أولى قربى ، فالشرك مع وجود الرسالة لا شبهة فى أن صاحبه من أصحاب السعير .. ثم دفع الشبهة حول هذا المبدأ بما يمكن أن يعترض به من استغفار إبراهيم لأبيه .

٣ — الله عز وجل برسالات الرسل يبين للناس كل شيء حتى لا يضلوا بعد إذ هداهم بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء ، والله عز وجل هو القادر على هداية الضالين ، وبعثة الأنبياء والمرسلين ، فله ملك السموات والأرض ، وهو الذى يحيي من يشاء بهدايته ، ويميت من يشاء بإضلاله .

٤ — بيان فضل المهاجرين والأنصار الذين وقفوا مع الرسول فى الشدة ، واتبعوه فى ساعة العسرة ، ورضاء الله عنهم وتوبته عليهم .

٥ — إعلان توبة الله عز وجل على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ..

٦ — بيان أنه لا يصح لمؤمن ولو كان ضعيف الإيمان أن يتخلف عن شهود المعارك والغزوات ، ولا أن يعتذر عن حضور معركة مع رسول الله ، ولا أن يرغب بنفسه عن خاتم الأنبياء ... لأن كل شدة تنالهم ، وكل نصب يلحق بهم ، فلهم عليه الثواب العميم ، وكل مال ينفقونه ، أو واد يقطعونه ، فلهم به الخير والنعيم ورضاء الله ، والجزاء الحسن الكريم ..

الربع التاسع من سورة التوبة

١٢٢ — وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ .

فى هذه الآية الكريمة تقرير لأصل كبير من أصول الإسلام الضخمة ، وقواعده الجليلة فى بناء الحضارة ، وفى النهوض بالبشرية ، وفى خدمة المجتمع

الإسلامى ، ذلكم هو العناية بالعلم والتعليم ، وبنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة ، وجعل طلب العلم فرض كفاية على المسلمين ، وحث المسلمين على الهجرة فى طلب العلم ، وعلى الخروج فى سبيل تحصيله ، كما فرض عليهم الخروج فى سبيل الدفاع عن الوطن الإسلامي وحمايته ، إن ترك الوطن الأصغر فى سبيل الدفاع عن الإسلام يتحقق إما بالخروج للاشتراك فى الحرب ، وإما بالخروج لطلب العلم ، ففى الاشتراك فى الحرب دفاع عن الإسلام بالسيف ، وفى طلب العلم والخروج من أجله دفاع عن الإسلام بالمنطق والحجة والعقل ..

يقول الله عز وجل . . « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » فيه احتمالان : الأول أنه كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ، والثانى أن يكون من بقية أحكام الجهاد ، فعلى الأول يقال : وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم أن لا ينفروا جميعا فإنه يخل بأمر المعاش « فلولا » أى فهلا « نفر من كل فرقة » أى قبيلة « منهم طائفة » أى جماعة ومكث الباقون « ليتفقهوا » أى ليتعلموا الفقه « فى الدين » ويتجشموا مشاق تحصيل الشريعة ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا إلى أوطانهم « ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » أى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيص الإنذار بالذكر لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغى أن يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع عن الناس وصرف وجوههم إليه ، والتبسط فى البلاد : ليدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله تعالى له طريقا إلى الجنة « لعلهم يحذرون » عقاب الله تعالى بامتثال أمره ونهيه ؛ وعلى الاحتمال الثانى يقال : إنه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأمروا بأن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد

الأكبر ، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة ، قال ابن عباس : فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم .

١٢٣ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فى هذه الآية حث للمؤمنين على قتال الكفار ، وعلى الشدة عليهم ، وعلى مقاومة تجمعاتهم ، وعلى رد مكائدهم ، وعلى التفطن لدسائسهم والعمل على محاربتها ؛ فيها أمر بالجهاد فى سبيل الله للقضاء على أعداء الإسلام وعلى خصوم الدين ، وعلى الذين يحشدون كل عزائمهم لإطفاء نور الإسلام ولصد زحفه ، ولوقف تياره المتدفق ، ولمنع هدايته أن تصل إلى عقول الناس . .

يقول الله تعالى فى هذه الآية الكريمة .. « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب ، كما أمر صلى الله عليه وسلم أولا بالإنذار ، إنذار عشيرته الأقربين ، وقد حارب رسول الله قومه ، ثم غيرهم من عرب الحجاز ، ثم غزا الشام .. وقيل : هم قريظة والنضير وفدك وخيبر ، وقيل : الروم لأنهم كانوا يسكنون الشام ، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ؛ وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم .. « وليجدوا فيكم غلظة » أى شدة وصبرا على القتال ، والغلظة : ضد الرقة أى أغلظوا عليهم « واعلموا أن الله مع المتقين » بالعون والنصر والحراسة والتأييد ، وهو معهم بالإكرام والتسديد ، وهو معهم برضائه ورحمته . وبمغفرته ومثوبته ؛ وهو معهم بجلاله وعظمته وقوته ومعونته ، إن الله مع المتقين فى كل شدة ، وفى كل محنة ، وفى كل بلاء ، بل فى الشدة والرخاء على السواء .

١٢٤ — وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

١٢٥ — وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ .

١٢٦ — أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ .

١٢٧ — وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة يبين الله عز وجل أثر القرآن فى قلوب المسلمين، وأثر هدايته فى نفوس المؤمنين ، إذا أنزلت سورة من سور القرآن ، فمنهم من تزيده إيمانا بما تحتوى عليه من حكم وآداب ، ومن شرائع وتوجيهات ، ومن بيان لسبب رضاء الله على العبد ، وللطريق الموصل إلى رضائه الكريم ، وهؤلاء هم المؤمنون حق الإيمان ، الذين يستبشرون برحمة الله ورضوانه ؛ ومنهم من تزيده ضلالا وطغيانا وكفرا وشركا وإلحادا ، وعدم اعتبار بآيات الله ، ولا إيمان بشريعته ، وإن منظر هؤلاء وسور القرآن تنزل من السماء على خاتم الأنبياء ، لمنظر عجيب فريد غريب ينظر بعضهم إلى بعض فى تعجب وحسرة وخيبة أمل ، ومحاولة للهرب والفرار من مجلس الرسول ، ورغبة فى التسلل، حتى لا يجلسوا فى مجلس لا تطمئن له قلوبهم ولا تستريح له أفئدتهم ، ولا يسمعون فيه إلا كل ما يكرهون ..

يقول الله عز وجل .. « وإذا ما أنزلت سورة » من القرآن « فمنهم » أى المنافقين « من يقول » لأصحابه إنكارا واستهزاء بالمؤمنين « أيكم زادته هذه » السورة « إيمانا » بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة ومن الإيمان بها ، ولما فيها من أسباب تدعو إلى إيمانهم « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم

يستبشرون ، أى يفرحون بنزولها ، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم « وأما الذين فى قلوبهم مرض » أى شك ونفاق ، سمى الشك فى الدين مرضا لأنه فساد فى القلب يحتاج إلى علاج ، كالمرض فى البدن إذا حصل يحتاج إلى علاج « فزادتهم » أى السورة أى نزولها « رجسا إلى رجسهم » أى كفرا بها مضموما إلى الكفر بغيرها « وماتوا » أى مات هؤلاء المنافقون « وهم كافرون » أى وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : فى هذه الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وكان على رضى الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول : تعالوا حتى نزداد إيمانا « أولا يرون » قرأ حمزة بالتاء أى أيها المؤمنون وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أى المنافقون « أنهم يفتنون » أى يبتلون « فى كل عام مرة أو مرتين » بالأمراض والقحط والحرب « ثم لا يتوبون » إلى الله تعالى من نفاقهم ونقض عهودهم « ولا هم يذكرون » أى ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده « وإذا ما أنزلت سورة » فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ، وقرأها صلى الله عليه وسلم « نظر بعضهم إلى بعض » أى يتغامزون بالعيون إنكارا وسخرية ، أو غيظا لما فيها من إظهار عيوبهم ، ويريدون الهرب يقولون : « هل يراكم من أحد » أى من المؤمنين إذا قمتم ، فإن لم يرهم أحد قاموا وخرجوا من المسجد ، وإن علموا أن أحدا يراهم ثبتوا على تلك الحالة ، « ثم انصرفوا » على كفرهم ونفاقهم ، وقيل : انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها ما يكرهون « صرف الله قلوبهم » أى عن الهدى ، وهذه الجملة تحتمل الإخبار والدعاء ، ذلك « بأنهم » أى بسبب أنهم « قوم لا يفقهون » أى لسوء فهمهم وعدم تدبرهم ..

١٢٨ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ..

١٢٩ — فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

فى هاتين الآيتين تبشير للعرب برسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعث لهم على الفرح والطمأنينة ، وعلى الرضاء الروحى ، وعلى البشرى بهذه الرسالة ، التى تعد فخرا للأمة العربية ومجدا وسبب سعادة .. فلقد بعث الله إليهم رسولا من أنفسهم ، عربيا مثلهم ، يتكلم بلغتهم ، ويشعر بشعورهم ، ويحس إحساسهم ، ويتألم لما يتألمون له ، ويفرح بما هم به يفرحون ، يحزنه كل مايحزنهم ، ويسوؤه كل مايسوؤهم ، وهو شديد الرغبة فى كل مايؤدى إلى خيرهم ومنفعتهم ، وتحقيق المصلحة لهم ، بل هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، عظيم العطف والحنان والرعاية على المسلمين ، جاء العرب رسول منهم ، ونزل عليه كتاب هو معجزة العصور ، وآية الدهور ، وأوحى إليه بشريعة هى خلاصة حلم الأجيال ، وهى الدواء لعلل الإنسانية وأمراضها ، وهى سبب الخير والتقدم لكل مسلم ، أفلا يؤمنون بها ، ويخلصون لها ، ويحيون من أجلها ؟ فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .. نعم لقد جاء العرب رسول من عند الله ، جاءهم محمد بالهدى والنور ، وبالكتاب المنير ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالشريعة السمحة ، وبالحنيفية البيضاء ، وبناموس التقدم والارتقاء ، وبدستور النهوض والعزة والمجد والكبرياء ، جاءهم الحق ، وجاءتهم الهداية ، جاءتهم رسالته ، أظلتهم هدايته ، أدركهم زمانه ، أظلهم فرقانه ، أتتهم معجزاته ، وأتتهم الحظوظ الطيبة التى لا أطيب منها لمن نزلت عليهم آياته .. إنه لإعلان سماوى للعرب ، وبيان إلهى لأهل مكة والمدينة والطائف والحجاز ، بل لسكان جزيرة العرب ، بأن يكونوا من أنصار الرسالة وأعوانها والمدافعين عنها ، لا أن يكونوا من خصومها ومقاوميها والمحاربين لها .. والعرب كانوا ولازالوا أول الناس الذين يجب أن يؤمنوا إيمانا صحيحا برسالة الإسلام ، وبشريعة محمد خاتم الأنبياء ، وبالقرآن

الذى نزل عليه ، وبالكتاب الحكيم الذى أرسل إليه .. يقول الله عز وجل : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » أى من جنسكم عربى مثلكم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس قبيلة من العرب إلا وولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيها نسب ، وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام ، وعن الطبرانى قال صلى الله عليه وسلم : إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، وعن ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماولدنى من سفاح أهل الجاهلية شىء ماولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام ، وعن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم « عزيز عليه » أى شديد شاق « ماعنتم » أى عنتكم ولقاؤكم المكروه ، وقيل إن المعنى : يشق عليه ضلالتكم « حريص عليكم » أى أن تهتدوا أو على إيصال الخير إليكم « بالمؤمنين » أى منكم ومن غيركم « رؤوف » أى شديد الرحمة بالمطيعين « رحيم » بالمذنبين .. وقدم الأبلغ وهو الرؤوف للمبالغة فى تصوير المعنى ، وعن الحسن بن الفضل : لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فسماه رؤوفا رحيما ، وقال تعالى : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » « فإن تولوا » أى فإن أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب « فقل حسبى الله » أى الله يكفينى وينصرنى عليكم . وإنما كان كافيا لأنه « لا إله إلا هو » فلا مكافىء له ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه « عليه توكلت » أى فلا أرجو إلا إياه ولا أخاف إلا منه ، لأن أمره نافذ فى كل شىء « وهو رب العرش » أى الكرسى « العظيم » وخصه بالذكر تشريفا له ولأنه من أعظم مخلوقاته سبحانه وتعالى ، وروى عن أبى بن كعب قال : آخر مانزل من القرآن هاتان الآيتان : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ، وقال : هما أحدث الآيات بالله عهدا .

نظرة عامة فى سورة التوبة

(١)

سورة التوبة هى السورة التاسعة من سور القرآن الكريم ، وهى إحدى السور المدنية ، والسورة كلها حديث عن الشرك والمشركين ، والنفاق والمنافقين ، وهي براءة من الشرك وأهله ، والنفاق وذويه ، ودعوة إلى إعلان الحرب على الوثنية فى جزيرة العرب ، وإلى تطهيرها تطهيراً كاملا شاملا من أدران الإشراك بالله ، ومن ثم لم تصدرهذه السورة بالبسملة ، لأن فى البسملة تذكيراً بالرحمة تتنافى مع التهديد والوعيد الذى اشتملت عليه السورة .

وقد سميت السورة باسم « براءة » وهو اسم لا يبلغ مبلغه فى القوة اسم « سورة الشرك » ، أو « سورة المشركين » ، أو « سورة المنافقين » مثلا .

(٢)

وقد احتوت السورة على كثير من الأصول الجليلة ، التى يمكن إيجازها فيما يلى :

ا — فى الربع الأول : اشتمل هذا الربع الكريم على إعلان الحرب على الشرك والوثنية فى جزيرة العرب ، وإعلان نقض العهود المعطاة للمشركين فيها ، فى نهاية أربعة أشهر ، لا يصير لهم بعدها إل ولا ذمة ، ثم طلب الله من رسوله الكريم أن يعلن فى الناس يوم الحج الأكبر براءة الله ورسوله من المشركين ، ووجوب إسلام كل مشرك ، وإلا عرض نفسه للعذاب والإثم الشديد ، واستثنى الله عز وجل من بينهم وبين الرسول عهد من المشركين ممن لم ينقضوا العهد ، ولم يخونوا الميثاق ، ولم ينضموا لأعداء الرسالة ، فإن هؤلاء يعاملون بمقتضى ما معهم من عهود ، حتى تنتهى المدة التى لهم ، فإذا انسلخت المدة المقررة لهم وجب قتال كل مشرك لا يؤمن بالله ورسوله وبالإسلام .

شريعة خاتم النبين ، فإن تابوا وأنابوا ودخلوا فى الإسلام ، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلا سبيل للسلمين عليهم ، ويفصل القرآن الكريم تفصيلا كثيراً فى هـذا المقام ، فيبين كيف يعامل المشرك الذى يستجير بمسلم ، وأنه يجب أن يجار حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه . . . ويبين القرآن الكريم أن المشركين لاعهد لهم ، وأنه يجب أن تراعى العهود المعقودة بين المسلمين وقريش، وبين المسلمين وغيرهم ممن عاهدهم الرسول عند المسجد الحرام ، بشرط أن يكون أصحاب هـذه العهود ممن لم يؤلبوا على الإسلام ورسوله ، وممن وفوا بعهودهم والتزاماتهم للمسلمين . . ويحذر الله عز وجل من المشركين ومكرهم وكيدهم للإسلام ولرسوله ، ويبين أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وأن ما يبدو منهم فى بعض الأحيان من لين إنما هو نفاق لا يصح أن يؤبه له ، وقد آثر هؤلاء المشركون الدنيا على الآخرة ، والمال على الدين ، وصدوا عن سبيل الله ، وهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وهم المعتدون على حرية المسلمين وعلى الحق وعلى الله ورسوله ، وأنه لا سلام بين الإسلام والشرك إلا أن يؤمن المشركون ويتوبوا وينيبوا ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة. وإن نكث هؤلاء المشركون العهود والمواثيق ، وأخذوا يقاومون رسالة الإسلام ورسوله الكريم ، فهم حينئذ أحرياء بإعلان الحرب عليهم ، وبقتالهم حتى ينتهوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى الله ، وهم أحرياء بإعلان الحرب عليهم لأنهم نكثوا العهود ، ونقضوا الأيمان والمواثيق ، وهموا بإخراج الرسول من مكة ، ولأنهم هم الذين بدأوا بإعلان الحرب على المسلمين ، وأن المسلمين لا يصح أن يخشوهم فالله أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين . . . ووعد الله عز وجل المؤمنين بأن يخزى المشركين على أيديهم ، وأن ينصرهم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين . . وهنا ينبه الله عز وجل المسلمين إلى ضرورة التضحية فى سبيله ، وإلى أن هـذه التضحية هى وسيلة إلى التمييز بين المؤمنين الصادقين ، وبين المنافقين وضعاف الإيمان والعزيمة . . ويرد الله عز وجل رداً بليغا على المشركين الذين يتعللون بأنهم سدنة البيت الحرام وحجابه

والمعمرون له ، فيؤكد أنه ما يكون للمشركين أن يعمروا مساجد الله وهم يشهدون على أنفسهم بالكفر ، إنما يعمر مساجد الله المؤمنون الصادقون . . ومن هذا كله نجد أن هذا الربع قد احتوى على إعلان براءة الله ورسوله من الشرك والمشركين فى موضعين ، وعلى إمهال المشركين الذين بينهم وبين رسول الله عهود ومواثيق أربعة أشهر ، فإن أسلموا بعدها فهو خير لهم ، وإن أصروا على الشرك والضلال، فهم غير معجزى الله ، ولهم عذاب أليم.. وتؤكد ذلك الآية الرابعة من السورة التى لم تحدد موعدا تلغى بعده العهود والمواثيق المعقودة بين المسلمين والمشركين .

ب — وفى الربع الثانى يفرق الله عز وجل بين عمارة المسجد الحرام وبين مسائل الإيمان فعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج لا تصل إلى منزلة الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله ، فللمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله ودينه بالمال والنفس الدرجات العلى ، والفوز العظيم ، والبشريات الطيبات ، والرحمة والرضوان والجنة والنعيم المقيم الذى يخلدون فيه دائما أبداً ، وهنا يقدم الله عز وجل الجهاد فى سبيل الله بالمال على الجهاد بالنفس ، لأهمية المال فى بناء الدول وفى نصر المبادىء والعقائد الصالحة ، وفى الدفاع عن دين الله وعن المثل العليا الشريفة فى الحياة . وهنا ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم المشركين أولياء من دون الله والمؤمنين ، ويؤكد القرآن الكريم أن من كان حبه للآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والمال والتجارة أكثر من حبه لله ورسوله ، وأكثر من حبه للجهاد فى سبيل الله ، فإن له النار والعذاب الشديد ، ويذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمه عليهم ، فإن مثل هذه النعم جديرة بالشكر ، والتقدير ، ومن بين هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها عليهم نصره لهم فى بدر التى كانت حدا فاصلا بين الحق والباطل والإيمان والشرك والهدى والضلال والتوحيد والوثنية . . . ويعود القرآن الكريم إلى الحديث عن الشرك والمشركين ، فيقرر أن المشركين نجس ، وأنهم لا يصح أن يقربوا المسجد الحرام

بعد عامهم هذا ، وأن خوف المسلمين من الفقر وضعف التجارة ومن مقاطعة المشركين الاقتصادية لهم لامبرر لها ، فإن الغنى غنى الله ، وإن فضل الله عظيم، ورزقه واسع ، والله عليم حكيم .. ويدعو الله عز وجل المسلمين إلى قتال المشركين ، ويعلل الأمر بقتالهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وأنهم لايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، ويوضح أنه لامنجاة لهم من حرب المسلمين لهم ، إلا بدفع الجزية ، وبأن يعطوها للرسول عن يد وهم صاغرون . . ويبين الله عز وجل فى هذا المقام ضلال اليهود والنصارى وشركهم ، بقول اليهود : عزير ابن الله ، وبقول النصارى : المسيح عيسى بن مريم ابن الله ، وهم إنما يقولون ذلك قولا لاحقيقة له ، قولا كأنه صادر من أفواههم ، لأن قلوبهم تعتقد أن هذا القول خلاف الحق ، وأن نصوص كتبهم السماوية على خلاف ذلك، وهم يضاهون بذلك قول الكافرين والمشركين ، ولكن لا منجاة لهم من العذاب الأليم ، إنهم اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، واتخذوا المسيح ابن مريم ابنا لله ، وماأمروا فى كتابهم المقدس إلا بعبادة الله وحده لا شريك له . . إنهم يريدون إطفاء نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون والمشركون .. ويعد الله عز وجل رسوله الكريم بالنصر وبإظهار دينه ، على الرغم من مقاومة المشركين واضطهادهم .

حـ — وفى الربع الثالث : يذكر الله عز وجل ضلال الكثيرين من الأحبار والرهبان وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وصدهم عن سبيل الله .. وينذر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم، حيث يحمى عليها فى نار جهنم فى اليوم الآخر ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون . . وقد كانت هذه الآية الكريمة هى التى استشهد بها أبو ذر فى تأييد مذهبه الاشتراكى الإسلامى ، الذى دعا به إلى وجوب قسمة الأموال بين المسلمين، وإلى حرمة كنزها أو ادخار أكثر مازاد على قدر الحاجة . وجمهور المسلمين

على أن الآية منصبة على الذين لايخرجون زكاة أموالهم ، فهمهم جمع المال والشح به وعدم إنفاق شيء منه فى سبيل الله . ويعلن الله عز وجل فى هذا الربع إلغاء النسيء ، ويدعو مرة أخرى إلى وجوب قتال المشركين ، ويحذر من التثاقل والإبطاء والتسويف فى تلبية أمر الله ورسوله بقتال المشركين ، ويحذر المسلمين وينذرهم عذابا أليما إن سوفوا وأهملوا وأبطأوا فى تلبية أمر الله ، ويؤكد أنه عز وجل قادر على نصر الرسول وإعزاز رسالته كما نصره فى هجرته صلى الله عليه وسلم ، هذه الهجرة التى أعز الله بها الإسلام والمسلمين وجعل بها كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .. ويؤكد الله عز وجل الأمر بقتال المشركين ويحذرهم من أن تفتنهم الأموال وعرض الحياة الدنيا عن الجهاد فى سبيل الله . ويذكر الله عز وجل بعض صفات المنافقين والمترددين التى يتعللون بها فى ترك القتال والجهاد فى سبيل الله ، ويرد عليهم ردا بليغا ، ويؤكد الله عز وجل أن الذين يستأذنون من الرسول فى التخلف عن الغزو إنما هم الكافرون والمنافقون والمترددون والحائرون ، ويعاتب الرسول على إذنه لمن أذن لهم من المسلمين بالتخلف عن الغزو .

د — وفى الربع الرابع يؤكد الله عز وجل ضلال هؤلاء المترددين الحائرين المتخلفين عن الغزو ، ويذكر جانباً من أعذارهم ويرد عليهم رداً بليغاً قوياً ، ويبين الله عز وجل أنهم شر ووبال على أنفسهم ، وأن ما يفعلونه من خير لن يغنى عنهم من الله شيئا ، وأن صدقاتهم لن يقبلها الله منهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وعاشوا على النفاق والكفر ، وهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأن أموالهم وأولادهم لن تغنى عنهم من الله شيئا كذلك .. ويقرن الله عز وجل بهم فى نفاقهم جماعة أخرى من المنافقين عابوا الرسول ولمزوه فى تقسيم الصدقات ، وقالوا فيما صنعه : إنما هو جور لا عدل فيه ، وهم بذلك يحكمون موازينهم الجائرة ، ويجعلون المصالح الشخصية أساسا لحكمهم فى المسائل العامة ، فتعسا لهم ، وبئس ما كانوا يصنعون .

٥ — وفى الربع الخامس : يذكر الله عز وجل مصارف الزكاة تقريراً لأحقية الرسول فى صنع ما صنع ، وتبرئة له من تهمة الجور، ورداً على المنافقين.. ويعود القرآن الكريم إلى الدفاع عن الرسول ، وإلى الرد على الذين رموه بأنه أذن .. وهنا يصف القرآن الكريم رسول الله بأنه أذن خير وأنه يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا . . ويؤكد عظم جرم هؤلاء فيقول عنهم : والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .. ويستمر القرآن الكريم فى تحذير هؤلاء المنافقين وفى الكشف عن قناعهم ، وفى الرد على افتراءاتهم وتصوير حالهم فى خوفهم من زوال الآيات ، وفى اعتذاراتهم الباطلة . . ويصور القرآن الكريم المنافقين فى صورة واضحة كل الوضوح لا لبس فيها ولا خفاء ، فيصفهم بأن بعضهم من بعض : أخلاقاً وأهدافاً ووسائل ، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويبخلون بما آتاهم الله من فضله ، وبأنهم نسوا الله فنسيهم ، وأخيرا يصفهم بصفة جامعة ، هى أنهم هم الفاسقون ، ويبين أن جزاءهم النار ، ومصيرهم إلى جهنم وبئس القرار ، ويحذرهم من مصير الأمم الماضية ، التى هلكت بذنوبها ، ويقر أن هؤلاء المعاصرين قد صنعوا مثل ما صنعته الأمم البائدة من الشرك والوثنية ، وأنهم صاروا أهلا لغضب الله وعذابه . وقصة نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، أمثلة ظاهرة لهلاك الأمم ، حين ترضى بالشرك وتحارب رسالات السماء ؛ وفى مقابل ذلك يرسم القرآن صورة زاهية مشرقة مشرقة للمؤمنين وأخلاقهم وصفاتهم ، فيصفهم بأن بعضهم أولياء بعض : آدابا وأخلاقا وحكمة وتدينا وإرضاء لله والرسول ، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وبأنهم أهل لرحمة الله ورضوانه ، ولجنانه ونعيمه . . ويعود إلى تقرير ضرورة جهاد الكافرين والمنافقين وحربهم حربا لا هوادة فيها ، وإلى وجوب الغلظة عليهم ، فمأواهم جهنم وبئس المصير مصيرهم ، ويذكر هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، ويحذرهم منذرا لهم بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

و — وفى الربع السادس يصف بخل طائفة من المنافقين وكذبهم وهوانهم ، ويرد على الذين يعيبون على المؤمنين فى وجوب الصدقات ، وينهى الرسول عن أن يستغفر للمنافقين ولو كانوا أولى قربى ، بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، ويحذر المتخلفين من العذاب الشديد ، ويأمر الرسول بعدم أخذهم معه فى آية معركة من المعارك ، وبعدم الصلاة على أحد منهم مات أبداً ، وبعدم القيام على قبره ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ، وما أموالهم ولا أولادهم إلا سبب عذاب لهم .. ويذكر القرآن الكريم ما دأب عليه هؤلاء المنافقون من التخلف عن رسول الله فى الغزوات ، ومن الهرب من الاشتراك فى المعارك ، ومن الاعتذار بالأعذار الواهنة ، والاحتجاج بالأسباب الواهية ، وشتان بينهم وبين المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، ممن لهم الخيرات ، وممن سلكوا طريق الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة ، ويوضح القرآن الكريم الفرق بين المنافقين وبين المؤمنين ، وهو فرق يبدو واضحا جليا ؛ فأصحاب الأعذار الحقيقية من المؤمنين حقا يطلبون الاشتراك فى المعارك والغزوات ، والقادرون من المنافقين يقعدون متخلفين عن رسول الله ، وحبذا لو كان لهم عذر فى القعود ، إنما يعذر المرضى والضعفاء ، والذين لا يجدون الآلات التى يشتركون بها فى الحرب ، ممن يملكهم الحزن ، وتفيض من أعينهم الدموع ، لعدم وجود الوسائل التى تمكنهم من الاشتراك فى الحرب بجانب إخوانهم المؤمنين .

ز — وفى الربع السابع من سورة التوبة يذكر الله عز وجل مسئولية المتخلفين عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قادرون أغنياء ، فمثل هؤلاء الذين يرضون لأنفسهم بالقعود عن نصرة الله ورسوله ودينه القويم لا بد أن تكون قلوبهم قد طمس الله عليها ، وطبع على أفئدتهم ، فهم لا يعلمون شيئاً ، وهم لا يعقلون مسئولية ، وهم لا يدرون أنهم بموقفهم هذا يجلبون لأنفسهم الخزى والعار والعذاب الأليم ، ويحاربون الله ورسوله ،

ويشاقون المؤمنين ويعرضونهم للمواقف الحرجة ؛ إنهم قد تخلفوا قادرين ، ومع ذلك يعتذرون كذبا وزورا بشتى الأعذار الباطلة ، ولا يدرون أن الله ورسوله لا يمكن أن يخدعا بالكذب من القول ، والزور من المعاذير ، وهب أن أعذارهم نفعتهم فى الدنيا ، فهل تنفعهم كذلك فى الآخرة ؟ وهل تنطلى معاذيرهم يوم القيامة على الله جل جلاله ، إن حسابهم فى الآخرة بيد الله عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم بما كانوا يعملون . . إنهم مهما أقسموا وألحوا فى طلب المغفرة وقبول عذرهم فلا يمكن لرسول الله أن يقبل عذر منافق ، ولا أن يستجيب لطلب كافر أو فاسق ، إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . إنهم يحلفون للرسول ليرضى عنهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، ويعود القرآن الكريم فيتحدث عن بعض الأعراب ، وكفرهم ونفاقهم وجهلهم ، وقلبهم لحقائق الأمور ، واعتقادهم أن الإنفاق فى سبيل الله غرم كبير ، وتربصهم الدوائر بالإسلام والمسلمين ، والله سميع لأقوالهم ونفاقهم ، عليم ببواطن قلوبهم ، وبدخائل نفوسهم . . إنهم عكس جماعات أخرى من الأعراب آمنوا بالله واليوم الآخر ، واتخذوا ما أنفقوا قربات لهم عند الله لا يرجون إلا وجهه الكريم ، وثوابه العظيم ، فأولئك لهم الرحمة والمثوبة والجنة ونعيمها المقيم .

وكما أشاد الله عز وجل بهذه الطبقة من الأعراب أشاد بطبقة أخرى ؛ هى أثبت قدما فى الخير ، وأهدى طريقا إلى الجنة ، طبقة السابقين الأولين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ممن استحقوا رضاء الله ، وممن جزاهم الله أكرم الجزاء ، فرضوا عنه ، وممن كتب الله لهم الجنة والرحمة والخير والفوز العظيم . . ويقص الله عز وجل قصة جماعة من الأعراب كانوا نازلين حول المدينة ، وبعض أهل المدينة ، ممن مردوا على النفاق ، والله عز وجل هو العليم بأسرارهم ، والخبير بدخائل نفوسهم ، وسوف يرجعون إليه ، فينبئهم بما عملوا ، ويعذبهم عذابا عظيما فى الآخرة ، كما عذبهم فى الدنيا مرتين : مرة بكشف أستارهم ، ومرة بانتصار الإسلام وخزيهم وهزيمتهم .

أما الذين تخلفوا عن الغزو وتابوا وأنابوا إلى الله ، فالله عز وجل بيده التوبة عليهم ، وبيده وحده أمرهم ، والله يقبل التوبة عن عباده ، والله هو التواب الرحيم ، ويطالب الله عز وجل رسوله أن يأخذ منهم صدقة يطهرهم بها ويزكيهم ويجعلهم أهلا لقبول الله عز وجل توبتهم .

ويطالبهم الله عز وجل بالعمل وباستمرار البذل والتضحية والجهاد ، وليعوضوا أنفسهم ما فاتهم ، ليرضى الله عنهم ورسوله ، فى الأولى والآخرة يوم يردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم الله بما كانوا يعملون .

ويذكر الله عز وجل كعب بن مالك وطبقته ، ممن أمرهم كان معلقا بأمر الله ، إن يشأ يعذبهم ، وإن يشأ قبل توبتهم ، والله عليم حكيم . . ويندد الله عز وجل بأصحاب مسجد الضرار من المنافقين والمتربصين بالإسلام والرسول ، منوها بشأن أصحاب مسجد قباء ـ مسجد الرسول ـ الذين أسس مسجدهم على التقوى وعلى رضوان من الله . .

ح — وفى الربع الثامن : ينوه الله عز وجل بالشهداء الذين باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل الله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى طلب رحمته ومثوبته ، إن الله وعد الشهداء فى سبيله فى جميع الكتب السماوية المقدسة بالجنة والرحمة والمغفرة والرضوان ، ويصفهم الله عز وجل بأجل الأوصاف وأشرفها ، ويضع فى طبقتهم طبقة أخرى من المؤمنين ، ذكرهم الله كذلك بأجمل النعوت وأروع الصفات : من التوبة والعبادة والحمد والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على حدود الله ، إن لهم البشرى .. والبشرى للمؤمنين ، يستحقونها كما استحقها الشهداء ، جماعتان أو طبقتان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه : الشهداء ، وهؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين بلغوا منزلة الشهداء عند الله . ويعود القرآن الكريم إلى المشركين ، فينهى الله عز وجل رسوله عن الاستغفار لهم ، ولو كانوا أولى قربى ، ويقطع الشبهة التى ترد باستغفار إبراهيم لأبيه .. ويعلن الله عز وجل توبته على المؤمنين من

المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوا الرسول فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ؛ ويعلن كذلك توبته على كعب بن مالك وزميليه ، هؤلاء الثلاثة الذى تخلفوا عن الغزو ، دون ما عذر وطلبوا التوبة من الله ورسوله فانصرف عنهم رسول الله ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، فتاب الله عليهم والله هو التواب الرحيم .. ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى تقوى الله ، وإلى طاعته ، ليحشروا أنفسهم مع الصادقين المخلصين من عباده . ويقرر القرآن الكريم أخيرا حقيقة هى من الوضوح بمكان كبير ، وهى أنه لايصح لأهل المدينة ومن حولها ومجاورى رسول الله أن يتخلفوا عن رسول الله فى شهود المعارك ، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وهم يعلمون أنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا جوع ولا مشقة فى سبيل الله ، إلا ولهم عليها الجزاء الكريم من الله ، ولهم بها الثواب العظيم من خالق الخلق الرحمن الرحيم . . إنهم لا ينفقون نفقة صغيرة أو كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كان ماعملوه معدودا فى صحائف حسناتهم .

ط ـ وفى الربع التاسع : يحث الله عز وجل على طلب العلم ، ويحض عليه ، ويدعو إليه ، والعلم فريضة مقدسة فى الإسلام ، وطلبه واجب محتوم ، لأن الإسلام دين الثقافة والتهذيب والعلم والمعرفة ، والقرآن الكريم يكثر من الدعوة إلى طلب العلم وتعلمه ، والعلم فى الإسلام هدفه إنسانى ، وليس من أهدافه جمع المال ولا الربح ولا الجاه ، وأعظم ماوصف به العلماء هو وصف القرآن الكريم لهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .. ثم يأمر الله عز وجل بقتال الكفار والمشركين ، وبالشدة عليهم ، وينعى على المنافقين نفاقهم ، ويصور مظاهر هذا النفاق ، ويحذر منه .. ثم يخاطبهم الله عز وجل بأنه شرفهم إذ اختار رسوله المصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ، ووصفه بصفات كريمة : منها أنه عربى ، وأنه يشق عليه عنت المسلمين ووقوعهم فى المشقة ،

وأنه حريص على كل مايعود بالخير عليهم ، وأنه رؤوف بهم ، رحيم لهم . فمن آمن به فله الفوز ، ومن تولى منه ، فالرسول غنى عنه ، فحسبه الله ، لا إله إلا هو ، عليه يتوكل المتوكلون ، وهو القادر على كل شىء ، وهو رب العرش العظيم .

(٣)

وجملة القول أن سورة التوبة هو السورة التى أعلن فيها الله عز وجل وجوب انتهاء الشرك من الجزيرة العربية ، ووجوب حرب المشركين وقتالهم إن لم يؤمنوا أو يدفعوا الجزية ، وفيها فضح الله المنافقين ونياتهم وأسرارهم وكشف عن أعمالهم ، وسوآتهم ، وتحدث عن الذين جاهدوا مع رسول الله ومنزلتهم فى الدنيا والآخرة ، وعن الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله وجريمتهم ، وحارب النفاق حربا شديدة ، تعادل حربه للشرك . . وقد كانت الأنفال التى سبقت هذه السورة كذلك حديثا عن الشرك والمشركين وعن الجهاد والمجاهدين ، وعن نصر الله لرسوله فى بدر ، وعن الغنائم وطريق قسمتها ، وعن الدعوة إلى الإسلام وأصوله ، من تحمل المسئولية وأداء الأمانة ، وقد قرر الله عز وجل فى القرآن الكريم حرص الإسلام على السلام ودعوته إليه، وأبان للرسول وللمسلمين وسائل النصر وأسبابه ، وأمرهم بالاستعداد العسكرى لنزال الأعداء والقضاء عليهم ؛ ثم جاءت سورة التوبة تعلن هزيمة الشرك والمشركين ، ووجوب القضاء على الوثنية فى جزيرة العرب ، وتندد بالمشركين ، وتدعو الرسول والمؤمنين إلى قتالهم ، وتذكر الناس بنصر الله للرسول فى بدر ، وتبين مطاعن المنافقين على رسول الله ، وذمهم له بأنه أذن ، وبالجور فى قسمة الصدقات ، ثم تبين مصارف الزكاة ، وتفضح أعمال المنافقين وأسرارهم ، وتكشف مكنون أنفسهم ، ودخيلة جوانحهم ، وتتحدث عن غزوة تبوك ، وتنوه بشأن الذين نهضوا إليها مع رسول الله ، وتذم الذين تخلفوا عن الاشتراك فيها ، وتبين منزلة الشهداء ومكانتهم عند الله ، وتوبة

الله على التائبين من المتخلفين ، ومنزلة السابقين الأولين إلى الإسلام ، وتدعو إلى العلم وتحث عليه وتجعله فريضة مقدسة .. وفى ختام السورة يجىء هذا الإعلان السماوى الكريم إلى العرب برسالة محمد العربى ، وبفضله وجليل أخلاقه وغيرته على أمته ، ويدعو الله عز وجل إلى الإيمان به ، وينذر المعرضين والكافرين بانتقامه الشديد .

إن سورتى الأنفال والتوبة هما دعامتا النظام العسكرى فى الإسلام ، وفيها تقرير لأصول كثيرة من أصول الإسلام ، وعمل جاد حازم على تكوين المجتمع الإسلامى ، وشرح لأسباب هذا التكوين : من القوة والاستعداد العسكرى ، والحرص على أداء المسئولية ، والمحافظة على الأمانة ، ومن العلم والطاعة والإيمان الصحيح ، والإخلاص لله ومن العلم والدعوة إليه ، ومن الحث على أداء الزكاة ، ومن محاربة النفاق والمنافقين ، وشرح أضرار النفاق وآثاره على المجتمع الإسلامى . . إلى غير ذلك من الأصول الجليلة ، التى دعا إليها القرآن الكريم وشريعته المطهرة .

(١٠)

ســـورة يونس

تمهيد

جاء ذكر يونس بعد سورة التوبة ، لأن سورة التوبة قد ختمت بترغيب العرب فى الإيمان برسول جاءهم من أنفسهم ، وبدئت سورة يونس بإنكار تعجبهم من أن يوحى إلى رجل منهم ، وأن يصطفى رسول من بينهم .

وقد نزلت سورة يونس بعد سورة الأعراف ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة ، وهى السورة العاشرة من سور القرآن الكريم ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية . وفى السورة إثبات لنزول القرآن الكريم من الله عز وجل ، وتحد لهم بالقرآن ، ودعوة لهم إلى تصديقه والإيمان به عن طريق الترغيب والترهيب .. وسورة يونس مكية إلا هذه الآيات الكريمة التى هى آيات مدنية على ما يروى ، وهى :

١ — « ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين » الآية ٤٠ .

٢ — « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » الآية ٩٤ :

٣ — « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكونن من الخاسرين » الآية ٩٥

٤ — « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » الآية ٩٦ .

وقد سميت السورة باسم يونس عليه السلام ، وهو أحد الأنبياء الذين قص القرآن الكريم قصتهم . ويذكر العهد المقدس قصة يونس ، وله فى العهد القديم سفر سمى باسمه هو « سفر يونان » . فى الإصحاح الأول منه ما نصه : « وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاى قائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامى . فقام يونان ليهرب من وجه الرب إلى ترشيش ، فنزل إلى يافا ، ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب

معهم إلى ترشيش من وجه الرب .. ثم يذكر أن الرب أرسل ريحا شديدة إلى البحر ، وكادت السفينة تنكسر ، فطرحوا الأمتعة ، ونزل يونان إلى جوف السفينة ونام نوما ثقيلا ، وعملوا قرعة ليعرفوا سبب هذه البلية ، فوقعت القرعة على يونان ، فسألوه عن نفسه فقال : أنا عبرانى ، وأنا خائف من الرب إله السماء الذى صنع البحر والبر ؛ وعرفوا أنه هارب من وجه الرب ، فاقترح يونان عليهم أن يرموه فى البحر ليسكن ، ففعلوا فهدأ البحر ، وأرسل الرب حوتا عظيما فابتلع يونان ، فكان فى جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ وفى الإصحاح الثانى يذكر أن يونان صلى إلى ربه فى جوف الحوت ، فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر ، وفى الإصحاح الثالث يذكر أمر الرب ليونان بالذهاب إلى نينوى ، وأنه ذهب إليها وحذرهم ليرجع كل واحد منهم عن طريقه الرديئة وعن الظلم ، فتابوا وأنابوا وعفا الله عنهم . . وفى الإصحاح الرابع يذكر ندم يونان لأنه كان أنذر أهل نينوى أن تنقلب مدينتهم عليهم بعد أربعين يوما ، والآن قد عفا الله عنهم لأنه إله رؤوف رحيم ، وأنه خرج حزينا من المدينة ، وجلس شرقيها ، وصنع لنفسه ظلة ، وجلس تحتها فى الظل ، فأنبت الله شجرة يقطين فارتفعت حتى صارت فوقه كالظلة ، ثم أعد الله دودة ، فضربت اليقطينة فيبست ، فحزن يونان وطلب لنفسه الموت ، فقال الله تعالى له : الآن أنت قد اغتظت بالصواب حتى الموت من أجل اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيتها ، أفلا أشفق أنا على المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة .

وسورة يونس ترد على المنكرين لرسالة محمد ، وعلى المتعجبين من أن ينزل عليه الوحى بكتاب مبين ، وتستدل على إمكان الوحى بقدرة الله العظيم فى السماء والأرض ، وتحذر الكافرين ، وتبشر بالثواب الكريم المؤمنين الصادقين ، وتنذر الذين يصدفون عن الحق ، ويصدون عن سبيل الله ، وتؤكد السورة صدق رسالة محمد وصدق ما يتلوه من القرآن ، مؤكدة أن

هذا وحى الله إليه ، وأنه ليس فى طبع الرسول ولا فى خلقه أن يفترى على الله ، فالمفترون على الله وفى مقام دعوى النبوة والرسالة هم الظالمون ، وتندد السورة بالمشركين ، وتنفى أن يكون رسول الله كاذبا فيما يبلغه عن ربه من القرآن ، وتؤكد صدق رسالته ، وأحقية دعوته ، وعظمة شريعته ، وتقص قصص شركهم ، وقولهم: اتخذ الله ولدا ، وسوى ذلك من أباطيلهم وأساطيرهم المفتراة . .

ثم تقص السورة قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون وملئه ـ ويؤكد القرآن الكريم صدق القرآن بدليل مادى محسوس ، هو أن أهل الكتب السماوية السابقة لا بد أن يشهدوا بصدقه ، وبأن ما تضمنه القرآن الكريم من قصص الأمم البائدة ، ومن أخبار الخليقة ، حق وصدق لا ريب فيه ، بل لابد لهم أن يشهدوا ببشارة كتبهم بمحمد وبالقرآن الكريم .

ويشير القرآن الكريم إلى قصة يونس فى الآية الثامنة والتسعين ، وهى « فلولا كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها . إلا قوم يونس ، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين » . . وتتحدث السورة بعد ذلك حديثا عاما عن الرسل والرسالات ، وعن رسالة الله الصادقة إلى محمد عليه السلام ، وتختتم السورة بدعوة الرسول إلى الصبر حتى يحكم الله بينه وبين قومه ، والله خير الحاكمين . .

ومن العجيب أن تسمى السورة باسم يونس ، وليس فيها إلا آية واحدة ورد فيها ذكره ، بينما جاء فيها ذكر نوح وقصته مع قومه فى ثلاث آيات ، وذكر موسى ورسالته وقصته فى نحو عشرين آية . . . وهذا من غرائب أسماء سور القرآن الكريم ، التى تسمى بأسماء عجيبة تلفت النظر ، وتسترعى الانتباه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة يونس

١ — الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ .

٢ — أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ .

٣ — إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

٤ — إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ .

٥ — هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

٦ — إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ .

٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ .

٨ — أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

ثمان آيات كريمة افتتح بهن سورة يونس ، السورة العاشرة من القرآن كتاب الله الكريم .. وهذه الآيات تصل هذه السورة بما قبلها بصلات قوية ، وتجعل سورة يونس امتداداً لما بينه الله عز وجل فى ختام التوبة ، ففى آخر التوبة إعلان إلى العرب برسالة محمد ووجوب الإيمان بها ، وفى مطلع هذه السورة تعجب من تعجب المشركين من أن يوحى إلى رسول من العرب برسالة من السماء . وهذه الآيات الثمان فيها تمجيد للقرآن الكريم ، وسخرية ممن يتعجبون من أن يصطفى الله من العرب رسولا يبلغهم ويبلغ الإنسانية كلها رسالة الله ، ويبشر المؤمنين برضاء الله ؛ ومن عجب أن يرمى المشركون والكافرون محمدا بالسحر لأنه يبلغ رسالة من الله إلى عباده ، وكأنهم ينكرون قدرة الله ، ومن الذى يستطيع أن يجحدها ، أفليست مظاهر قدرة الله ماثلة أمام الإنسان فى السماء والأرض ، بل إن من قدرة الله أن يكون مرجع الخلق جميعا إليه ، لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده مرة أخرى ، لينال كل إنسان جزاء عمله ، المؤمن له الجنة والنعيم ، والكافر له العذاب الأليم . . ثم من ذا الذى ينكر قدرة الله ، أليس فيما خلقه الله من الشمس وما فيها من ضياء ، والقمر وما فيه من نور ومن معرفة بالمواقيت ، ومن اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما أو اختلافهما بالزيادة والنقصان ، وبما خلق الله فى السموات والأرض ؛ أليس فى ذلك كله آيات لقوم يتقون ويتعظون ويؤمنون بالله ، أما المكذبون الكافرون والجاحدون والذين لا يرجون لقاء الله ، والذين يرضون بالحياة

الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آيات الله غافلون ، فأولئك مأواهم النار جزاء لهم بما كانوا يكسبون . . يقول الله عز وجل فى هـذه الآيات الثمان الكريمة : « الر » قال ابن عباس والضحاك : الر معناها : أنا الله أعلم وأرى، وقيل : معناها : أنا الرب لا رب غيرى . وقال سعيد بن جبير : الر وحم ونون حروف اسم الرحمن ؛ واتفقوا على أن «الر» وحده ليس آية ، واتفقوا على أن قوله تعالى : « طه » وحده آية ، والفرق : أن قوله تعالى : « الر » لا يشاكل تقاطع الآى التى بعده ، بخلاف قوله تعالى : طه . فإنه يشاكل مقاطع الآى التى بعده « تلك » أى الآيات العظيمة البالغة التى اشتملت عليها هذه السورة أو هـذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أن القرآن كلام الله ، « آيات الكتاب » أى الذكر الجامع لكل خير ، وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والإنجيل من ذلك ، فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا ، لأنه لم يكن يعرف شيئا من الكتابين ، ولا جالس أحدا يعلمه « الحكيم » أى المحكم « أكان للناس » أى أهل مكة ـ استفهام إنكار للتعجب « عجبا » العجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة . وقد ذكر القرآن الكريم الحامل على العجب بقوله تعالى : « إنا أوحينا » أى إيحاؤنا « إلى رجل منهم » أى من العرب أهل مكة ومن قريش ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يعرفون صدقه ونسبه وأمانته ، قيل: كانوا يقولون : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله للناس إلا يتيم أبى طالب ، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم عن الأمور المعاجلة وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة ، وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فى شىء إلا فى المال ، والمال أهون شىء فى هـذا الباب ، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك ، وقد قال تعالى « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » . « أن أنذر الناس » عامة أى أعلمهم مع الخوف ما أمامهم من البعث وغيره « وبشر الذين آمنوا » إنما عمهم فى الإنذار لأنه قل أن يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات

وخصص البشارة بالمؤمن إذ ليس للكافر مايصح أن يبشر به « أن » أى بأن « لهم قدم » أى منزلة « صدق عند ربهم » اختلف المفسرون وأهل اللغة فى معنى « قدم صدق » : فقال ابن عباس أجرا حسنا مما قدموا من أعمالهم ، وقال مجاهد : الأعمال الصالحة من صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، وقال الحسن : عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه ، وقال عطاء : مقام صدق لازوال له ولا بؤس فيه ، وقال زيد بن أسلم : هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأضيف القدم إلى الصدق وهو صفته ، وقال أبو عبيدة : كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم ، وهو مؤنث فيقال : قدم حسنة أو قدم صالحة « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » قرأ نافع وأبو عمر وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على أن الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك ، وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أن الإشارة للنبي صلى الله عليه وسلم « إن ربكم » الموجد لكم والمربى والمحسن هو « الله الذى خلق » أى قدر وأوجد « السموات والأرض » على عظمتهما وعلى اتساعهما وكثرة مافيهما من المنافع « فى ستة أيام » من أيام الدنيا أى فى قدرها ، لأنه لم يكن ثم شمس ، ولوشاء لخلقهما فى لمحة واحدة ، والعدول عنه ، وإنما هو لتعليم خلقه التثبت ، واليوم يراد به اليوم مع ليلته ، وقد يراد به النهار وحده ، والغالب فى اللغة أنه مراد باليوم اليوم بليلته ، وقد يكون المراد باليوم هنا الطور والمدة والحين ، لا مقدار اليوم المعروف ، ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الأقطار الواسع الانتشار المفتقر إلى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير ، عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك فى ممالكهم بقوله مشيرا إلى عظمته « ثم استوى » أى عمل فى تدبيره وإتقان مافيه وإحكامه « على العرش » وقد تقدم وصفه فى سورة الأعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ، ثم بين ذلك الاستواء بقوله « يدبر الأمر » كله فلا يخفى عليه خافية أمر من الأمور ، لأن التدبير أعدل أحوال الملك ، فالاستواء كناية عنه « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » جل وعلا ، وهذا رد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وفيه

إثبات الشفاعة لمن أذن له « ذلكم الله » أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية « ربكم » أي الذي يستحق العبادة منكم « فاعبدوه » أي وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع ، فإن عبادتكم مع الشريك ليست عبادة « أفلا تذكرون » المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدون « إليه » تعالى « مرجعكم » أي أي رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم « جميعا » لا يتخلف منكم أحد فاستعدوا للقائه « وعد الله » مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله تعالى « إليه مرجعكم » وعد من الله « حقا » أي صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره ، وهو ما دل عليه وعد الله « إنه يبدأ الخلق » أي يحييهم ابتداء « ثم يعيده » أي ثم يميتهم ثم يحييهم ، وفي هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ، ورد على منكري البعث ووقوعه لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق ، قادر على إعادتها بعد تفريقها بالموت والبلاء ، فيركب تلك الأجزاء تركيباً ثانيا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى ، فإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » أي بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا « والذين كفروا لهم شراب من حميم » وهو ماء حار قد انتهى حره « وعذاب أليم » أي بالغ في الإيلام « بما كانوا يكفرون » أي بسبب كفرهم « هو الذي جعل الشمس ضياء » أي ذات ضياء « والقمر نورا » أي ذا نور ، وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وآكد من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ، لأن الشمس نيرة في ذاتها والقمر نير بمقابلته الشمس « وقدره منازل » الضمير يرجع إلى الشمس والقمر ، أي قدر مسير كل واحد منهما منازل ، أو قدره ذا منازل ، أو يرجع إلى القمر فقط ، وتخصيصه بالذكر لقربه ولمعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به « لتعلموا عدد السنين والحساب » أي حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملتكم وتصرفاتكم ، لأن الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة

القمرية ، كما قال تعالى « إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله » . وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم ، والشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى هذه الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة ينتظم مصالح هذا العالم « ماخلق الله ذلك وهو ماسبق ذكره « إلا بالحق » أى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا ، تعالى الله عن ذلك - اظهاراً لقدرته ودلائل وحدانيته ، ونظيره قوله تعالى فى سورة آل عمران « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » ، وقال تعالى فى سورة أخرى « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا » ... « يفصل » أى يبين « الآيات » أى الدلائل الباهرة واحدة فى إثر واحدة بيانا شافيا « لقوم يعلمون » فانهم المنتفعون بالتأمل فيها .

ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الألوهية والتوحيد بقوله تعالى « إن ربكم الذى خلق السموات والأرض » وثانياً أحوال الشمس والقمر ، استدل ثالثاً بقوله تعالى « إن فى اختلاف الليل والنهار » أى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ، ورابعها قوله تعالى « وما خلق الله فى السموات » من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك « والأرض » أى ما خلق الله فى الأرض من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك « لآيات » أى دلالات على قدرته تعالى « لقوم يتقون » الله فإنه يحملهم على التفكر والتذكر ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها ، ومن تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لسعى الناس فيها وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها دار عمل لهم ، وإذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ، ليتميز المحسن عن المسىء ، وهذه الأحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد ، ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على وجوب الإيمان بالله وقدرته وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع فى شرح أحوال من يكفر بها ، وشرح أحوال من يؤمن بها ، وقد ابتدأ بأولها ووصفه بأربع صفات ، أما الصفة الأولى فقوله تعالى : « إن الذين لا يرجون لقاءنا » أى لا يخافونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون

بالثواب والعقاب ، والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع : فمن الأول قول العرب : فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ، ومنه قوله تعالى «مالكم لا ترجون لله وقارا» ، ومن الثانى قولهم : فلان يرجو فلانا ، أى يطمع فيه ، والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا ، والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى «ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» أى فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لا ينزعج عنها ، والصفة الرابعة قوله تعالى «والذين هم عن آياتنا» أى دلائل وحدانيتنا «غافلون» أى تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشىء الذى لا يخطر بباله طول عمره ذكره ذلك الشىء ؛ وبالجملة فهذه الصفات الأربع دالة على شدة بعدهم عن طلب السعادة الأخروية ، ويحتمل أن الصفة الأخيرة لفريق آخر ، ويكون المراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، وبالآخرة من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والإعداد له ، ولما وصفهم الله بتلك الصفات قال «أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» من الشرك والمعاصى ، ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال ..

٩ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

١٠ — دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين يذكر الله عز وجل ثواب المؤمنين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجزاءهم الكريم عند الله فى الآخرة ..

ففى هاتين الآيتين الكريمتين اللتين وعد المؤمنين فيهما بالهداية ، ووعدهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، واللتين ذكر فيهما أن دعوة المؤمنين فى الجنة يوم القيامة : أن سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ..

ولما شرح الله أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى من يؤمن بها فقال :
« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، والأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال
التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة ، والأعمال المذمومة ما يكون
بالضد من ذلك « يهديهم » أى يرشدهم « ربهم بإيمانهم » أى بسبب إيمانهم إلى
سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة ، أو لما يريدونه فى الجنة ، أو لإدراك الحقائق ؛
كما قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » ، وقال
مجاهد : المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم إلى الجنة ، وروى أنه صلى الله
عليه وسلم قال : إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة
فيقول : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من
قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله
النار : ومفهوم ترتب الهداية على الإيمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب
الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دل منطوق قوله جل وعلا (إيمانهم)
على استقلال الإيمان وأن العمل الصالح كالتتمة ، ثم إنه تعالى لما وصفهم
بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب
سعاداتهم وهى أربعة : الأولى قوله تعالى « تجرى من تحتهم الأنهار فى
جنات النعيم » أى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والأنهار
تجرى من بين أيديهم ينظرون إليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ، ونظيره
قوله تعالى « قد جعل ربك تحتك سريا » ، الثانية قوله تعالى « دعواهم فيها » قال
بعض المفسرين : أى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا « سبحانك » أى
ننزهك من كل سوء ونقيصة « اللهم » أى يا الله ، فالمراد بقوله « سبحانك
اللهم » اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه
بما هو أهله . وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم ويدل على هذا
ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، يلهمون التسبيح والتحميد
كما يلهمون النفس ، الثالثة قوله تعالى : « وتحيتهم » أى فيما بينهم وتحية الملائكة
لهم « فيها » أى فى الجنة « سلام » أى وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم

بالسلام ، قال تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، وقال تعالى : سلام قولا من رب رحيم ، الرابعة قوله تعالى « وآخر دعواهم » أى وآخر دعائهم « أن الحمد لله رب العالمين » أى أن يقولوا ذلك ، وقال الزجاج : اعلم أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه . وقال البيضاوى : المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، ثم حيتهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بألوان الكرامات ، أو حياهم الله فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الجلال ...

* * *

وبذلك ينتهى الربع الأول من سورة يونس ، وهو فى الحقيقة ليس بربع كامل ، إنما هو تكملة للربع الذى كان ابتداؤه فى آخر سورة التوبة قوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » . . وقد اشتمل مطلع سورة يونس هذا على تمجيد لله عز وجل ما بعده من تمجيد ، فقد بدأت السورة :

١ — بتمجيد شأن القرآن الحكيم ، وبنفى عجب الكافرين من رسالة محمد ، واستغراب المشركين لأن يوحى إلى رجل منهم برسالة سماوية ليبلغها للناس ، ينذرهم ويبشرهم ، وأى عجب فى رسالة محمد ؟ أليس قد أرسل إلى رسل وأنبياء من قبله ، إن الإنسانية كلها وتاريخ العالم جميعه سوف يذكران محمدا ورسالته الهادية بالفخر والإعجاب .

ولقد مضى على انتقال رسول البشرية محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرنا ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة ، والعظمة الكاملة ، إذا ذكر المسلمون هذا النبى الأمى تقديسا للرسالة التى حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها فى الخافقين ، وإيمانا بسمو ما جاء به من عقيدة وتشريع . . . فإن الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها

البر الرحيم ، والعلم المفرد فى تاريخها الحافل المديد ، إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التى ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكمال خلقه ، وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل ، وأنه عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، فى سبيل الله والحق والهدى والنور ، فحسب . وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذى اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ رسالة الله إلى العالم ، على فترة من الرسل . ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء . التى بشر بها الأنبياء والمرسلون . وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة وهى الفطرة التى فطر الناس عليها ، فقد دعت إلى التوحيد المطلق ، وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان فى الحياة ، وديمقراطيتها الحقة وما سنته من حب ورحمة وتعاون ، وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والأوهام الضارة ، والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة ، والتقاليد البالية . وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية ، والزمالة البشرية ، وأنه منع حرب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله . ثم لم يمض إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أجل ما يقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم » . من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما

عليك إثم الأريسيين — عامة الشعب — يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم ، وتحرير الإنسانية ، فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب ، ولن تزال حية بما فيها من حرارة وحياة ونمو وتجدد ، ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأياديه الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : « مما لا ريب فيه أن النبى محمداً من أعظم الرجال المصلحين ، الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام » ، ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال : « إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لأكثر من مائتى مليون من البشر ، وإن رجلا كاذبا لا يستطيع أن يوجد دينا وينشره ، عجباً والله . وعجيب وأيم الله أمية محمد ، فلم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية . . وصدق الله فيما يقول : « يا أيها النبى : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونزيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » .

وعند ما نذكر محمدا ورسالته نذكر ذكريات المجد التليد والعظمة الخالدة ، ويذكر الناس معنا قصة هذه العبقرية الحقة ، والزعامة الصحيحة ، فيستبد بهم الإعجاب ، ويزدهيهم الفخار ، ويقولون سبحان الله ! ! إن هذه أيادى محمد الكريمة على الإنسانية لا يكاد يعيها العد ، وتنوء الحياة بدين محمد الفادح عليها ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجراه ، وغير مجرى الحضارة ، ونهج للإنسانية مناهج لم تعرفها من قبل ولا من بعد ، لأنها خلاصة المثل العليا فى الأخلاق والفضائل والآداب ، وفى الاجتماع والسياسة

والاقتصاد ، وفى جميع شئون الحياة والتفكير ، وبحق إن محمداً لرسول الإخاء الإنسانى ، ونبى البشرية كافة ، والعبقرى المفدى الذى لم يلد التاريخ له مثيلا طول الأجيال والقرون التى تعاقبت على الحياة والناس . . .

وبحق كانت رسالة محمد ميلاد الحضارة والثقافة والمدنية والنور والهدى والخير والرحمة والحرية والإخاء والمساواة والتعاون بين الناس كافة . يقول « بوسورث سميث » : كان محمد موفقا توفيقا فريداً فى بابه لم يحدثنا التاريخ عن مثله ، فقد جمع بين زعامات ثلاث ، هى زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أميا ، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم ، كمعجزة هى دليل العقل والحكمة أكثر من أى معجزة سواها . . ويقول لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور : أترون محمدا كان اخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين : كل أولئك من نفاق العقائد ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق ، وإذا كانت قوة الصعود والرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الرسمى التى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث ، فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية ، هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكر السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد ، وتبقى زمناً طويلا ، وتمشى فى الحياة أبدا . وهى بلا ريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق . ولا بد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو

دعوته فى وسط أعدائه وخصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها . وتقبله سخرية الساخرين ، وهزؤه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى إظهار دعوته ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر . وإعلاء كلمته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم . وأناته وصبره حتى يحرز النصر وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الإسلامية ، لافتح الدولة وإنشاء الإمبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لاتنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءه عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله؟ والثانية تنفى ماألصق الوثنيون به ، الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة . والأخرى فتحت طريقا جديدا إلى الفكر ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والدائد ومسعر الحروب وفاتح أقطار الفكر ، ورواد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لاوثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ؛ ذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية وكان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير محمد بن عبد الله ؟ ولم يختر الله رسوله الكريم إلى جواره إلا بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة ، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله . صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون ، وحمده الحامدون .

ولقد خفقت أعلام الإسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته

فى كل قطر ، يبشرون الإنسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الأمم من اسارها ، ويرفعون عنها الأغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ، ويمحون ظلال الاستعمار والاضطهاد من الأرض ، ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الأرض ، وليست الأمم ملكا لملك ، وليس الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . . العدالة والإنصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .. وبعد قليل كانت الجامعات الإسلامية فى قرطبة وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية ، وفى الفسطاط والقاهرة ، وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ، وفى كل مكان . . كانت تعج بالطلاب والأساتذة ، وتنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ، وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الإنسانى بين شتى العناصر والألوان والأجناس والشعوب ، لخدمة الإنسانية والرقى بالحياة . بينما كانت أوربا تنام فى الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل والجمود والقذارة والحجر على الحريات ، وتنتقل من عصور الرق البائدة إلى عهود الإقطاع القاسية المستبدة . فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان ؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم

والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والإخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رؤوس الاستعمار فى كل مكان ، وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية منارا عاليا يفىء إلى ظله كل إنسان ؟ إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الأنبياء والمرسلين . . وصدق الله العظيم : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » .

٢ — ولقد استدل الله عز وجل فى مطلع هذه السورة الكريمة على صحة رسالة محمد بقدرة الله على كل شىء ، ولم يستدل برسالات الأنبياء من قبل ، لأن السورة مكية ، وهى فى خطاب المشركين ، والمشركون كانوا أميين لا يعرفون رسالة ولا رسلا ، وقد أبان الله عز وجل أنه قادر على إرسال محمد ، لأنه قادر على كل شىء ، وهذه مظاهر قدرته فى السماء والأرض واضحة ظاهرة للعيان . . خلق السموات وخلق الأرض فى ستة أطوار . . ثم استوى على عرش هذا الكون العجيب إلها معبودا ، وخالقا موجوداً ، وواحداً أحداً فرداً صمدا . . استوى على العرش بسلطانه وهيمنته ونفوذه وإرادته وقدرته ، استوى على العرش ملكا مدبرا ، وإلها مريدا قادرا ، سبحانه وتعالى عما يشركون . . أليس هو الذى يدبر الأمر فى الأرض والسماء ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، يشفع لأحد عنده ، ولم يأذن لأحد بهذه الشفاعة ، ولم يعط تلك الشفاعة العظمى لأحد إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم . . ذلك الله الذى هذه قدرته ، وتلك إرادته وحكمته ، وهذا نفوذه وسلطانه ، وذلك مجده وكبرياؤه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ، إليه مرجع الناس جميعا بالبعث والنشور والحساب . . وهنا يؤكد الله عز وجل أمر البعث الذى ينكره المشركون ،

ولا يقربه الجاحدون ، فيقول : « وعد الله حقا » ولماذا ؟ وبأى دليل ؟ قال تعالى : إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، حقا إنه بدأ الخلق ، وسوف يعيده كما بدأه ، والقادر على البدء قادر على الإعادة أيضاً . ولماذا يعيد الخلق ؟ يعيدهم ليجزيهم بما عملوا : للمؤمنين الصالحين الجنة والخير ، وللكافرين النار والعذاب الأليم . . وبهذا قرر الله عز وجل أمر البعث عرضاً ، كما قرر من قبل صحة القرآن وصحة رسالة محمد عليه السلام ، مستدلا على قدرة الله عز وجل على ذلك بمظاهر قدرته فى الأرض والسماء .

٣ — ويؤكد الله عز وجل فى مطلع هذه السورة كذلك قدرته الباهرة ، هذه القدرة التى صنعت المعجزات ، أتعجز عن رسالة رسول إلى الله . . وما هى شواهد قدرة الله الأخرى ؟ نعم . . إنها شواهد كثيرة . . جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدر القمر منازل ، ليعلم الناس عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . . ثم ماذا ؟ يقول الله تعالى : إن فى اختلاف الليل والنهار . . . لآيات لأولى الألباب ، نعم ، إن فى خلاف النهار لليل وخلاف الليل للنهار ، وفى زيادة هذا ونقص ذاك ، وفيما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون الله ، أما الذين يجحدون ولا يؤمنون ، والذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين لا يعتبرون بآيات الله ، فأولئك مأواهم النار جزاء بما عملوا وما كانوا يكسبون .

٤ — وكما أن للكافرين النار فللمؤمنين الذين يعملون الصالحات هداية الله لهم بسبب إيمانهم ، ولهم الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم منازل النعيم والثواب ، دعاؤهم لله تنزيه الله وتسبيحه ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعائهم لله : الحمد لله رب العالمين ، على ما منحهم من نعيم ، وعلى ما وهبهم من خير ، وعلى ما جزاهم جزاء جميلا بأحسن ما كانوا يعملون .

هذا هو مطلع سورة يونس : تقرير لصدق القرآن ، ولصدق رسالة محمد عليه السلام ، ولأمر البعث ، واستشهاد على إمكان ذلك بقدرة الله الباهرة فى

السماء والأرض ، ثم تقرير لجزاء الناس على أعمالهم : للكافرين غضب الله وعذابه ، وللمؤمنين رضاء الله ونعيمه ، وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله حديثا ؟

الربع الثانى من سورة يونس

١١ — وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .

١٢ — وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٣ — وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

١٤ — ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

لما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آياته سبحانه غافلين ، بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب ، جهلا منهم ، وسفهاً ، فقال تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر » أى ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه « استعجالهم بالخير » أى كما يحبون أن يعجل لهم إجابتهم

بالخير » لقضى إليهم أجلهم » أى لأهلكهم . ولكن الله عز وجل يمهلهم ؛ نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ؛ ويدل عليه قوله تعالى « فنذر » أى نترك « الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم » أى فى تمردهم وعتوهم « يعمهون » أى يترددون متحيرين ، وقيل : هذا فى قول الرجل عند الغضب لأهله وولده : لعنكم الله ، لا بارك الله فيكم ، وقال قتادة : هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أى يستجاب له فيه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنى أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه ، إنما أنا بشر فأى المؤمنين أذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقويه بها إلى يوم القيامة . . وقد قوبل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال ، وكأن تقدير الكلام : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه ، وقال فى الكشاف : أصل هذا الكلام : ولو يعجل الله الشر تعجيله لهم بالخير، إلا أنه وضع استعجالهم بالخير ، موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . .

ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم يستعجلون فى نزول العذاب بين أنهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى : « وإذا مس الإنسان » أى الكافر « الضر » أى المرض والفقر « دعانا لجنبه » أى على جنبه « أو قاعدا أو قائما » فائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ، والمعنى أنه لو نزل بالإنسان أدنى شىء يكرهه ويؤذيه تضرع إلى الله تعالى فى إزالته عنه وفى دفعه عنه ، وذلك يدل على أنه ليس صادقا فى طلب الاستعجال « فلما كشفنا عنه ضره » أى أزلنا عنه ما نزل به « مر » أى مضى على ما كان عليه من الكفر « كأن لم يدعنا » أى كأنه ، فأسقط الضمير على سبيل التخفيف ،

ونظيره قوله تعالى « كأن لم يلبثوا إلى ساعة من نهار » .. « إلى ضير مسه » قال الحسن : نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى إزالة ذلك البلاء عنه ، وإنما حمل الإنسان فى هذه الآية على الكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة ، وقول بعضهم : كل موضع ورد فيه ذكر الإنسان فالمراد هو الكافر مردود . فقد قال تعالى : هل أتى على الإنسان حين من الدهر . وقال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، وقال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ـ وأما المؤمن إذا ابتلى ببلية أومحنة وجب عليه رعاية أمور :

أولها : أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه ، وإنما وجب عليه ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق وملك بالاستحقاق ، فله أن يفعل فى ملكه ما شاء ، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل العبث ، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب ، فيجب عليه الصبر وترك النطق ، فإن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل ..

وثانيها : أنه فى ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بأى دعاء كان ذلك أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ، ولا شك أن الأول أفضل ..

وثالثها : أنه تعالى إذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء ، وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر ؛ لأن الكافر منهمك فى الشهوات والإعراض عن العبادات ، كما قال تعالى « كذلك » أى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح « زين للمسرفين » أى المشركين « ما كانوا يعملون » من القبائح لإعراضهم عن الذكر

واتباعهم الشهوات ، وإنما سمي الكافر مسرفا لأنه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الأوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة ، وكأنه نسى أن الله تعالى مالك الملك ، والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء ، وقيل : هو الشيطان وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك ، وإلا فهو أخس وأحقر « ولقد أهلكنا القرون » أى الأمم الماضية « من قبلكم » يا أهل مكة « لما ظلموا » أى أشركوا « وجاءتهم رسلهم بالبينات » أى الحجج الدالة على صدقهم « وما » أى والحال أنهم ما « كانوا ليؤمنوا » أى وما استقام لهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، لعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم ، واللام لتأكيد النفى « كذلك » أى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو إهلاكهم لما كذبوا رسلهم « نجزى القوم المجرمين » أى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم ، فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه « ثم جعلناكم » أى أيها المرسل إليهم أشرف رسلنا « خلائف » جمع خليفة « فى الأرض من بعدهم » أى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يمتحنكم « لننظر كيف تعملون » من خير أو شر والله عز وجل أعلم بهم من أنفسهم ، فالشهادة إنما هى لإقامة الحجة ، وهو مثل قوله تعالى : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ، وقال رسول الله صلوات الله عليه : إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار . . .

١٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِى نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

١٦ — قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

١٧ — فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث رد على المشركين الذين كذبوا محمدا فيما بلغه عن ربه من آيات وسور اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقالوا : هو كلام محمد ، وهو سحر ، وهو أساطير الأولين ، وقال بعضهم لمحمد : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فرد عليهم ردا بليغا ، قال لهم : إنه ليس له أن يبدله من تلقاء نفسه ، إن يتبع إلا ما أوحى إليه من ربه ، إنه يخاف بطش الله وعذابه إن لم يبلغ كتاب الله إلى الناس كافة ، ويقول لهم الرسول أيضا : لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، ولقد لبثت فيكم عمرا طويلا من قبل نزوله فلم أفتر لكم آية أو سورة ، إنما بلغت ما نزل على من ربى ، ولو كان عند المشركين تدبر لفهموا واعتبروا وارعووا . . ويؤكد القرآن الكريم أنه ليس هناك أحد أظلم ممن يختلق على الله الكذب ، ويفترى عليه الباطل من القول ، وينسب إليه شيئا لم ينزل الله به من سلطان ، وليس كذلك أظلم ممن كذب بآيات الله ، فأولئك هم المجرمون ، ولا يفلح المجرمون أبدا بإذن الله ، وإن أفلحوا فى جمع المال والثروة فلن يفلحوا فى جلب رضاء الله ومثوبته ، ولن يفلحوا فى كسب ثقة أنفسهم بأنفسهم ، ولن يفلحوا فى مستقبل حياتهم ، ولن يفلحوا فى إرضاء ضمائرهم ولا فى خدمة أممهم ومجتمعاتهم . . . إنهم الفاشلون وهم المهزومون المخذولون بإذن الله ...

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وإذا تتلى عليهم » أى وإذا قرىء على هؤلاء المشركين « آياتنا » أى القرآن الذى أنزلناه إليك يا محمد حالة كون تلك الآيات « بينات » أى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة

نبوتك « قال الذين لا يرجون لقاءنا » أى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فإنه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا « ائت » أى من عندك « بقرآن » أى كلام مجموع جامع لما يريد « غير هذا » فى نظمه ومعناه « أو بدله » بألفاظ أخرى والمعانى باقية ، وقد كانوا عالمين بأنه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ، ولكنهم قصدوا أن يأخذوا فى التغيير حرصا على إجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك ، واختلف فى هذا القائل : فقال قتادة : هم مشركو أهل مكة ، وقال مقاتل : هم خمسة نفر : عبد الله بن أمية الجمحى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمر بن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام ، قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : إن تؤمن بك فائت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة ، وليس فيها عيبها ، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما ؛ ولما كان كأنه قيل : فماذا أقول لهم ؟ قال الله تعالى « قل » لهم « ما يكون » أى ما يصح « لى » ولا يتصور بوجه من الوجوه « أن أبدله من تلقاء » أى قبل « نفسى » وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر « إن » أى ما « أتبع إلا ما يوحى إلى » فيما آمركم به أو أنهاكم عنه ، أى لا آتى بشىء ولا أذر شيئا من نحو ذلك إلا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ، إن نسخت آية تبعت التبديل وليس إلى تبديل ولا نسخ « إنى أخاف إن عصيت ربى » أى بتبديله « عذاب يوم عظيم » فإنى مؤمن به غير مكذب ، ولا شاك كغيرى عن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله « لو شاء الله ما تلوته عليكم » أى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم « ولا أدراكم به » أى ولا أعلمكم به على لسانى ، أو لا أعلمكم به على لسان غيرى « فقد لبثت » أى مكثت « فيكم عمرا » سنين أربعين

« من قبله » أى قبل أن يوحى إلى هذا القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، ففى ذلك إشارة إلى أن هذا القرآن معجز خارق للعادة ، وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ماطالع كتابا ولا تتلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على أصول الدين وفلسفة الحياة وقوانين المدنية ، وعلى لطائف من علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين ؛ وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ؛ وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحى والإلهام من الله تعالى .. « أفلا تعقلون » أى أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر ، لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم ـ على من لم يتعلم ولم يتتلمذ ولم يطالع كتابا ولا يمارس مجادلة ـ لا يكون إلا على سبيل الوحى من الله تعالى ، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم : ائت بقرآن غير هذا ، من إضافة الافتراء إليه .. وقد أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحى إليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ..

ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال : إنه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك، كما قال تعالى « فمن » أى لا أحد « أظلم ممن افترى » أى تعمد « على الله كذبا » أى كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك ، وكان الأصل مبنياً على تقدير أن لا يكون هذا القرآن من عند الله ، ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقاً للحكم بالوصف « أو كذب بآياته » أى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم ، وذلك من أعظم الكذب « إنه » أى الشأن « لا يفلح » بوجه من الوجوه « المجرمون » أى المشركون ، تأكيد لما سبق من هذين الوضعين ...

١٨ — وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

١٩ — وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

٢٠ — وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

٢١ — وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

أربع آيات كريمة جاءت عقب الآيات السابقة ، التى دار مغزاها حول القرآن رسالة الله الخالدة ، وتناولت الآية الأولى من هذه الآيات الأربع التى معنا بيان سفه المشركين وحمقهم وجهلهم ، لأنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تنفعهم ولا تضرهم ، ويدّعون أنها تشفع لهم يوم القيامة عند الله ، وقد رد الله عز وجل عليهم ردا بليغا وأنكر ما يزعمون ، وبين كذبهم فيما يدعون ؛ فقال ساخرا منهم بأسلوب الاستفهام : أتعلمون الله بأشياء لا يعلم عنها ؟ وإذا كان الله لا يعلم عن أشياء ، فى أى مكان فى الأرض والسماء ، فإن هذه الأشياء تكون مما لا حقيقة لها ، وتكون مختلقة مفتراة ، وتكون مزعومة كاذبة لا وجود لها ، ولا حقيقة لمغزاها ، والله عز وجل منزه عن الشريك وهو مبرأ مما يشركون .. ويقرر الله عز وجل فى الآية الثانية أن الناس كانوا على عقيدة واحدة ، وكانوا على اتفاق فى الدين والعبادة ، ولكن زاغت بهم الأهواء ، وزاغت بهم الشياطين ، وغووا وضلوا واختلفوا ، ففريق استمر على التوحيد ، وآخرون عبدوا الأوثان ، وآخرون

عبدوا بعض مظاهر الطبيعة ، وآخرون عبدوا معبودات أخرى لا حقيقة لها ، ولا يصح للعقل الإنسانى أن ينحرف إلى عبادتها . ولولا قضاء الله وحكمته لحكم عز وجل بينهم فيما اختلفوا فيه ، بإهلاكهم أو بسبق إرادته للوحدة بينهم ، وأن يكونوا أمة واحدة . . وفى الآية الثالثة يرد الله عز وجل على بعض مزاعمهم الباطلة ، من قولهم : لن نؤمن بمحمد إلا إذا نزلت عليه آية من الله تكون معجزة واضحة ، ودليلا على صدق رسالته ، وكأنهم لم يعترفوا بالقرآن الكريم معجزة من الله ، ولم يصدقوا أنه أضخم معجزة شهدتها الإنسانية ، ويقول الله عز وجل لهم : إن كون الله ينزل آية أو لا ينزلها من أمور الغيب ، والغيب بيد الله ، وعليهم أن ينتظروا هذا الغيب ، ومحمد رسول الله معهم من المنتظرين . . أسلوب من أساليب التهكم والسخرية ليس له مثيل فى روعته وبلاغته . . وفى معنى الآية الثانية قوله تعالى فى سورة البقرة :

١ — « ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعده من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد » ـ آية ٢٥٣ .

٢ — « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ـ آية ٢١٣ ، وقد سبق أن أفضنا فى بيان ذلك فى موضعه من الجزء الثانى إفاضة واسعة ...

والآية الأخيرة ترشد إلى طبيعة الإنسان من الكفر حين ينزل به الخير والرحمة ، والإيمان فى الشدة والمحنة ...

يقول الله عز وجل : « ويعبدون » أى يعبد هؤلاء المشركون « من دون الله » أى غيره « ما لا يضرهم » أى إن لم يعبدوه « ولا ينفعهم » أى إن

عبدوه .. وهو الأصنام ، وكونها لا تنفع ولا تضر لأنها حجارة وجماد ، والكفار قادرون على التصرف فيها بالإصلاح وبالإفساد ، وإذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة ؛ لأن العبادة أعظم أنواع التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ، بأن يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية . وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل ، وأسافا ونائلة . . « ويقولون هؤلاء » أى الأصنام التى نعبدها « شفعاؤنا عند الله » نظير هذا قوله تعالى إخبارا عنهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وقيل : إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله ، قال الرازى : ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الصالحين على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ... ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار ، وفى هذه الشفاعة قولان :

أحدهما : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى إصلاح معائشهم ، قال الحسن : لأنهم كانوا لا يعتقدون بعث الموتى .

والثانى : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة إن يكن بعث ؛ وكأنهم كانوا شاكين فيه ، وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع ، على توهم أنه ربما يشفع لهم ، قال النضر بن الحارث : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين « أتنبئون » أى تخبرون « الله » وهو العالم بكل شىء المحيط بكل محيط « بما لا يعلم » أى لا يوجد له به علم فى وقت من الأوقات والاستفهام إنكار تهكم بهم وبما ادعوا من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلامه بأن إنباءهم به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرون بشىء لا يتعلق به علمه « فى السموات ولا فى الأرض » تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ، وهذا على طريق الإلزام ، والمقصود نفى علم الله

بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة ، لأنه لو كان موجودا لـكان معلوما لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجوداً ، وهذا مثل مشهور فى العرب ، فإن الإنسان إذا أراد نفى شىء عن نفسه يقول : ما علم الله ذلك منى ، ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشىء منه قط ولا وقع « سبحانه » أى تنزيها له عن كل شىء فيه شائبة نقص « وتعالى عما يشركون » أى عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به ، وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب بقوله « أتنبئون الله » والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : قل أنت : سبحانه وتعالى عما يشركون ، ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه ، فقال : سبحانه وتعالى عما يشركون ، ولما أقام الله تعالى الدلالة القاهرة على فساد القوم بعبادة الأصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله : « وما كان الناس إلا أمة واحدة » أى جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام ، وقيل : على الضلال فى فترة الرسل ، واختلف القائلون بالأول أنهم متى كانوا كذلك ، فقال ابن عباس ومجاهد : كانوا على دين الإسلام من لدن آدم إلى أن قتل قابيل هابيل ، وقال قوم : إلى زمن نوح أى عشرة قرون ، ثم اختلفوا فى عهد نوح ، فبعث الله تعالى إليهم نوحا ، وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام من زمن نوح بعد الغرق ، حيث لم يذر الله على الأرض من الكافرين دياراً إلى أن ظهر الكفر فيهم ، وقال آخرون : من عهد إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحى ، وهذا القائل قال : المراد من الناس فى قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة » العرب خاصة « فاختلفوا » بأن ثبت بعض وكفر بعض « ولولا كلمة سبقت من ربك » وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، وتلك الكلمة هى قوله سبحانه : سبقت رحمتى غضبى ، فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان « لقضى بينهم » أى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة « فيما فيه يختلفون » من الدين بإهلاك المبطل.

وإبقاء الحق ، وكان ذلك فصلا بينهم « ويقولون » أى كفار مكة « لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى محمد صلى الله عليه وسلم « آية من ربه » أى غير ما جاء به كما كان للأنبياء من الناقة والعصاة واليد « فقل » يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين « إنما الغيب » أى ما غاب عن العباد أمره « لله » أى هو المختص بعلمه ومنه الآيات ، فلا يأتى بها إلا هو ؛ وإنما علىّ التبليغ « فانتظروا » أى نزول ما اقترحتموه ، وقيل : نزول العذاب إن لم يؤمنوا « إنى معكم من المنتظرين » أى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره ، فأى عناد أعظم من هذا « وإذا إذقنا الناس » أى كفار مكة « رحمة » أى صحة وسعة « من بعد ضراء » أى شدة وبلاء « مستهم » سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بل رجعوا إلى العناد والكفر ، كما قال تعالى : « إذا لهم مكر فى آياتنا » بالاستهزاء والتكذيب ، وقيل : لايقولون : هذا من رزق الله ، إنما يقولون : سقينا بنوء كذا ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسهم بها فيصبح طائفة منهم كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا ، والنوء عند العرب هى منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره « قل الله » أى قل لهم يا محمد « الله أسرع مكرا » منكم أى أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ، أو معنى الوصف بالأسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكائدهم ، والمكر إخفاء الكيد وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر ، فإنهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة « إن رسلنا » أى الحفظة الكرام الكاتبين « يكتبون ما تمكرون » لأنهم وكلوا بكم لا يكتبون مكرهم إلا بعد إطلاعهم عليه ، وأما هو سبحانه وتعالى فإنه إذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا

بإطلاعه فكيف بغيرهم ، وإذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم يدبرون .

٢٢ — هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ .

٢٣ — فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٢٤ — إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

ثلاث آيات كريمة تناولت ما تناولت من بيان طبيعة الإنسان ، وما جبلت عليه نفسه من الكفر واللجاج . وقد سبق أن ذكر الله عز وجل أن الإنسان إذا أصابه الله عز وجل برحمة منه ، وإذا أذاقه أفاويق من الخير بعد شدة وجهد أصابته أسرع إلى الكفر واللجاج والمعصية والمكر ، ونسى أن مكر الله أشد من مكره ، وأن الملائكة تحصى على الإنسان كل معصية

يعملها ، وأنه سوف يعاقب على ما اقترفت يداه من سيئات ؛ وهناك يذكر أن الإنسان بعصيانه كأنه نسى أن الله هو القادر على كل شىء ، وهو رب الأرض والسماء ، والبر والبحر ، وهو الذى يسير الناس فى البر والبحر وينجيهم كلما عصف بهم وبسفينتهم عاصف وأحاط بهم الموج من كل مكان ، وبعد أن شاهدوا الموت عيانا ، ولمسوه بأيديهم ، ومع إنجاء الله إياهم إذا هم يعودون إلى الكفر والبغى والعصيان . نسوا نعمة الله عليهم كأنهم لم ينقذهم الله من الغرق ، ولم ينعم عليهم بالنجاة .. ومع ذلك فإن بغيهم على أنفسهم ، وإن ما ينعمون به من ملذات إنما هو متاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله عز وجل مرجعهم ، فيحاسبهم على أعمالهم ، ويجزيهم بها ، ويعاقبهم على سوء ما كانوا يصنعون .. أما الآية الرابعة ، فهى مثل رائع من أمثلة القرآن البليغة ، التى يمثل الله عز وجل فيها الدنيا : فى زهرتها وبهجتها ونضرتها ، فإذا حل بها عذاب الله صارت قاعا صفصفا ، بالماء ينزل من السماء ، فينبت عليه الشجر والزرع والحدائق الفيح ، وبعد قليل تذهب كل هذه النضرة ، وتعود إلى ذبول وفناء ، كما تعود الأرض حين يحل بها عذاب الله إلى خراب يباب لا أثر فيها للحياة ، كأن لم تغن الأمس ، ومثل هذه الأمثال يفصل الله الآيات لقوم يتفكرون ..

وقد أخذ الله سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به سرعة مكره فى مثال على ما فى الآية قبلها ؛ لأن المعنى لا يصل إلى إفهام السامعين إلا بذكر مثال جلى واضح يكشف حقيقة ذلك المعنى ، فقال « هو الذى يسيركم » أى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه لا تعذرون على الفكاك عنه ويمكنكم منه « فى البر والبحر » أى يسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما « حتى إذا كنتم فى الفلك » أى السفن ، ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع ، والمراد هنا الجمع لقوله تعالى « وجرين بهم » أى بمن فيها ، وعدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار . والالتفات فى الكلام عن الغيبة إلى الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب « بريح طيبة » أى لينة الهبوب « وفرحوا بها » أى بتلك الريح وبالفلك الجارية بها « وجاءهم

الموج ، أى وجاء ركاب السفينة الموج ، وهو ما ارتفع وعلا من ضرب الماء فى البحر ، وقيل : هو شدة حركة الماء واختلاطه « من كل مكان » أى يعتاد مجيء الموج منه فأرجف قلوبهم « وظنوا أنهم أحيط بهم » أى فظنوا الهلاك قد أحاط بهم ، وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط بهم العدو « دعوا الله مخلصين » أى من غير إشراك به « له الدين » أى الدعاء ، لأنهم لا يدعون حينئذ غيره ، لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يطمع إلا فى فضل الله ورحمته ، ويصير منقطعا عن جميع الخلق ، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا إلى الله تعالى « لئن أنجيتنا من هذه » الشدائد التى نحن فيها ، وهى الريح العاصفة والأمواج الشديدة « لنكونن من الشاكرين » أى لنكونن من الشاكرين لك بالإيمان والطاعة على إنعامك علينا بإنجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة « فلما أنجاهم » أى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها إجابة لدعائهم « إذا هم يبغون » من البغى وهو الفساد ، كأنهم سارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى « فى الأرض » أى جنسها « بغير الحق » البغى لا يكون بحق فما معنى قوله (بغير) ؟ أجيب بأنه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفر والشرك وهدم دورهم كما فعل المسلمون ببنى قريظة لما نقضوا العهد ، فان ذلك إفساد بحق ، قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما : غير محمود وهو مجاوزة الحق إلى الباطل وإلى الشبهة ، والآخر كفعل المسلمين ما ذكر « يأيها الناس إنما بغيكم » أى « ظلمكم على أنفسكم » لعود وباله عليها خاصة ، قال صلى الله عليه وسلم : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة ، وروى: ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا : البغى وعقوق الوالدين ، وعن ابن عباس: لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى .

وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى والنكث والمكر ، وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل « قال تعالى : « متاع الحياة الدنيا » ، أى يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض إلا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها

وسرعة انقضائها « ثم إلينا مرجعكم » يوم القيامة « فننبئكم بما كنتم تعملون » في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها . ولما قال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » . أتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب بقوله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا » أي حالها العجيبة في في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ، والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به » أي بسببه « نبات الأرض » أي اشتبك بعضه ببعض ، والاختلاط : تداخل الأشياء بعضها في بعض « مما يأكل الناس » من الحبوب والثمار ونحو ذلك ومما يأكل « الأنعام » من الكلأ والحشائش ونحوه « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها » أي حسنها وبهجتها من النبات « وازينت » بألوان زهرها من أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من ألوان الزهور ، وأنواعها ، وازينت بالناس وعلومهم ، ونتائج قرائحهم من توفير وسائل الرفاهية والرخاء والجمال « وظن أهلها » أي أهل تلك الأرض « أنهم قادرون عليها » أي متمكنون منها بالعلم والعمل « أتاها أمرنا » أي قضاؤنا « ليلا أو نهاراً » أي في الليل أو في النهار « فجعلناها » أي زرعها « حصيدا » أي كالمحصود بالمناجل « كأن » أي كأنها « لم تغن » أي لم تكن « بالأمس » تلك الزروع والأشجار قائمة على ظهر الأرض ، وتشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها :

الأول : أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ، وهو معنى قوله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أي خاسرون الدنيا وقد أنفقوا أعمارهم فيها ، وخاسرون الآخرة مع أنهم توجهوا إليها .

الثاني : أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة ، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل على عاقبة تحمد ؛ فإن سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هي ممزوجة بالبلاء ، والاستقراء يدل عليه .

الثالث : أن مالك ذلك البستان لما عمره بالتعب والجهد والمشقة ، وعلق أمله على الانتفاع به ، فإذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذى تحمله فى الماضى سببا لحصول الشقاء الشديد له فى المستقبل ، وهو ما يشعر به قلبه من الخسران ، فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه فى تحصيلها ، فاذا مات وفاته كل ما فاته صار العناء الذى تحمله فى تحصيل أسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة .

الرابع : وهو ما أرجحه ـ أن المراد تمثيل الدنيا ، وقد أخذت زخرفها ، ووصل العلم إلى مداه ، وبلغ العقل الإنسانى إلى حد الجبروت ، وكثر العمران وانتشر الرخاء وفاضت مباهج الحياة ، وظن الناس أنهم قادرون عليها ، ثم قامت القيامة فجأة وانتهت الدنيا من إنسان ونبات ، ومباهج وملذات . وينتقل الناس إلى حياة أخرى يخسر فيها من يخسر ويكسب فيها من يكسب ، كل بما قدمت يداه ، ولا يظلم ربك أحدا . . « كذلك نفصل الآيات » أى مثل هذا التفصيل الذى ذكرناه نبين الآيات « لقوم يتفكرون » لأنهم المنتفعون بها .

٢٥ — وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٢٦ — لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٢٧ — وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٢٨ — وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .

٢٩ — فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ .

٣٠ — هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

ست آيات كريمة فيها تقرير لدعوة الله عز وجل فى القرآن الكريم وأنها دعوة إلى الجنة والهدى ، وأن المؤمنين بها لهم النعيم والكرامة ، ولهم البشر والفرح والسرور ، وهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون ، أما الذين كفروا برسالة القرآن فلهم الذل والهوان ، والخزى والعذاب ، والبؤس والشقاء ، ولهم السوء ، وهم فى النار هم فيها خالدون . . ويذكر الله عز وجل موقف الشركاء والمشركين ، موقف المعبودين والعابدين فى الآخرة ، يوم يأتى الله عز وجل بهم فى الحشر ، فيفرق بينهم ، ويتبرأ منهم هؤلاء الشركاء ، قائلين : ما كانوا إيانا يعبدون ، ويشهد الله عز وجل عليهم جميعا ، وكفى بالله شهيدا بين هؤلاء وهؤلاء ، فما كان الله غافلا عما كانوا يعبدون . ويقرر الله عز وجل أن موقف الحساب هو أشد موقف على الناس ، موقف ينتظر فيه الناس جزاء أعمالهم ويعرف كل واحد ثمرة عمله ، وهل كان على حق أم على باطل ، بل إن المبطلين والمشركين تغيب عنهم آلهتهم ، لا تنفعهم ولا تشفع لهم ، لأنها عبادة باطلة مفتراة ، لا حقيقة لها ولا كيان ، وليس لها وجود . . . يقول الله عز وجل : « والله يدعو » أى يعلق دعاءه سبيل التجدد والاستمرار « إلى دار السلام » قال قتادة : السلام هو الله وداره الجنة ، وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لأنه واجب الوجود لذاته ؛ فقد سلم من الفناء والتغير ، وسلم فى احتياجه فى ذاته وصفاته من الافتقار إلى الغير ، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه . كما قال تعالى: والله هو الغنى وأنتم الفقراء ، وقال تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، وقيل : السلام بمعنى السلامة ، وقيل : المراد بالسلام الجنة ، سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيى بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم . قال الله

تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم إلى الجنة التى هى دار السلام ، وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يرجو إلا عظيما ، وقد وصف الله تعالى الجنة فى آيات كثيرة من كتابه ، وعن جابر قال : جاءت ملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا ، مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة ، والدار الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم « و » الله يهدى من يشاء « من عباده بما لم يخلق فى قلبه من الهداية » إلى صراط مستقيم « وهو دين الإسلام ، عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا لإظهار الحجة ، وخص بالهداية ثانيا ، إظهاراً للقدرة لأن الحكم له فى خلقه . وقال الجنيد : الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة ، بل الصحبة عامة والانقياد خاص ، وقيل : يدعو بالآيات ويهدى للحقائق والمعارف ، وقيل : الدعوة لله والهداية من الله ، وقال بعضهم : لا تنفع الدعوة لمن لم يستقبل من الله الهداية « للذين أحسنوا » أى بالإيمان « الحسنى » وهى الجنة « وزيادة » وهى النظر اليه تعالى فى الآخرة كما فى الحديث الصحيح : إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا : يا أهل الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون اليه ، فوالله ما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم منه ، والزمخشرى قال فى كشافه : وزعمت المشبهة والمجبرة خلاف ذلك ، لأن المعتزلة ينكرون الرؤية ، ويرد عليهم قول الله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ، فأثبت الله لأهل الجنة أمرين : أحدهما النضارة وهى حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة ، والثانى النظر إلى الله تعالى ؛ وعن ابن عباس رضى عنهما : الحسنى الجنة والزيادة عشرة أمثالها ، وعن الحسن : عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان ؛ « ولا يرهق » أى يغشى « وجوههم قتر » أى سواد « ولا ذلة » أى كآبة وغم يظهر منه الانكسار والهوان

« أولئك » أي هؤلاء الذين وصفهم الله هم « أصحاب الجنة هم فيها خالدون »
إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع لا زوال فيها ولا انقراض بخلاف
الدنيا وزخارفها . ولما بين الله تعالى حال الفضل فيمن أحسن بين حال العدل
فيمن أساء بقوله تعالى « والذين كسبوا السيئات » أي الشرك « جزاء سيئة »
منهم « بمثلها » بعدل الله من غير زيادة . وفي ذلك إشارة إلى الفرق بين السيئات
والحسنات ؛ لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد إلى العشرة إلى
السبعمائة إلى أضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما ، وأما السيئات فإنه
يجازى عليها بمثلها عدلا منه تعالى « وترهقهم » أي تغشاهم « ذلة » عكس أهل
الجنة « مالهم من الله من عاصم » أي مانع يمنعهم من العذاب إذا نزل بهم
« كأنما أغشيت » أي ألبست « وجوههم قطعاً من الليل مظلما » لفرط
سوادها وظلمتها « أولئك » أي هؤلاء الأشقياء هم « أصحاب النار هم فيها
خالدون » لا يتمكنون من مفارقتها « و » أي اذكر « يوم نحشرهم » أي
الفريقين: الناجين والهالكين، العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية ـ
إلى موقف الحساب حال كونهم « جميعا » لا يتخلف منهم أحد وهو يوم
القيامة ، والحشر الجمع بكره إلى موقف واحد « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم »
أي الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم « أنتم » تأكيد
للضمير المستتر في الفعل المقدر « وشركاؤكم » أي من كنتم تعبدونهم من دون
الله « فزيلنا » أي فرقنا « بينهم » أي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان
بينهم من الفواصل في الدنيا، وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن
عبده ، وقيل : فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية « وامتازوا اليوم أيها
المجرمون » والأول أنسب بقوله تعالى « وقال شركاؤهم » لهؤلاء المشركين
« ما كنتم إيانا تعبدون » أي إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث
أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم . واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء
فقال بعضهم : الملائكة ، واستشهدوا بقوله تعالى « ويوم نحشرهم جميعا
ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ، ومنهم من قال : هي الأصنام

والدليل عليه أن هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين ، وسموا شركاء لأنهم جعلوا نصيبا من أموالهم لتلك الأصنام فصيروهم شركاء لأنفسهم فى تلك الأموال ، ثم اختلفوا فى هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام ؟ فقال بعضهم : إن الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام ، وقال آخرون : إن الله تعالى خلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام ، والأول أظهر ؛ لأن ظاهر قوله تعالى : وقال شركاؤهم ـ يقتضى أن يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء ، فإن قيل : إذا أحياها الله تعالى هل يبقيها أو يفنيها ؟ أجيب بأن الكل محتمل ، فإن الله يفعل فى خلقه ما يشاء ، وأحوال القيامة غير معلومة إلا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه ؛ وقال بعضهم: المراد بهؤلاء الشركاء من عبد من دون الله، من إنس وملك وجن وشمس وقمر وصنم ، وهذا أظهر. وعلى هذا فالأول سموا شركاء ، لأن الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى « مكانكم » صاروا شركاء فى هذا الخطاب ، ولما قال شركاؤهم ذلك قالوا : بل كنا نعبدكم ، فقال شركاؤهم : « فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم » . فإنه تعالى العالم بكنه الحال « إن كنا عن عبادتكم لغافلين » أى لم نأمرها ولم نعلم بها ، وعلى القول بأنها الأصنام، فتقول: ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فإنها جمادات لا حس لها بشىء ولا شعور البتة « هنالك » أى فى هذا الوقت من المكان العظيم الأهوال ، المتوالى الزلزال « تبلو » أى تختبر « كل نفس » طائعة وعاصية « ما أسلفت » أى ما قدمت من عمل متعين نفعه وضره يؤدى إلى سعادة أو شقاوة « وردوا إلى الله » أى إلى جزائه عما أسلفوا ؛ فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره « مولاهم الحق » أى ربهم ومتولى أمرهم على الحقيقة ولا التفات إلى سواه من كل الأباطيل ، بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى « وضل عنهم » أى ذهب وبطل وضاع « ما كانوا يفترون » أى يختلفون من أن معبوداتهم شركاء ، وتيقنوا فى ذلك المقام أن عبادتهم غير الله باطل وزور وكذب وافتراء على الحقيقة .

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة يونس وخلاصته :

١ — النفس الإنسانية من شأنها أن تترقب الخير وتستعجله ، وتنأى عن الشر وتحذره ، فلو أن الله عز وجل عجل للمشركين العذاب ، بمقدار حرصهم على تعجل الخير لهم ، لأماتهم الله جميعا ، وقضى إليهم آجالهم ، ولكن الله عز وجل يمهل الكافرين والمشركين ليزيدوا طغيانا وشراً وآثاما ، ولتتبين لهم حقائق الأمور ، وليقطع الله عذرهم لو قالوا : لو أن الأجل امتد بنا لأدركنا الحق إدراكا صحيحاً ، ولآمنا إيمانا عميقا بالله ورسوله وكتابه المبين . ومن شأن النفس الإنسانية أن تفزع للضر والمحنة ، وأن تعرف الله فى الخطوب والشدة ، ولكن الله عز وجل عندما يفرج كروبهم وخطوبهم يعودون إلى الكفر به ، وإلى الشرك وإلى الضلال ، وإلى سابق ما كانوا يعملون ويقترفون . . .

٢ — الأمم التى سبقت أمة العرب لما ظلمت وجارت واستبدت وكذبت بآيات الله ، من بعد أن جاءتهم رسل الله ، واستمروا على الكفر والمعصية ، أهلكهم الله بعذابه ، ثم جعل الله عز وجل العرب خلفاء لهم فى الأرض . لينظر الله عز وجل : كيف يعملون ، ونظر الله عز وجل هنا على سبيل المجاز ، أى ليعاملهم معاملة المنتظر المرتقب : إن رآهم آمنوا وأطاعوا كافأهم على إيمانهم وطاعتهم خير المكافأة ، وإن رأى خلاف ذلك كتب عليهم العذاب والخزى الشديد . . . وكان لهم فى الأمم السابقة عبرة وعظة بليغة لو تدبروا وعرفوا .

٣ — تسجيل تكذيب المشركين لمحمد صلى الله عليه وسلم وللقرآن الكريم ، وما قالوه من أكاذيب وأباطيل ، والرد عليهم ، وإفحامهم ، وتقرير أن محمدا ما كان له أن يفترى شيئاً على الله ؛ لأنه يعرف أنه لا أحد أشد ظلما ممن يفترى الكذب على الله ، وممن يكذب بآياته ، لأنه يضل بذلك الكلام المفترى الناس والجماعات ، بل يضل شعوبا بأسرها .

٤ — تسجيل شرك المشركين من العرب عليهم ، وأن شركهم وما يقدمونه من علل بين يدى هذا الشرك ، وقولهم : إنما نعبد الأوثان لتكون شفعاء لنا عند الله ، كل ذلك مما لا يجوز على عقل ، ولا يصح أن يصدقه إنسان ؛ إن هم إلا كاذبون ، وإن هم إلا ضالون ومضلون ، وإن خلافهم فى الدين لواضح الخطأ ، ظاهر الباطل ، فما كان الناس من قبل إلا أمة واحدة ، ودينا واحداً ، حتى اختلفوا . ولولا سبق قضاء الله بالانتظار عليهم ، وعدم تعجيل العذاب للكافرين لأهلكهم الله .

٥ — تسجيل بعض ما كان يقوله المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ، من طلبهم نزول الآيات البينات عليه من السماء ، وكأنهم لجهلهم وغباثهم نسوا أن القرآن الكريم هو أعظم آية نزلت من السماء .. وقد طلب الله عز وجل من رسوله أن يدعهم وغيهم وأن يتركهم لجهلهم ، وأن يدعهم إلى أمر الله ، لأن أمور الغيب بيده ، والرسول معهم من المنتظرين .

٦ — بيان أن الناس قد جبلوا على نسيان الله فى الرخاء ، فإذا أصابهم خير ورحمة من بعد جهد وشدة وبلاء أصابتهم ، أسرعوا فى المكر وفى العصيان والكفر ، وفى الشرك واللجاج ، وقد حذرهم الله عز وجل بأن ملائكته تكتب مكرهم ، وسوف يجازيهم الله عليه : مكراً بمكر ، وشراً بشر . .

٧ — ذكر مثل من أمثلة لجاج الناس وكفرهم ؛ الله عز وجل علم الناس ركوب البحر والسير فيه كما يسيرون فى البر ، سواء بسواء ، وكثيرا ما يركب الناس السفن ، والريح رخاء طيبة ، فلا يلبثون أن يجيئهم ريح عاصف ، وأن يجيئهم الموج من كل مكان ، فيعرفون الموت ويشاهدونه عيانا ، فيقبلون على الله يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون ويعلنون الإيمان ، ولكنهم لا يلبثون أن ينجيهم الله حتى يعودوا إلى كفرهم ومعاصيهم وشرورهم وباطلهم . . . والله عز وجل ينذر الناس ويحذرهم ، ويؤكد لهم أن بغيهم إنما هو على

أنفسهم ، لهم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله عز وجل مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون . ويضرب الله عز وجل المثل واضحا جليا لسرعة فناء الدنيا وزوالها بسرعة ذبول الأزهار والأشجار ، وها نحن أولاء نعيش فى حضارة عجيبة وبين مدنية غريبة ؛ العقل وصل إلى كثير من أسرار الله ، حتى حاول أن يصل إلى الكواكب والنجوم والأقمار . . . والأرض أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . فهل قد جاء موعد قيام الساعة ؟ هل وقعت الواقعة ؟ هل اقتربت القيامة ؟

٨ — تقرير أن الله عز وجل ورسوله وكتابه الحكيم إنما يدعون إلى الخير والرشاد وإلى النعيم والجنة ، وإلى صراط مستقيم . إن دين الإسلام دعوة إلى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة وإلى كرامته ، هذا النور الإلهى العظيم ، الذى انبثق من السماء ، وأضاءت شعلته الأرض ، وحمل رسالته محمد ابن عبد الله ، ونشرها فى الخافقين خلفاؤه وأصحابه ؛ هذا النور هو شريعة الإسلام المطهرة ، ودين الإنسانية الخالد ، وعقيدة الأحرار والأبرار من كل جنس ولون : وما أجل الإسلام شريعة رفيعة الأركان ، وعقيدة كتابها المنزل هو القرآن ، ودينا إنسانيا عاما ، دان به المشرق والمغرب ، وسعدت به الحياة أحقابا طوالا . والإسلام ليس دين رهبنة وكهانة وطلاسم ومعميات ، ورسوم وألغاز ، ولكنه قبل وبعد كل شىء دين الحياة والحضارة والنهضة ، دين شعاره العمل ، ودعوته الجهاد من أجل تقدم الإنسانية وارتقاء الحضارة ، وأصوله الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة والسلام ، وجميع شعائره تهدف إلى خير الحياة والإنسان والمجتمعات والشعوب ، وفى كل عمل من أعماله ، وواجب من فروضه ، تذكير بالله ، وإيقاظ للضمير ، وتمجيد للمثل العليا ، والمبادىء الكريمة ، والأخلاق الفاضلة ، والآداب المهذبة . دين يوحد بين الناس ، ويجمع بين الشعوب ، وينظر إلى البشرية كافة نظرته إلى أمة واحدة ، وجماعة متحدة ، دين يسع كل رأى ، وتحترم أصوله كل فكرة ، ويوفر لكل إنسان كرامته وحريته ، وحقوقه

الطبيعية فى الحياة . كان الإسلام ولا يزال ثورة عامة على الجمود والرجعية والفساد والجور والاضطهار والاستعباد ، وشهابا ثاقبا يرمى به أعداء التقدم والرقى والإنسانية ، وخصوم الإيمان والسلام ، وأعوان الشر والظلم والظلام . نزلت رسالته المقدسة على أشرف إنسان فى الوجود ، وفى أرض الصحراء العربية البعيدة عن الحضارة والعمران والمعرفة ، ودعى إليه - أول مادعى إليه - قوم كانوا يعيشون فى ظلمات الجاهلية الأولى وأوثانها وأباطيلها ، وبعد قليل ، حينما امتلأت نفوس المسلمين بآدابه وشريعته وأصوله وأحكامه ، إذا البركان ينفجر والثورة تشتعل . وهذا العربى القح الذى كان يعيش فى عزلة تامة عن الحياة ، يحمل فى يمناه الرسالة ، وفى قلبه حرارة الإيمان ، وفى روحه ثورة الحرية ، ثم يندفع ليخلص الشعوب من جور الحكام ، وليحرر العبيد من رق أبدى لا مسوغ له ، وليعلى كرامة المرأة فى الحياة ، ويعتبرها إنسانا ذا روح له إرادته وكرامته ورأيه فى المجتمع ، وليرتفع بالفقير إلى مصاف الغنى ، وبالعامل إلى مستوى صاحب العمل ، وبالفلاح والخادم وأمثالهما إلى نطاق من الكرامة الإنسانية وحق الحياة . ثم إذا هذا العربى الذى انطلق من الصحراء ، يؤثل للحضارة والمعرفة الصروح السامقة ، ويبنى للمدينة أركانا قوية ، يدعمها الفكر والعقل والروح والبدن ، وإذا هو الذى تستعز به الشعوب المغلوبة على أمرها ، لينقذها من الجور والظلام ، وإذا هو منشىء الجامعات ، ومحرر العقول ، وواضع أصول المدنية ، والداعى إلى الإنسانية الرفيعة فى كل شىء ، ثم يصير سيد الدنيا ، وحاكم الأرض ، ومدمر عروش الطغاة من الملوك والقياصرة . الإسلام وما أعز الإسلام فى الأرض . وأعذب لفظه فى الأفواه وأجمل معناه فى القلوب ، هو هو الدين الخالد ، وخاتم الرسالات إلى الأرض .

٩ — بيان جزاء الناس على اختلافهم وعلى اختلاف موقفهم من محمد ورسالته : للذين أحسنوا وآمنوا الحسنى وزيادة ، ولهم النعيم والخير ، وللكافرين والعاصين الشر والوبال والنكال والعذاب الشديد ، وسوف يحشر الناس جميعا إلى الله يوم القيامة ، فيقف المشركون صاغرين أذلاء ، يتجادلون

هم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فيفرق الله عز وجل بينهم ، لأنه ليس فى حاجة إلى أن يشهد أحد على أحد ، فكفى بالله شهيدا على كل شىء. ويوم القيامة تختبر كل نفس عملها الذى قدمته فى الدنيا ، فالعمل الصالح المقبول عند الله هو الذى ينفع صاحبه ، والعمل الباطل يرفضه الله ويعذب عليه ، يوم القيامة يغيب عن المشركين افتراؤهم ومزاعمهم وأكاذيبهم وضلالهم، وتغيب عنهم قدرتهم على الجدل والحجاج ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الثالث من سورة يونس

٣١ — قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

٣٢ — فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

٣٣ — كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

٣٤ — قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

٣٥ — قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

٢٦ – وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

ست آيات كريمة فى الرد على المشركين وتسفيه عقولهم ، ولفت أنظارهم إلى مدبر الأرض والسماء ، وخالق الكون والحياة ورازق الناس ، وواهب السمع والبصر ، ومخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ومدبر الأمر ؛ إلى الله المعبود الحق ، إلى بادىء الخلق ومعيده ، إلى الهادى ، إلى الحق ، وإلى سواء السبيل . . لعلهم يؤمنون ويعتبرون .. ويقرر الله عز وجل فى الآية الأخيرة أن عبادة المشركين ما هى إلا ظنون وأوهام ، ولا تستند على حقائق ثابتة .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة .

« قل من يرزقكم من السماء » بالمطر « والأرض » بالنبات ، والأولى التعميم ، فكل أنواع الثروة النازلة من السماء أو المستخرجة من الأرض كالثروة البترولية والثروة المعدنية وسواها ، هى رزق من الله يرزق به عباده « أم من يملك السمع » أى الأسماع « والأبصار » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، وعن على رضى الله تعالى عنه كان يقول : سبحان من أبصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم « ومن يخرج الحى من الميت » كأن يخرج الإنسان من النطفة والطير من البيضة « ويخرج الميت من الحى » كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر ، وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن « ومن يدبر الأمر » أى ومن يلى تدبيرا من الخلائق ، وهو تعميم بعد تخصيص ، والمراد تدبير أمور الكون والوجود والخلق فى السماء والأرض ؛ ثم بين الله تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال « فسيقولون الله » أى لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه ، وإذا كانوا يقرون « فقل » لهم يا محمد « أفلا تتقون » الشرك ، مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة إنما تحصل بفضل الله تعالى وإحسانه « فذلكم الله ربكم

الحق ، أى الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه ، وإذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين ، فإذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا ، كما قال تعالى « فماذا بعد الحق إلا الضلال » إذ لا واسطة بينهما ، فهو استفهام تقريرى أى ليس بعده غيره ، فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال وهو الكفر أو الشرك بالله تعالى وارتكاب المعاصى. ولذلك سبب عنه قوله تعالى «فأنى» أى وكيف ومن أى جهة « تصرفون » أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق « كذلك » أى كما حققت الربوبية لله تعالى أو أن الحق بعد الضلال أو أنتم منصرفون عن الحق « حقت كلمة ربك » فى الأزل « على الذين فسقوا » أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا على حد الاستصلاح « أنهم لا يؤمنون » بدل من (الكلمة) أى حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك ، والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو « لأملأن جهنم » الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى : لأنهم لا يؤمنون ، أو ذلك تفسير لكلمته التى حقت « قل » أى قل يا محمد لهؤلاء « هل من شركائكم » الذين زعمتموهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزرعكم « من يبدأ الخلق » كما بدأ به ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة « ثم يعيده » كما كان ، فإن قيل: هم غير معترفين بالإعادة فكيف احتج عليهم الله تعالى بها كالابتداء فى الإلزام بها ، فالجواب أنها لظهور برهانها وإن لم يقروا بها وضعت موضع ما إن دفعه دافع مكابراً ، رادا للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، دلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم فى الجواب بقوله تعالى : « قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده » لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها « فأنى » أى فكيف «تؤفكون» عن عبادته مع قيام الدلائل ، والفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام أن الكلام إذا كان ظاهراً جليا وذكر على سبيل الاستفهام ـ كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب . .

والحجة الثالثة قوله تعالى : « قل » أى قل يا محمد لهم « هل من شركائكم من

يهدى إلى الحق » بنصب الحجج وخلق الاهتداء وإرسال الرسل ، ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق فى ذلك أو معاندين ـ أمر الله تعالى رسوله أن يجيب بقوله تعالى « قل الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « يهدى للحق » من يشاء لا أحد ممن زعمتموهم شركاء ، فالاشتغال بشىء منها بعبادة أوغيرها جهل محض، قال الزجاج : يقال : هديت إلى الحق وهديت للحق بمعنى واحد ، وقوله تعالى « أفمن يهدى إلى الحق » أى وهو الله تعالى « أحق أن يتبع أمن لا يهدى » أى يهتدى « إلا أن يهدى » أحق أن يتبع ، استفهام تقرير وتوبيخ، أى الأول أحق « فما لكم كيف تحكمون » هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع ، وقوله تعالى: « وما يتبع أكثرهم » فى تفسيره وجهان : الأول : وما يتبع أكثرهم فى إقرارهم بالله تعالى « إلا ظنا » لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم ؛ الثانى : ومايتبع أكثرهم إلا ظنا فى قولهم للأصنام آلهة وأنها شفعاء عندالله إلا الظن ، حيث قلدوا فيه أباءهم ، قال الرازى : والقول الأول أقوى ، لأنا فى القول الثانى نحتاج إلى تفسير الأكثر بالكل « إن الظن لا يغنى من الحق » فيما المطلوب فيه العلم « شيئاً » من الإغناء ، فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا فى مسائل الأصول وما كان قاطعا لا يكون على الحق ، وقول أهل السنة: أنا مؤمن إن شاء الله؛ يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر، وقد أجاب الرازى بأن هذا ضعيف من وجوه :

الأول: أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، فالشك حاصل فى أن هذه الأعمال هل هى موافقة لأمر الله تعالى،

الثانى : أن الغرض من قوله : إن شاء الله بقاء الإيمان عند الخاتمة .

الثالث : الغرض هضم النفس وكسرها « إن الله عليم » أى بالغ العلم « بما يفعلون » أى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه .

وهذه الآية الكريمة « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ترشد إلى وجوب ابتناء العقائد على أصول قوية واضحة ثابتة ، وإلى وجوب قيام العلم على اليقين لا على الشك ، وإلى أن الظن لا قيمة له فى

العلم ، ولا يغنى من الحق شيئا ؛ والآية تضع أصلا جبارا من أصول الإسلام ، هو وجوب بناء العقائد على اليقين العلمى لا على الشكوك والأوهام ، وهذا من شأنه لو طبق تطبيقا كاملا فى جميع الأمم أن يوحد بينهم فى العقيدة ، وأن يقرب بينهم فى موازين العلم ، وأن ينفى الكثير من الأوهام والظنون التى دخلت إلى العقل من باب العلم ..

أما الآية الكريمة الأولى من هذه الآيات « ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » الخ فهى دليل معجزة إلهية عجيبة ، ويقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى ذلك : قيل فى التفسير : إنشاء الحى من النطفة والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى ، فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والتفسير الحقيقى هو أن (إخراج الحى من الميت) كما يحصل من أن الحى ينمو بأكل أشياء حية يحصل بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره والغذاء شىء ميت ، ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هى أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت الخ .. إلا أننا نلاحظ أن ما فسر به الآية الكريمة يبتعد عما يتبادر إلى الذهن من لفظ (يخرج) ، فإن الظاهر أن هذا الذى أخرج شىء جديد مستقل الوجود . لا أنه نمو وكبر لشىء موجود فى الأصل ، وأن المشار إليه فى الآية الكريمة هو قانون التوالد السارى فى الحيوان . وإن شئت فقل : قانون التوالد فى الحيوان والنبات . ذلك أن الحيوان المتولد قد تولد من شىء ولا بد أن تنتهى سلسلة التوالد فيه إلى خلقة ميتة ، فإذن لم يصح أنها النطفة ـ لأن النطفة حيوانات حية أو فيها حيوانات حية ـ فليكن هو الغذاء الذى نشأت عنه النطفة ، ولا شك أنه شىء ميت كما قرره . فإذا قيل : إن الغذاء حيوان أو نبات وكل منهما فيه معنى الحياة فى الجملة ، قلنا : فلنرجع إلى ما امتصه النبات حتى نما ، فلا بد من الوصول البتة إلى شىء ميت خرج منه هذا الحى ، ويشاهد ذلك كل يوم . فالحياة تتجدد فى الأحياء وتستمد مادتها فى ماضى

سلسلتها حتى تصل إلى شيء ميت ، ولو كان هو التراب الذى يمد النبات .

إن مزية القرآن الكريم أنه صالح فى الفهم والفائدة لكل الطبقات ، لا يتوقف فهمه على متعمق فى العلم . فإذا ما كشف العلم حقيقة كانت غائبة تجلى فهم القرآن العظيم بمظهر أرق ، وهكذا لا تنقضى عجائبه . وما يدريك فلعل قائلا يقول : إن التراب الذى يغذى النبات يحتوى على جراثيم فيها نوع حياة تهتز وتربو حين ينزل عليها الماء فتغذى النبات فيخرج منها خروج حى من حى ، فنقول له حينئذ : وهذه الجراثيم خارجة من تراب ميت ، فلابد أن تصل إلى إخراج الحى من الميت . فالحياة البتة طارئة بعد موت . وكما تطرأ الحياة بعد الموت يطرأ الموت بعد الحياة ، فتتعاقب الأطوار على المادة الواحدة بقدرة القادر المختار . وأطوارها متلاحقة ، ودرجات التفضيل بينها خفية ، فتفهم منها كل طبقة بحسب مقدارها .

٣٧ — وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٣٨ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

٣٩ — بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٠ — وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ .

٤١ — وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ

مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ .

٤٢ — وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .

٤٣ — وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ .

٤٤ — إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

فى هذه الآيات الثمان رد على مزاعم المشركين فى القرآن الكريم ، وعلى ما اقترفوه من أن محمداً هو صاحب القرآن ، وهو الذى افترى نسبته إلى رب السماء ، يقول الله عز وجل فى الآية الأولى : إن القرآن ما كان له أن يفترى من أحد دون الله ، ما كان لأحد أن يؤلفه غيره ، أو يكتبه سواه ، إنه معجزة ضخمة ، وآية كبيرة ، وموسوعة لم يحط بها أحد ، وأفكار جديدة لها قيمتها الإنسانية والروحية والفكرية .. إن ما اشتمل عليه القرآن من روعة وحق وصدق جدير بأن يؤكد أنه كتاب الله وأنه ليس كتاب أحد من الناس ، إنه تصديق للذى بين يديه من الكتب السماوية ، وهو تفصيل لما سبقه من كتب ، وهو لا ريب فيه ، وهو تنزيل من رب العالمين . . وفى الآية الثانية ، رد على المشركين على وجه التحدى ، كان الرد الأول تمجيداً للقرآن وبيانا لخصائصه وأوصافه ، أما الرد الثانى فهو التحدى بالقرآن ، هو الطلب من المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، وقد سبق التحدى بسورة من القرآن فى الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة أيضا ، وفى هذه الآية الثامنة والثلاثين من سورة يونس يقول الله عز وجل : وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، وفى آية البقرة : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .. أما الآية الثالثة فهى تسجيل على المشركين بأنهم كذبوا بالقرآن

العظيم ، بهذا الكتاب السماوى الكريم ، بهذا البحر الخضم الذى لم تحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم بعد تأويله ، كذبوا بذلك كما كذب الذين من قبلهم ، بالأنبياء والرسل والكتب السماوية . . فتعجب أيها الإنسان كيف كان عاقبة الظالمين . وفى الآية الرابعة تسجيل للحقيقة كاملة . . إن من الناس من يؤمن بالقرآن ، ومنهم من لا يؤمن به ، والله أعلم بالكافرين وبالمفسدين ؛ إنه عليك يا محمد إذا كذبوك أن تقول لهم : لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون . . إن من المشركين من يستمعون إلى القرآن ولكن آذانهم صماء لا تسمع الحق ولا تهتدى به ، ومنهم من ينظرون إلى الرسول ولكن نظرة حيرة وإشفاق ، ولكن محمدا لا يهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وما كان هذا القرآن » أى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، اسم موصول أتى به للتعظيم ، وكان كفار مكة زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن من عند نفسه ، فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحى أنزله عليه ، وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأن لا يقدر عليه أحد إلا الله . . . ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى « ولكن » أنزل « تصديق الذى بين يديه » أى قبله من الكتب الذى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل ، فثبت بذلك أنه وحى من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه معجزة له ، فإنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يجتمع بأحد من العلماء ، ثم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز ، وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين ؛ وقيل : تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث « وتفصيل الكتاب » أى تبيين ما كتب الله من الأحكام وغيرها « لا ريب » أى لا شك « فيه » وقوله تعالى « من رب العالمين » خالق الأرض والسماء « أم » أى بل « يقولون افتراه » أى اختلقه محمد ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار « قل » أى قل لهم يا محمد : إن كان الأمر كما يقولون « فأتوا بسورة مثله » فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ، فأنتم عرب مثله فى البلاغة والفطنة ، وهل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور

الكبار ؟ الجواب أن هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة ، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه هكذا أجاب الرازى.. والأولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا بأقصر سورة ، وقال فى سورة البقرة : سورة من مثله ، وقال هنا : بسورة مثله ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لأحد ، فقيل فى سورة البقرة : فأتوا بسورة من مثله ـ بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى فليأت إنسان يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة ، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز ، فهذا لا يدل على أن السورة فى نفسها معجزة ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذة معجزة ، ثم بين تعالى فى هذه السورة أن السورة فى نفسها معجزة ، فإن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالبوا وتفكروا لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور ، وهو المراد من قوله تعالى « وادعوا من استطعتم » أى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به « من دون الله » أى غيره ، فإنه تعالى وحده قادر على ذلك « إن كنتم صادقين » أى فى أنى أتيت به من عندى ، لأن العاقل لا يجزم بشىء إلا إذا كان عنده مخرج ، وذلك لا يكون إلا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر . . هذا ومراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة :

أولها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثانيها : أنه تحداهم بعشر سور ، فقال تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » . كما فى سورة هود .

ثالثها : أنه تحداهم بسورة واحدة قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » .

رابعها : أنه تحداهم بحديث مثله .

خامسها : أن فى تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذة والتعلم ، ثم فى هذه

السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان ، سواء تعلم العلوم أم لم يتعلم .

سادسها : أن فى المراتب المتقدمة تحدى واحد من الخلق ، وفى وهذه المرتبة تحدى جميعهم ، وجواز أن يستعين البعض بالبعض فى الإتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى « وادعوا من استطعتم من دون الله » .

وهنا آخر المراتب؛ فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله فى إثبات القرآن وإعجازه .

ثم إن الله تعالى ذكر السبب الذى لأجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى « بل كذبوا » أى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب أشنع منه ، مسرعين فى ذلك « بما لم يحيطوا بعلمه » أى القرآن أول ماسمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا أو طغيانا ونفورا مما يخالف دينهم؛ فهو من باب من جهل شيئا عاداه ، والإحاطة إدارة ماهو كالحائط حول الشىء ، وإحاطة العلم بالشىء العلم به من جميع وجوهه « ولما يأتهم » أى إلى زمن تكذيبهم « تأويله » أى تأويل مافيه من الإخبار بالغيوب وعاقبة مافيه من الوعيد حتى تبين لهم أنه صدق أم كذب . . ومعنى التوقع فى « لما » أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدى ، فجربوا قولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ، ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا « كذلك » أى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر العجز « كذب الذين من قبلهم » أى من كفار الأمم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم « فانظر » يامحمد « كيف كان عاقبة الظالمين » بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك . فكذلك يهلك من كذبك من قومك ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس ، والمعنى : فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم ، فاحذر أن تفعل مثل فعله « ومنهم » أى من قومك يا محمد « من يؤمن » أى بالقرآن ، أى يصدق « به » فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب « ومنهم من لا يؤمن به » فى نفسه لغباوته وقلة تدبره ، أو منهم من يؤمن به فى المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالإيمان ، ومنهم من يصر ويستمر على الكفر ، وإنما فسرت

هذه الآية بهذين التأويلين لأن كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال « وربك أعلم بالمفسدين » أى المعاندين على التفسير الأول والمصرين على التفسير الثانى، وفى ذلك تهديد لهم « وإن كذبوك » أى وإن يكذبوك يا محمد بعد إلزام الحجة «فقل» لهم «لى عملى» من الطاعة وجزاء ثوابها « ولكم عملكم » من الشرك وجزاء عقابه، أى فتبرأ منه ، فإن قلت ذلك فقد أعذرت ، والمعنى : لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا «أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون» لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم . واختلف فى معنى ذلك ، فقيل : معنى الآية الزجر والردع ، وقيل معناها : استمالة قلوبهم ، وقال مقاتل والكلبى : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقال الرازى : وهذا بعيد ، لأن الشرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وذلك لا يقتضى حرمة القتال ، وآية القتال ما رفعت شيئا من مدلول هذه الآية ، فكان القول بالنسخ باطلا .

ولما قسم الله تعالى الكفار قسمين : منهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، قسم من لا يؤمن قسمين : منهم من يكون فى نهاية البغض والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فوصف القسم الأول فى قوله تعالى : « ومنهم » أى من هؤلاء المشركين « من يستمعون إليك » أى إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع بأسماعهم الظاهرة ، ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك ، فإن الإنسان إذا قوى بغضه لشىء وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه « أفأنت تسمع الصم » أى أتقدر على إسماعهم « ولو كانوا » مع الصمم « لا يعقلون » لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى سمعه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر ، فكما أنك لا تقدر على إسماع الأصم الذى لا يعقل لا تقدر على إسماع من أصم الله تعالى قلبه ، فإن الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يستمعون ، ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ، ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى : « ومنهم من ينظر إليك » أى يعاينون دلائل نبوتك ولا يصدقونه « أفأنت تهدى العمى » أى أتقدر على هدايتهم

« ولو كانوا » مع العمى « لا يبصرون » أى لا بصيرة لهم، لأن الأعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحسن ويتفطن، فأما الأعمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته ؛ فهؤلاء اليأس منهم من أن يقبلوا ويصدقوا أولى ، فالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله تعالى .. واختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال : السمع ، واحتج على ذلك بأمور منها : تقدمه فى الآية ، ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب ، والقوة الباصرة لا تدرك المرئى إلا من جهة واحدة وهى المقابل ، ومنها أن الإنسان إنما يستفيد العلم من التعلم من الأستاذ ، وذلك لا يكون إلا بقوة السمع ، ومنها أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رآهم الناس وسمعوا كلامهم ، فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية ، إنما حصلت بسبب ما معهم من الأحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام ؛ ومنهم من قال : البصر أفضل ، واحتج بأمور ، منها أن القوة الباصرة هى النور وأن القوة السامعة هى الهوى ، والنور أشرف من الهوى ، ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر ، بذهابه يصبح معيبا ، وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيبا فى جمال وجهه ، والعرب تسمى العينين الكريمتين ، ولا تصف السمع بمثل هذا ، وفى الحديث يقول الله تعالى : من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ، ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور : ليس وراء العيان بيان ، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار ، ومنها أن كثيراً من الأنبياء سمعوا الله . واختلفوا فى : أنه هل رآه منهم أحد منا أم لا ؟ وأيضاً فإن موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس ، فلما طلب الرؤيا ، قال له الله تعالى : لن ترانى ، وهذا هو الظاهر .. ولما حكم الله تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً » أى أنه تعالى فى جميع أحواله متفضل وعادل ، فيتصرف فى ملكه

كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما ، وإنما قال تعالى : « ولكن الناس أنفسهم يظلمون » لأن فعلهم منسوب إليهم بسبب الكسب ، وإن كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا ؛ وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرة .

فى هذه الآيات الثمان رد الله عز وجل على المشركين أبلغ رد ، وكشف عن عقولهم الصغيرة ، وعن نفوسهم الحقيرة ، وعن منطقهم الأعوج ، وعن تفكيرهم الأحمق ، وعن كذبهم فى نسبتهم القرآن إلى محمد ، وقد فند الله عز وجل قولهم هذا وآراءهم عامة فى القرآن الكريم ، ورد عليهم بحجج منطقية معقولة وأبان عن سفههم وجهلهم ، وجعلهم مسئولين عن عملهم ، وعاقبة تصرفهم لهم أو عليهم ؛ وهم بذلك وبالشرك الذى انغمسوا فيه قد ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

٤٥ — وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

٤٦ — وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ .

٤٧ — وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

٤٨ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

٤٩ — قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ

أَجَلٌ إذا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

٥٠ — قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ .

٥١ — أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُمْ بِهِ ءَآلْئَٰنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

٥٢ — ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

ثمان آيات كريمات فيها تذكير للمشركين بمصيرهم يوم القيامة ، يوم يجمعهم الله للحساب ، فيخسر المكذبون بلقاء الله ، والمنكرون لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه الحكيم . . يوم يرجعون إلى الله ، فينبئهم بما عملوا ، والله شهيد على ما يفعلون . . وقد هدد الله عز وجل المشركين فى الآية الثانية بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم إن استمروا على ما هم عليه ، وفى الآية الثالثة يذكر الله عز وجل أن لكل أمة رسولا من عند الله يذكرهم بالدين الحق ، ويرشدهم إليه ، فإذا جاءهم رسولهم ، فلا يلبث الناس أن يقوموا للحساب الحق ، وللقضاء القسط ، فيفصل الله بينهم بموازين إلهية عادلة ، لا يظلمون شيئاً . . والآية الرابعة تشير إلى تعجل الكافرين والمشركين للعذاب ، ولقيام الساعة ، وقد رد الله عز وجل عليهم فى الآية الخامسة ، بأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، وبأنه لا يملك استعجال يوم القيامة ، وبأن لكل أمة أجلا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون . . . والآية السادسة تشير إلى سفه المشركين باستعجالهم عذاب الله ، وإلى أن هذا الاستعجال لا يفيدهم شيئاً ، وفى الآية السابعة بيان لطبيعة النفس الإنسانية من معرفة الله عند الشدة ، وأن المشركين لو وقع عليهم عذاب الله الذى يستعجلونه لدفعوا إلى الإيمان دفعا ، حيث لا يجدى إيمان ولا ينفعهم حينئذ رجوع إلى الله ؛ ولو أنهم آمنوا الآن لكان

ذلك أجدى لهم من أن يؤخروا الإيمان إلى حين نزول العذاب ، فلا ينفعهم ، ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟ كما تذكره الآية الثامنة .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار » ، نعم إن جمع الله الناس جميعا فى صعيد واحد للحساب والجزاء يوم القيامة ، لن يكون لأمد طويل ولا لسنين وأعوام ، ولكنه ساعة من نهار ، لا يقضى الناس فى الحساب إلا هذا المقدار الزمنى المحدود ، وقد يكون تصور ذلك غريبا على العقل ، وبعيدا عن التصور ، ولكنها قدرة الله وعظمته وجلاله وهيمنته وسلطانه وجبروته . . إن حساب الخلق كلهم لن يستغرق عند الله أكثر من ساعة من النهار . . يالها من معجزة إلهية جليلة ، ومن أمر عجيب غريب ، لا يمكن أن يفهم حقيقته عقل إنسانى محدود ، لا يستطيع أن يتصور الكثير من أمر نفسه وأمور الحياة ؛ فكيف يتصور قدرة الله وعظمته ؟ . . « يتعارفون بينهم » أى يعرف الناس بعضهم بعضا ، يوم يجمعهم للحساب فى الآخرة . . « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » أى قد لقى المكذبون والمشركون والكافرون يوم الحساب الخسران والفشل والهزيمة والبوار لأنهم لم يؤمنوا فى الدنيا ، ولم يصدقوا برسالة محمد وما كانوا على هدى ولا على نور ولا على بينة من الله . . « وإما نرينك بعض الذين نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » أى لو أريناك يا محمد فى الدنيا بعض ما وعدنا المشركين والكافرين به من عذاب لرأيت أمرا عظيما لا يمكن أن يتحمله إنسان ، ولو توفيناك فشاهدت ذلك فى الآخرة لما تحملت رؤية الآلام التى تنزل بهم . وقد حذف جواب لو وهو لرأيت أمرا عظيما ، وقد أقيم مقامه قوله تعالى « فإلينا مرجعهم » أى رجوعهم للحساب والجزاء . . أى لو أريناك فى الدنيا عذابهم أو أريناك إياه فى الآخرة ، لرأيت أمراً عظيما فادحا ، فإلينا رجوعهم ومصيرهم وعودتهم للحساب والجزاء ، ثم لا يشهد

عليهم أحد إلا الله ، الذى يشهد على مافعلوا فى الدنيا من ذنوب وآثام ومن كفر وشرك . . وفى هـذا الأسلوب تهديد ووعيد لهم ، أى أنه تعالى شهيد على أفعالهم الذى فعلوها فى الدنيا وسيجازيهم عليها يوم القيامة : إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر . . ولما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، بين كذلك أن حال كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك . فقال تعالى « ولكل أمة رسول » أى لـكل أمة من الأمم التى خلت من قبلك يا محمد رسول يدعوهم إلى الله تعالى ، ويرشدهم إلى الدين الحق .. على أن كل ما قرأناه عن الرسل محصور فى الذين أرسلوا إلى الأمم القائمـة فيما بين الفرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والنيل ، وقد يقال : ولمـاذا لم يرسل الله تعالى رسلا إلى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القـديم كجنوب أفريقيا وشمال أوربا ، وشرق الروسيا ؟ هل ذلك لأن هذه البقاع هى التى ازدهرت فيها الحضارة ، وعمرت بالخلائق ، فانتشروا منها فى كل بقعة حاملين معهم الموسوية والعيسوية إليها ، إنى لأقول : إنه إذا رقى توجيه هـذا السؤال إلى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه إلى الإسلام ، لأن فى كتابه الجواب الشافى عليه ، قال تعالى فى هذه الآية : « ولكل أمة رسول » وقال كذلك : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ؛ والمعنى : ما من أمة إلا قام فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » . وهـذا كلام صريح فيما نحن بصدده ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها فى هداية الرسل ، فأرسل اليهم رسله تترى ليعلموهم مايجب عليهم أن يعلموه ويعملوه ، ولـكنه لم يقص سيرهم أجمعين ، والحـكمة فى هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فان عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وجود الإنسان على الأرض يجب أن يكون من الـكـثرة بحيث لاتسع أسماءهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الـكلام عنهم إجمالا فى آيات كثيرة ، قال الله تعالى : ثم أرسلنا رسلا تترى ـ أى تتوالى ـ كلما جاء أمة رسولها كـذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ،

فبعداً لقوم لا يؤمنون ، ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ، وهذا هو الذى حدث خلال التاريخ ،

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لأتباع الدينين اللذين سبقاه ، فلأن فى ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يغنى عنها الإجمال الذى أتى به فى هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتى زمان تتصل فيه الأمم اتصالا وثيقا بما يكتشف من وسائل الانتقال ، فيتسائل الناس : ألم يرسل الله رسلا إلى الأمم التى لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولم حرموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، فالإلمام بهذه المسألة فى الكتاب على هذا النحو الشافى المعجز يعتبر آية يوجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذى يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهى عند الحدود التى وصلوا اليها ، وأما ما عداهم من الجماعات فهمج رعاع ، لا يعنى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحيوانات .

ومما يزيد فى عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألم بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل اليهم فكانوا لا يرفعون بهدايته رأسا ، وكانوا منهم يسخرون ، فقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» ، وقال تعالى : يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير فى القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت إلى العهد الذى كان ينزل فيه القرآن ، وهى قولهم : إن أديان الجماعات الإنسانية فى جميع أدوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان فى تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم فى الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينبذوا ما أتاهم من الوحى ظهريا ، دافع حاسم

لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التى احتك بها الأوربيون فى فتوحاتهم الأمريكية والأفيانوسية والإفريقية ، لاتزال محافظة على أوهامها رغما عما جاءوهم به من التعاليم النصرانية ، وليس يخفى أنهم حاولوا تنصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا إلى ما أرادوا بعد صرفهم قناطير مقنطرة من الأموال فى هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هـــذا : إن الله لم يرسل إليهم رسلا .
« فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » فيه إضمار تقديره فإذا جاء رسولهم و بلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى) أى حكم وفصل بينهم بالقسط أى بالعدل ؛ وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان: أحدهما أنه فى الدنيا ، بأن يهلك الكافرين وينجى رسوله والمؤمنين، لقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » والثانى أنه فى الآخرة ، وذلك أن الله تعالى إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى : وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ، والمراد منه المبالغة فى إظهار العدل وهو قوله تعالى : « وهم لا يظلمون » فى جزاء أعمالهم شيئا بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء « ويقولون متى هذا الوعد » الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة ، وأيضا قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد « إن كنتم صادقين » أى فيما تعدنا به ، وإنما قالوا ذلك بلفظ الجمع على سبيل العظيم أو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وإن كان كل أمة قالوا لرسولهم مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى : « ولكل أمة رسول » قال الله تعالى «قل» أى قل لهم يا محمد « لا أملك لنفسى ضرا » من مرض أو فقر أدفعه « ولا نفعا » من صحة أو غنى أجلبه « إلا ما شاء الله » عليه ؛ فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ، ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى « لكل أمة أجل » أى مدة مضروبة « إذا جاء أجلهم » أى انقضت مدة أعمارهم « فلا يستأخرون » أى لا يتأخرون عنه « ساعة » . . وقد عطف على هذه الجملة

الشرطية بكمالها جملة أخرى هى قوله تعالى « ولا يستقدمون » أى ولا يتقدمون، أى ولا يستعجلون فان الوفاء بالوعد لا بد منه والسين ، فيهما بمعنى الوجدان ، ويجوز أن يكون المعنى : لا يجدون التأخر ولا التقدم وإن اجتهدوا فى الطلب ، فيكون فى السين معنى الطلب ، ونزول الآية على أن أحدا لا يموت إلا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه « قل » لهم يا محمد أيضا « أرأيتم إن أتاكم عذابه » الذى تستعجلون به « بياتا » فى الليل بغتة كما يفعل العدو « أو نهارا » أى وقتا أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب « ماذا » أى أى شىء « يستعجل منه » أى من عذابه وعذاب كل مكروه لا يحتمل شىء منه « المجرمون » أى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجىء الوعيد لا أن يستعجلوه وجواب الشرط (إن) محذوف تقديره : (تندموا على الاستعجال) ، أو : (تعرفوا وجه الخطأ فيه) ، وقد وضع مكان الجواب المحذوف قوله تعالى : (ماذا يستعجل منه المجرمون) . .

وقوله تعالى : « أثم إذا ما وقع » أى إذا ما حل بكم العذاب « آمنتم به » أى بالله أو بالعذاب وقت نزوله وهو وقت اليائس .. والهمزة فى (ثم) لإنكار التأخير ، والمعنى أنه لا يقبل منكم الإيمان حينئذ « الآن » أى قيل لهم إذا آمنوا وقت نزول العذاب : الآن « وقد كنتم به » أى بالعذاب « تستعجلون » أى تكذيباً واستهزاء . . « ثم قيل للذين ظلموا » عطف على القول المقدر ، أى : قيل لهم الآن ، ثم قيل للذين ظلموا « ذوقوا عذاب الخلد » أى الذى تخلدون فيه ، والإتيان بثم إشارة إلى تراخى ذلك عن الإهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ مدة طويلة ، أو إلى أن عذابه أرفق من عذاب يوم القيامة . . والمعنى على هذا أنهم إذا وقع بهم ما كانوا يستعجلونه من العذاب فأشرفوا على الموت آمنوا ، حيث لا ينفع إيمان ، وقيل لهم وقت موتهم : آلان ؟ ثم قيل لهم يوم القيامة : ذوقوا عذاب الخلد . . فجاءت (ثم) لذلك

« هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » أى ما تجزون إلا بما كنتم تعملون فى الدنيا من الكفر والمعاصى . .

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة يونس . وخلاصة هذا الربع هى :

١ — الاستدلال على قدرة الله من مظاهر قدرته فى السماء والأرض ، ومن كان كذلك لا يستغرب أن يرسل رسولا ، ولا أن ينزل كتابا على نبى ، ولا أن يعيد الخلق للحساب والجزاء كما بدأهم ، فعلام يضج المشركون ، ويكذب المكذبون ، وينكر المنكرون ؟ إن المشركين لو تأملوا لاهتدوا إلى صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، وإلى صدق القرآن الذى نزل عليه ، وإلى صدق ما أخبر به القرآن من البعث والحساب والجزاء .

٢ — العرب لا يتبعون فى عقائدهم ، أو قل لا يتبع أكثرهم إلا الظن ، والظن لا يغنى من الحق شيئاً ، أما الباقون فهم موزعون بين أديان سماوية آمنوا بها ، وبين ترقب الدين الجديد ليؤمنوا .

٣ — تأكيد معجزة القرآن الكريم وصحته وصدق الرسول فيما أخبر به من أن القرآن منزل عليه من السماء ، وتحدى العرب بالقرآن إن كانوا صادقين فيما قالوه ، تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فى بلاغته وفصاحته وإعجازه. فإن استمروا على الكفر والعناد مع علمهم بصدق الرسول وصدق القرآن فلهم عملهم ، وللرسول والمؤمنين عملهم ، لا يضر المؤمن شرك مشرك ولا تكذيب مكذب ؛ إن هؤلاء المشركين لصم عن الحق ، وعمى عن رؤية الآيات الواضحات الداعية إلى الإيمان ، وسوف يلقون جزاءهم ، والله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

٤ — إنذار المشركين بقرب الحشر . وبأنهم سوف يلقون جزاءهم ، على ما اقترفوا من سيئات ، كاملا غير منقوص .

٥ — تأكيد أن الكفار متشابهون فى الإثم وفى المصير ، وقد أرسل الله عز وجل إلى كل أمة رسولا ، وعند ما يبلغهم الرسول رسالته ، يقضى الله بينهم بالقسط ، فإن آمنوا فلهم البقاء ، وإن كذبوا فلهم الدمار .

٦ — الرد على المشركين الذين يستعجلون عذاب الله لينزل بهم ، ويستعجلون يوم القيامة ليحاسبوا فيه ، بأن الرسول لا يملك أن يتعجل شيئاً ، لأنه لا يملك لنفسه من دون الله ضرا ولا نفعاً ، وبأن لكل أمة أجلا ، وبأنه لا فائدة من استعجالهم العذاب ، لأنهم لن يلقوا بعد وقوعه إلا الشر والشقاء ، فإذا جاء العذاب لهم فى الدنيا أهلكهم الله ، فلا ينفع إيمان أحد ، ثم يقضى الناس مدة البرزخ فى القبر ، وبعد ذلك يقومون ليستكملوا عذابهم المقدر لهم فى الآخرة جزاء على ما كانوا يكسبون من عمل ، وما كانوا يقترفون من سيئات .

الربع الرابع من سورة يونس

٥٣ — وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

٥٤ — وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

٥٥ — أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٥٦ — هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٥٧ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

٥٨ — قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

ست آيات كريمة هن مطلع الربع الرابع من سورة يونس ، وفيها يؤكد الله عز وجل حيرة المشركين وضلالهم ، إنهم حائرون بين عقائد آبائهم وبين الإسلام دين الله العظيم ؛ يسمعون تحذير الله وإنذاره لهم فيقفون فزعين يسألون محمدا : أحق هذا الوعيد وذلك الإنذار ، فيؤكد لهم أنه حق ، وأنهم لا يعجزون الله فى الأرض ولا فى السماء ، وأنهم لو كانوا يملكون كنوز السماء والأرض لافتدوا بهم أنفسهم فى الآخرة من الله ، وأنهم حين يرون العذاب يقعون فى الندم الشديد ، ولا يلبثون إلا أن يقضى الله بين النـاس قضاءه العادل الحكيم : للمشركين النار وللمؤمنين الجنة .. وهل فى ذلك ريب ؟ إن الله مالك ملك السموات والأرض لا يعجزه شىء من ذلك ، إن وعـده حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. إنه يحى ويميت وإليه المرجع والمصير .. وأخيراً ينادى الله عز وجل فى مشركى مكة بأنهم جاءهم الرسول وجاءهم القرآن موعظة من الله ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وبأنهم كان الجدير بهم أن يفرحوا برسالة محمد ؛ لأنها مجد لهم وشرف وعزة ، وبأن الإيمـان بها والدفاع عنها والكفاح من أجلها خير لهم مما يجمعون من مال وثروة ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . « ويستنبئونك » أى يستخبرونك يا محمد « أحق هو » أى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيـام الساعة ، وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء ، قاله حيى بن أحطب لما قدم مكة « قل » لهم فى جوابهم « إى وربى إنه لحق » أى كائن ثابت لا بد من نزوله بكم .. « وإى » بمعنى نعم وهو من لوازم القسم « وما أنتم بمعجزين » أى بفائتين العذاب لأن من عجز عن شىء فقد فاته « ولو أن لكل نفس ظلمت » أى أشركت « مافى الأرض » من الأموال « لافتدت به » من عذاب يوم القيامة ، ثم لم ينفعها هذا الفداء لقوله تعالى : « ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » أى عاينوه وأبصروه صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ، سوى إسررا

الندم ، كالحال فيمن ذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة ، وقيل : إنهم أخلصوا لله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم ؛ لأنهم إنما أتوا بهذا الإخلاص فى غير وقته ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف ؛ وقيل : أراد بالإسرار الإظهار وهو من الأضداد ، لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، ويوم القيامة يبطل هذا فوجب الإظهار ، ولفظ (أسروا) جاء على لفظ الماضى ، والقيامة من الأمور المستقبلة ، لأنها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى « وقضى بينهم » أى بين الخلائق « بالقسط » أى بالعدل « وهم لا يظلمون » ليست هذه الآية مكررة لأن الأولى فى القضاء بين الأنبياء وتكذيبهم وهذه عامة ، وقيل : بين المؤمنين والكفار ، وقيل : بين الرؤساء والأتباع ؛ فإن الكفار وإن اشتركوا فى العذاب فلا بد أن يقضى الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أنه قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا أو خانه ، فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين ، لأن العدل يقتضى أن ينصف المظلومين من الظالمين ، ولا سبيل إليه إلا أن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين « ألا إن لله ما فى السموات والأرض » تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب « ألا إن وعد الله » أى ما وعد به على لسان نبيه « حق » لا شك فيه « ولكن أكثرهم » أى الناس « لا يعلمون » أى جاهلون عن حقيقة ذلك . فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا « هو » أى الذى يملك ما فى السموات والأرض « يحيى ويميت » أى قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شىء مما أراد « وإليه ترجعون » بعد الموت للجزاء « يا أيها الناس » خطاب عام ، وقيل لأهل مكة : « قد جاءتكم موعظة من ربكم » أى كتاب فيه ما لكم وما عليكم وهو القرآن « وشفاء » أى دواء « لما فى الصدور » أى القلوب من داء الجهل والحيرة ، لأن داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن ، وأمراض القلب هى الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة ،

والقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها ، لأن فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير ، فهو الشفاء لهذه الأمراض القلبية ، وإنما خص الله تعالى الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغيره ، وهو أعز موضع فى الإنسان لمكان القلب فيه « وهدى » من الضلالة « ورحمة » أى إكرام عظيم « للمؤمنين » لأنهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم ، واختلف فى تفسير قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته » ، فقال مجاهد وقتادة : فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلنا من أهله ، وقال ابن عباس والحسن : فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا « قل بفضل الله وبرحمته » فقال : بكتاب الله والإسلام ، وقال ابن عمر : فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا ، وقيل : فضل الله الإسلام ورحمته الجنة ، وقيل : فضل الله القرآن ورحمته السنن ؛ ولا مانع أن تفسير الآية بجميع ذلك ، إذ لا تنافى بين هذه الأقوال ؛ والباء فى « بفضل الله » متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره : قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته « فبذلك فليفرحوا » والتكرير للتأكيد والتقرير ، « هو » أى المحدث عنه من الفضل والرحمة « خير مما تجمعون » أى من حطام الدنيا ولذاتها الفانية .

٥٩ — قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

٦٠ — وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

٦١ — وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا

يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

٦٢ — أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

٦٣ — ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

٦٤ — لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

٦٥ — وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

٦٦ — أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

٦٧ — هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

٦٨ — قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٦٩ — قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

٧٠ — مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

اثنتا عشرة آية تضمنت ما تضمنت من الوعد والوعيد والإنذار والتهديد للمشركين ؛ ومن بيان قدرة الله فى الأرض والسماء ، ومن تسجيل شرك المشركين وقولهم : اتخذ الله ولدا ، ومن بيان منزلة المؤمنين الصالحين عند الله والبشارة التى كتبها لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وفى تسجيل كذب المشركين وافترائهم واتباعهم الظنون والأوهام والأباطيل . . إلى غير ذلك مما تضمنته هذه الآيات الكريمة . . يقول الله عز وجل . « قل » يا محمد لكفار مكة . . « أرأيتم » أى خبرونى « ما أنزل الله » أى خلق « لكم من رزق » أى ثروة ترزقون بها وتعيشون عليها . وجعل الرزق منزلا من السماء لأن سبب كل ثروة هو الماء النازل من السحاب . « فجعلتم فيه » أى من ذلك الرزق « حراما وحلالا » أى جعلتم بعضه حلالا ، لكم الانتفاع به ، وبعضه حراما عليكم لاتنتفعون به ، بل تجعلونه لآلهتكم ، من مثل تحريم السائبة والوصيلة والحام ، ومن مثل قولهم : هذه أنعام وحرث حجر ، ومن مثل قولهم: هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . ومثل قولهم : ثمانية أزواج من الضأن اثنين « قل » لهم يا محمد « آلله أذن لكم » فى هذا التحريم والتحليل « أم » أى بل « على الله تفترون » أى تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه « وما ظن الذين يفترون » أى يتعمدون « على الله الكذب » أى أى شىء ظنهم به « يوم القيامة » أيحسبون أن لايؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم ، فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب « إن الله لذو فضل على الناس » بنعم كثيرة ، ومنها إنزال الكتب مفصلا فيها مايرضيه ومايسخطه ، ومنها إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما يحتمله قلوب الخلق منها ، ومنها طول إمهالهم على سوء أفعالهم ، ومنها إنعامه عليهم بالعقل ، فكان شكره واجباً عليهم « ولكن أكثرهم » أى الناس « لا يشكرون » هذه النعم ولا يستعملون العقل فى دلائل الله تعالى ، ولا يقبلون دعوة أنبيائه ، ولا ينتفعون باستماع كتب الله ، وقوله تعالى « وما تكون » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم « فى شأن » أى عمل من

الأعمال وجمعه شئون «وما تتلو منه» أى من القرآن أو من الشأن «من قرآن» كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له، ويصح أن يكون الضمير لله تعالى، والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل، وقوله تعالى «ولا تعملون من عمل» أى أى عمل كان، تعميم للخطاب بعد تخصيص بمن هو رئيسهم وهو النبى صلى الله عليه وسلم، ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن، وذكر حيث عم بقوله تعالى: من عمل، ثم بما يتناول الجليل والحقير، وقيل: إن الكل داخلون فى الخطابين الأولين أيضا، لأنه من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب كما فى قوله تعالى: «يا أيها النبى إذا طلقتم النساء»... «إلا كنا عليكم شهودا» أى رقباء نحصى عليكم أعمالكم، لأن الله تعالى رقيب على كل شىء، إذ لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى، فكل مايدخل فى الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وشاهد عليه «إذ تفيضون» أى الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون «فيه» أى ذلك العمل، وقيل: الإفاضة الدفع بكثرة، وقال الزجاج: إذ تنتشرون فيه، يقال: أفاض القوم فى الحديث إذا انتشروا فيه «ومايعزب» أى يغيب «عن ربك» يامحمد «من مثقال» أى وزن «ذرة» هى أصغر مايرى من الهباء فى ضوء الشمس، وهو الشىء المنبث الذى تراه فى ضوء الشمس «فى الأرض ولا فى السماء» ذكر هذا القيد تقريبا لعقول العامة «وقدم ذكر الأرض على السماء هنا، وقدم ذكر السماء على الأرض فى سورة سبأ حيث قال تعالى «ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض» لأن الكلام هنا فى حال أهلها، والمقصود منه هو البرهان على إحاطة علمه «ولا أصغر من ذلك» أى الذرة «ولا أكبر» أى منها «إلا فى كتاب مبين» أى بين وهو اللوح المحفوظ «ألا إن أولياء الله» أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة «لا خوف عليهم» أى من لحوق مكروه «ولا هم يحزنون» بفوات مأمول، وأولياء الله هم «الذين آمنوا وكانوا يتقون» الله بامتثال أمره ونهيه، وهذا الذى فسر الله تعالى به الأولياء

لا مزيد عليه ، وعن على رضى الله عنه : هم قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الخوى ، وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يذكرون الله برؤيتهم بعين السمت والهيئة ، وعن ابن عباس : الإخبات والسكينة ، وعن عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا يا رسول الله : أخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية الكريمة . . ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الإمامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما أن كلا منهما قال : إذا لم تكن العلماء أولياء فليس لله ولى ، وذلك فى العالم العامل بعلمه ، وقال القشيرى : من شرط الولى أن يكون معصوماً ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع ، فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة . . ولما نفى عنهم الخوف والحزن زادهم ، فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد أن شرع بتوليتهم له « لهم البشرى » أى الكاملة « فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » أما البشرى فى الدنيا ففسرت بأشياء : منها الرؤيا الصالحة ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، وقال صلى الله عليه وسلم : ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ، وقال : الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان ، فإن حلم أحدكم حلماً يخافه فليتعوذ منه ، فإنه لا يضره ، وقال : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . . ومنها محبة الناس له وذكرهم إياه بالثناء الحسن ، وعن أبى ذر ، قال : قلت يا رسول الله : إن الرجل ليعمل العمل لله ويحبه الناس ، فقال : تلك عاجلة بشرى المؤمن ، ومنها البشرى لهم عند الموت ، قال تعالى : تتنزل عليهم

الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ، وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرونه من بياض وجوههم ، وإعطاء الصائف بأيمانهم ، وسلام الله تعالى عليهم ، كما قال تعالى : سلام قولا من رب رحيم ، وغير ذلك من المبشرات بما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه ، وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه ، فإن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه ، فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ، ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى «لا تبديل» أى بوجه من الوجوه «لكلمات الله» أى لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، والكلمة والقول سواء ، ونظيره قوله تعالى «ما يبدل القول لدى» وقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى كونهم مبشرين فى الدارين «هو الفوز العظيم» هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه ، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله «ولا يحزنك» يا محمد «قولهم» أى هؤلاء المشركين ، لا يهمنك تكذيبهم وتهديدهم ومشيهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون فى شأنك ، وقوله تعالى «إن العزة لله جميعا» استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقال : إن العزة لله جميعا ، أى إن الغلبة والقهر فى مملكة الله لله جميعا ، لا يملك أحد شيئا منها لاهم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرك عليهم ، قال تعالى : كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، وقال تعالى : إنا لننصر رسلنا ، وقيل : إن المشركين كانوا يعتذرون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم ، فأخبر الله تعالى أن جميع ذلك فى ملكه ، فهو قادر على أن يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز «هو السميع» أى البليغ السمع لأقوالهم «العليم» أى المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم ، فهو البالغ القدرة على كل شىء ، فيجازيهم ، وهو تعليل لتفرده بالعزة لأنه انفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ، ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم ، فأنى يكون له العزة ، فإن قيل : قوله تعالى : إن العزة لله جميعا ، يضاد قوله تعالى : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين - أجيب بأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله «ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض» ملكا وخلقا . وقد

ذكر الله تعالى فى الآية المتقدمة «ألا إن لله ما فى السموات والأرض» بلفظ (ما)، وقال هنا بلفظ (من)، وفائدة ذلك أنه تعالى غلب فى الآية الأولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته، وفى هذا غلب العاقل على غيره لشرفه، وقيل: مجموع الآيتين دال على أن الكل خلقه وملكه، وقيل: إن المراد بمن فى السموات الملائكة وبمن فى الأرض الثقلان، وإنما خصهم بالذكر لشرفهم، وإذا كان هؤلاء فى ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ند وشريك فهو كالدليل على قوله تعالى: «وما يتبع الذين يدعون» أى يعبدون «من دون الله» أى غيره أصناما «شركاء» على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، تعالى الله عن ذلك «إن» أى ما «يتبعون» فى ذلك «إلا الظن» أى ظنها أنها آلهة تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله تعالى. ثم بين تعالى أن هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى «وإن» أى ما «هم إلا يخرصون» أى يكذبون فى ذلك، ويجوز أن يكون «وما يتبع» فى معنى الاستفهام، أى وأى شىء يتبعون، وشركاء على هذا نصب بيدعون «هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه» أى ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون فى نهاركم من تعب التردد فى المعاش «والنهار مبصرا» أى مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإضافة الإبصار إلى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الإسم من المسبب إلى السبب كقولهم: ليل نائم، لأن الليل سبب السكون، قال قطرب تقول العرب: أظلم الليل أى صار ذا ظلمة، وأضاء النهار أى صار ذا ضياء «إن فى ذلك» المذكور «لآيات» أى دلالات على وحدانيته تعالى «لقوم يسمعون» سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذى خلق الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود. ثم ذكر تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى «قالوا» أى اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله «اتخذ الله ولدا» قال الله تعالى «سبحانه» أى تنزيها له عن الولد «هو الغنى» عن كل أحد، وإنما يطلب الولد من يحتاج اليه. ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى «له ما فى السموات

وما فى الأرض ، من ناطق وصامت ملكا وخلقا « إن » أى ما « عندكم من سلطان » أى حجة « بهذا » أى بالذى تقولون به ، ثم بالغ تعالى فى ذلك الإنكار بقوله تعالى « أتقولون على الله ما لا تعلمون » حقيقته وصحته وتضيفون اليه مالا يجوز إضافته اليه تعالى ، جهلا منكم ، والاستفهام للتوبيخ « قل » يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون أن له ولدا « إن الذين يفترون » أى يعتمدون « على الله الكذب لا يفلحون » أى لا ينجون فى سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا ؛ فإنهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة، ومن الناس من إذا فاز بشىء من المطالب العاجلة والمقاصد الحسنة ظن أنه قد فاز بالمقصد ، والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال «متاع فى الدنيا» أى لهم متاع فى الدنيا ، أو التقدير: افتراؤهم فى الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة إلى طول بقائهم فى العذاب « ثم إلينا مرجعهم » بعد الموت « ثم نذيقهم العذاب الشديد » بعد الموت « بما » أى بسبب ما « كانوا يكفرون » .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة يونس ، وقد تضمن من الأصول الجليلة فى بناء عقيدة التوحيد وبناء الفكرة الإسلامية الهادفة ما يلى :

١ — قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولو شاء عز وجل لأهلك المشركين وسحق الظالمين ودمر الكافرين . إن وقوع العذاب بالأمم الضعيفة وقيام الذل والخزى بالوثنيين ، وهلاك الخارجين على الحق ونواميس الحياة ، أمر لا يعجز الله فى شىء ، إنه منطق الحياة ومنطق العدالة ولغة القوة . وما استفهام المشركين من الرسول عن نزول العذاب بساحتهم إلا كالشك فى موضع اليقين ، وكالحيرة حيث يجب أن تنتفى الريبة ، إى وربى إنه لحق ، إن دمار الذين خرجوا على دين الله وعلى النواميس الإلهية التى فصلنا الحديث فيها ، أمر لا يدعو إلى العجب ولا إلى التساؤل فى شىء . إن

العذاب لابد أن يلحق كل عاص متمرد على شريعة السماء . ولوملك الكافرون يوم القيامة كل خزائن الأرض ، لافتدوا به من هول اليوم الآخر ، ولكنهم لا يقبل منهم فداء حيث لا يجدى الفداء . يومئذ يظهرون الندم والحسرة حين يرون العذاب ، ويحكم الله بينهم بالعدل والقسطاس المستقيم : للكافرين النار وسوء المصير ، وللمؤمنين الجنة والنعيم ، لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وكيف يظلم الله عبدا من عباده وهو مالك السماوات والأرض ووعده الحق ، وإن جهل الجاهلون ، وضل عن دينه الضالون .

٢ — تبشير العرب والناس أجمعين برسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه وبنزول القرآن من السماء ، هذا الكتاب السماوى الحكيم الذى نزل موعظة من الله وشفاء لما فى صدور الناس من حيرة وضلال ، ونزل كذلك هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إن العرب كان من الخليق بهم أن يفرحوا برسالة محمد وبعثته ، وبنزول القرآن ودعوته ، لأن ذلك كله مجد لهم وأى مجد ، وذكر لهم فى العالمين وعزة لهم بين البشر أجمعين . . إن رسالة محمد ونزول القرآن عليه فضل ورحمة وخير ونعمة ومال وثراء ، وبهما يكون فخر العرب ، لا بما جمعوا من مال كثير ، وما كنزوا من ذهب نضار .

٣ — النعى على المشركين فيما ذهبوا إليه من عقائد وتقاليد وعادات وأخلاق امتزجت بالوثنية ، وتغلغلت فيها روح الشر ـ وفيما جعلوه من الأموال لآلهتهم التى أشركوها مع الله فى العبادة وجعلوها ندا له فى الطاعة ، ومن أذن لهم بذلك ؟ إن الله لا يأذن لأحد بالشرك ولا يبيح له عبادة الأوثان . والذين اتخذوها آلهة وعبدوها مع الله وقالوا : إنها شفعاء ، وإنها زلفى إلى الله ، وإنا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وإن الله قد أذن لنا بذلك ، هم الضالون المضلون ، والله لم يأذن لأحد بالشرك ، ولم يبح له الضلال والبهتان ، فالله لم يأذن لأحد بشىء من ذلك ، والذين يتقولون على الله هذا هم المفترون ، وهم الذين سوف يعذبهم الله عذابا أليما فى الآخرة ، من حيث

يغدق من فضله ورحمته على المؤمنين الصادقين ، والله ذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون .

٤ — الله عز وجل مهيمن على عباده ، محيط بهم ، مطلع على أعمالهم ، شاهد على أفعالهم . ولا عجب فعلم الله وقدرته وهيمنته تحيط بكل شىء فى الأرض والسماء . وما ظنك بالذرة الصغيرة وبما هو أكبر منها وبما هو أصغر منها كذلك ، إن كل شىء من ذلك لا يغيب عن علم الله ولا يستعصى على قدرته . والقرآن وقد أثبت أن هناك ما هو أصغر من الذرة يؤكد تركب الذرة ، وتركبها دليل على إمكان تجزئتها ، وهذا هو ما وصل إليه العقل فى العصر البشرى الراهن ، بما نجم عنه نظرية تفتيت الذرة التى أثبتها اينشتاين علميا . وأثبتها العلماء الأمريكيون عام ١٩٤٥ م ، حيث قاموا بتفجير أول قنبلة ذرية أطلقت على العالم العصرى الذرى العجيب الذى نعيش فى حضارته اليوم ، والذى توصل بعد ثلاثة عشرة عاما من تفجير أول قنبلة ذرية إلى نظرية الصواريخ وعلم الفضاء الكونى .. الذى سوف يقودنا إلى حياة جديدة .

٥ — المؤمنون الصادقون هم أولياء الله ، وهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم لهم البشرى فى الدنيا وفى الآخرة ، وهذا هو الفوز العظيم ، الذى يتطلع إليه الفضلاء والجديرون بشرف الحياة والإنسانية .

٦ — أما المشركون فحسبهم غضب الله عليهم ، ومهما استعزوا بأنفسهم وبأموالهم وبكثرتهم فلن يغلبوا المسلمين وفيهم الرسول ، ولن تكون لهم عزة فى الأرض ماداموا على شركهم ، فالعزة لله جميعاً ، والعزه به لرسوله وللمؤمنين ، وهو السميع لأقوال المشركين العليم بماضى المشركين وحاضرهم ومستقبلهم . إن الله فى غنى عنهم . فله من فى السموات ومن فى الأرض ، والذين يشركون بالله إنما يتبعون الظن وعقائد مبنية على الأوهام والخيالات والخرافات والأباطيل ، وإنما يعتمدون على الأهواء والأغراض والشهوات

لا على الحقائق وعلم اليقين ، إن المشركون فى شركهم وفيما يزعمون إن هم إلا مبطلون ، يتقولون على الله الأكاذيب ويقولون على الله غير الحق .

٧ — إن قدرة الله تنفى عنه الشريك والولد ، قدرته التى جعلت الليل هدوءا وسكنا للناس ، وجعلت النهار ضياء وسعيا للحياة . هذه القدرة العظيمة هى قدرة إله واحد أحد فرد صمد . وفى ذلك وفى غيره عبر وعظات ودلائل وآيات لقوم يسمعون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون ويهتدون ـ ضلة لهؤلاء الذين ضلوا وأضلوا ، الذين أشركوا وكفروا ، الذين ساءت أقوالهم وأفعالهم ، الذين خابت عقائدهم وشعائرهم ، الذين قالوا : اتخذ الله ولدا . سبحانه ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ، إن الله هو الغنى عن عبادة العابدين وعن طاعة الخلق أجمعين ، إن له ما فى السموات وما فى الأرض ، هم له عبيد ، وهم له أبناء ، وهم له طائعون مخلصون . ومن أين هذا الإثم وهذا البهتان العظيم ؟ ومن أين لهم ما افتروه على الله وما كذبوا به على الناس ، هل عندهم من حجة وبرهان على هذا ؟ هل لديهم كتاب منزل من السماء ، أو وحى أوحى به الله إليهم ، أو عقيدة ورثوها عن الرسل والأنبياء ، أو علم صحيح بنوه على الحق الصراح ، بأن اتخذ الله ولدا ، وأنه أمر بعبادة شريك له فى ملكه ـ إن المشركين لا يقولون على الله شيئاً له حقيقة ، والله عز وجل والعقل والعلم لا يمكن أن يثبتوا شيئاً من ذلك ، فالله لا يعلم له صاحبة ولا ولدا ، والحقيقة تشهد بذلك ، والفكر الإنسانى السليم يؤيد أن الله منزه عن ذلك كله . وإذا كان ذلك كذلك فإن المشركين لا يقولون على الله قولا له نصيب من الحق ولا من الصدق . إنهم يقولون عليه ما لا يعلمون ، إنهم يفترون ويظنون الظنون ، وهم يعلمون أن عقائدهم باطلة وأن كلامهم هراء وأن ما يذهبون إليه إن هو إلا وهم وخبال . وبعد ، فماذا يكون مصيرهم ، وماذا يكون مآلهم ؟ إن هو إلا زمن وجيز يقضونه فى الحياة الدنيا ، ومتاع قليل يتمتعونه ، ثم يتوفاهم الله ويرجعون إليه فإليه مرجعهم ، ثم يبعثهم فيحاسبهم فيجازيهم بما كانوا يشركون ، ونذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون .

الربع الخامس من سورة يونس

٧١ – وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ .

٧٢ – فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

٧٣ – فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ .

هذه الآيات الثلاث فى ذكر رسالة نوح عليه السلام وقصته مع قومه ، وقد عرضت الآيات الثلاث لموقفه من قومه بعد لجاجهم وعنادهم ، وفيها عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين .

وقد جاءت قصة نوح عليه السلام فى القرآن الكريم فى مواضع عدة ، وذكرت فى العهد القديم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث . « واتل » يا محمد « عليهم » أى على كفار مكة وقريش « نبأ » أى خبر « نوح » نبى الله عليه السلام ، وذلك للعظة والاعتبار بهذه القصص ، ليعتبر محمد فلا ييأس ولا يحزن ، وليعتبر المشركون فيؤمنوا .. ومن العجب أنه ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ، ولم يطالع كتابا ، ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، فدل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحى والتنزيل « إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر » أى شق وعظم « عليكم مقامى » أى لبثى فيكم ألف سنة إلا خمسين عاما « وتذكيرى »

أى وعظى إياكم « بآيات الله » أى بحجته وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى « فعلى الله توكلت » أى فهو حسبى وثقتى .. ويصح أن يكون المراد بقوله تعالى قيامى : قيامه على الدعوة ، لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا ، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود « فأجمعوا أمركم » أى فاعزموا على على أمر تفعلونه بى « وشركاءكم » أى وادعوا شركاءكم ، أو الواو بمعنى مع أى مع شركائكم وهى الأصنام ، وإنما حثهم على الاستعانة بها على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل أنها تضر وتنفع ، مع اعتقاد نوح أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم « ثم لا يكن أمركم » أى الذى تقصدونه به « عليكم غمة » أى مستورا ، من غمه إذا ستره ، بل أظهروه ، وجاهرونى مجاهرة ، فإنه معارضة لى بغير الله الذى يستوى عنده السر والجهر « ثم اقضوا إلى » أى امضوا ما فى نفوسكم وافرغوا منه ، يقال : قضى فلان إذا مات ومضى ، وقضى دينه إذا فرغ منه ، وقيل : معناه توجهوا إلى بالقتل والمكروه ، وقيل : فاقضوا ما أنتم قاضوه ، وهذا مثل قول السحرة لفرعون : « فاقض ما أنت قاض » أى اعمل ما أنت عامل « ولا تنظرون » أى ولا تؤخرون بعد إعلامكم إياى ما أنتم عليه ، وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته ، وأنهم لن يجدوا سبيلا « فإن توليتم » أى أعرضتم عن تذكيرى « فما سألتكم من أجر » أى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عنى وتتهمونى لأجله ، من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظتكم ، ومتى كان الإنسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب « إن أجرى إلا على الله » وهو الثواب الذى يثيبنى فى الآخرة ، أى ما أنصحكم إلا لوجه الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا وهذا ينبغى لكل من ينفع الناس بعلم أو إرشاد إلى طريق الله تعالى « وأمرت أن أكون من المسلمين » أى إنى مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل إلى منكم لأجل هذه الدعوة ، وقيل : بدين الإسلام وأنا ماض فيه تارك له ، قبلتموه أو لم تقبلوه « فكذبوه » أى أصروا على تكذيبه بعد ما لزمهم الحجة ، وبين أن توليتهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم

لاجرم حقت عليهم كلمة العذاب « فنجيناه » من الغرق « ومن معه فى الفلك » أى السفينة وكانوا ثمانين « وجعلناهم » أى الذين أنجيناهم معه فى الفلك « خلائف » فى الأرض يخلفون الهالكين بالغرق « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » بالطوفان « فانظر » أى أيها الإنسان أو يا محمد « كيف كان عاقبة المنذرين » تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له . . وهذه القصة إذا سمعها من صدق محمداً صلى الله عليه وسلم ومن كذب به ، كان زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ، وتكون داعية للمؤمنين إلى الثبات على الإيمان ، ليصلوا إلى مثل ما وصل اليه قوم نوح ، وهذه الطريقة فى الترغيب والترهيب والتحذير ، إذا جرت على سبيل الحكاية والقصة كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ، ولهذا الوجه كثرت قصص الأنبياء فى القرآن الكريم .

٧٤ — ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ .

فى هذه الآية الكريمة ذكر لرسالات الرسل من بعد نوح إلى موسى على وجه الإجمال ، وإشارة إلى سوء عقائد الأمم ، وكفرها بأنبيائها ، وتكذيبها لهم ، وأنهم استلهموا الكفر لا الإيمان ... وقد طبع الله على قلوبهم وختم عليها بخاتم الشرك والعناد والتمرد ، يقول الله عز وجل : « ثم بعثنا من بعده » أى نوح « رسلا إلى قومهم » لم يسم القرآن الكريم هنا أسماء هؤلاء الرسل من بعد نوح ، وقد بعث بعده هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين .. « فجاءوهم بالبينات » أى بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما بلغوا به عن ربهم ، معجزات واضحات تدل على صدق هؤلاء الرسل .. « فما كانوا ليؤمنوا » أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وكفرهم

وخذلان الله عز وجل لهم « بما كذبوا به من قبل » أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل إليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق ، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد « كذلك » أى مثل ما طبعنا على هؤلاء لسبب تكذيبهم الرسل « نطبع » أى نختم « على قلوب المعتدين » أى الظالمين المتجاوزين الحد ، فى كل زمن ، لكل من تعمد الكذب والعدول عن شريعة التوحيد ..

٧٥ — ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

٧٦ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .

٧٧ — قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ .

٧٨ — قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ .

٧٩ — وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ .

٨٠ — فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ .

٨١ — فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

٨٢ — وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

٨٣ — فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ

وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَـوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ .

٨٤ — وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ .

٨٥ — فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ

٨٦ — وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْـكَـٰفِرِينَ .

٨٧ — وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَـكُمْ قِبْـلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّـلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٨٨ — وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

٨٩ — قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُـكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيـلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

٩٠ — وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

٩١ — ءَآلْئَٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

٩٢ — فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ .

٩٣ — وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ :

تسعة عشر آية من آيات الذكر الحكيم ، من سورة يونس الرائعة ، تناول الله عز وجل فيها ذكر موسى ورسالته ، وقيادته لقومه ، وقصته مع فرعون وملئه ، وكيف نجاه الله وأغرق آل فرعون ، وما من الله عز وجل على بنى إسرائيل بعد ذلك من منزلة رفيعة بين الشعوب ، ومن خيرات كثيرة ورزق طيب واستقامة على شريعة موسى ، حتى اختلفوا ودب بينهم الشقاق ، وكثرت فرقهم ، وبعدوا عن العقيدة الصحيحة إلى الكفر الصراح ، وقد هددهم الله عز وجل ، فذكر أنه سيفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . « ثم بعثنا من بعدهم » أى من بعد هؤلاء الرسل « موسى وهارون إلى فرعون وملئه » أى أشرافه قومه ، وغيرهم تبع لهم ، فهو مرسل إلى الجميع « بآياتنا » التسع « فاستكبروا » عن اتباعها والإيمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون الناس برسالة ربهم بعد تبيينها ويستعظموا عن قبولها « وكانوا مجرمين » أى كفارا ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها « فلما جاءهم الحق » أى جاء فرعون وقومه « من عندنا » أى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهارون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيلة للشك « قالوا » أى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم « إن هذا لسحر مبين » أى بين ظاهر يعرفه كل أحد ، وهم يعلمون أن الحق أبعد شىء من السحر الذى لا يظهر إلا على كافر أو فاسق « قال موسى : أتقولون للحق

لما جاءكم : أسحر هذا ؟ » فيه حذف تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا ؟ فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال : أسحر هذا ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار بمعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتج على صحته بقوله تعالى « ولا يفلح الساحرون » فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة ، فقلب العصى حية وفلق البحر معلوم بالضرورة أنه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت أنه ليس بسحر «قالوا» أى قال قوم فرعون لموسى «أجئتنا لتلفتنا » أى لتصرفنا واللفت والفتل أخوان «عما وجدنا عليه آباءنا» أى من الدين وعبادة الأصنام ، ثم قالوا لموسى وهارون «وتكون لكما الكبرياء» أى الملك والعز « فى الأرض » أى أرض مصر ، قال الزجاج: سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً : الملوك موصوفون بالكبر ، ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ؛ كما قال القبطى لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض « وما نحن لكما بمؤمنين» أى مصدقين فيما جئتما به « وقال فرعون » لقومه وإرادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام « إئتونى بكل ساحر عليم » أى أى بالغ فى علم السحر لئلا يفوت شىء من السحر بتأخر البعض « فلما جاء السحرة » أى كل من فى أرض مصر من السحرة ، قالوا لموسى : إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين « قال لهم موسى ألقوا » جميع « ما أنتم ملقون » وأمره لهم بالكفر والسحر مع أن الأمر بالكفر كفر ، لأنه إنما أمرهم بإلقاء ما معهم من الحبال والعصى التى معهم ليظهر للخلق أن ما أتوا به ما هو إلا عمل فاسد وسعى باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمر بالسحر « فلما ألقوا » ما معهم من الحبال والعصى وخيلوا بسحرهم أعين الناس أنهى تسعى « قال موسى » منكرا عليهم «ما جئتم به السحر» أى الذى جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ، ثم أخبر موسى عليه السلام بقوله « إن الله سيبطله » أى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » أى لا يثبته ولا يقويه ، وقول البيضاوى: وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية ، وإلا فله حقيقة « ويحق » أى يثبت ويظهر

« الله الحق بكلماته » أى بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى فى غير هذه السورة كيف أنه أبطل ذلك السحر، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصى « ولو كره المجرمون» ذلك ، ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا تلك المعجزات ومع ذلك لم يؤمن إلا قليل كما قال تعالى « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه » وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتم لإعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، بين تعالى أن له فى هذا الباب من سائر الأنبياء أسوة ، لأن الذى ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمراً عظيما ، ومع ذلك فما آمن به إلا ذرية من قومه ، والذرية اسم يقع على القليل من القوم ، قال ابن عباس : الذرية القليل والهاء التى فى قومه راجعة إلى موسى ، أى فما آمن من قومه إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه ، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وإجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل: الهاء راجعة إلى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه « على خوف من فرعون وملئهم » أى خوف منه لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة لموسى ، وإذا علم ميل القوم إلى موسى كان لا بد أن يبالغ فى إيذائهم ، فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه ، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظمة لأنه ذو أصحاب يأتمرون به ، « أن يفتنهم » أى يصرفهم ويصدهم عن الإيمان « وإن فرعون لعال » أى متكبر قاهر « فى الأرض » أى أرض مصر « وإنه لمن المسرفين » أى المجاوزين الحد ، وكان كثير القتل والتعذيب لبنى إسرائيل « وقال موسى» لقومه « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله » أى صدقتم به وبآياته « فعليه توكلوا » أى ثقوا به واعتمدوا عليه فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه « إن كنتم مسلمين » أى مسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له ، وقيل : إن كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر « فقالوا » مجيبين له « على الله توكلنا » أى عليه اعتمدنا لا على غيره ، ثم دعوا ربهم فقالوا « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » أى لا تسلطهم علينا

فيفتنونا « ونجنا » أى خلصنا « برحمتك من القوم الكافرين » أى من أيدى قوم فرعون لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الأعمال الشاقة ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مخلصين ، ولا جرم أن الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الأرض ، وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته .

ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهارون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى: « وأوحينا إلى موسى وأخيه » أى الذى طلب مؤازرته ومعاضدته « أن تبوآ » أى اتخذا « لقومكما بمصر بيوتا » تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة « واجعلوا » أنتما وقومكما « بيوتكم » أى تلك البيوت « قبلة » مصلى أو مساجد كما فى قوله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » ، موجهة نحو القبلة أى الكعبة ، وكان موسى عليه السلام يصلى إليها « وأقيموا الصلاة » ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة :

الأول : أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفار ، لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الإسلام بمكة .

الثانى أنه قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى إسرائيل ومنعهم من الصلاة ، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلون فيها خوفا من فرعون .

الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم فأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء ، وقد خص الله تعالى موسى وهارون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى : « أن تبوآ لقومكما » لأن موسى وهارون هما رؤساء القوم ، والرئيس يخاطب

حين يخاطب المرءوس أيضاً ، ثم عم هذا الخطاب فقال: «واجعلوا بيوتكم قبلة» لأن جعل البيوت مساجد للصلاة مما ينبغي أن يفعل كل أحد ، ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى : «وبشر المؤمنين» أى بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى ، لأن الغرض الأصلى فى جميع العبادات حصول هذه البشارة ، فخص الله تعالى موسى بها ، ليدل بذلك على أن الأصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام، وأن هارون عليه السلام تبع ، ثم إن موسى عليه السلام لما بالغ فى إظهار المعجزات الظاهرة ورأى القوم مصرين على الحجة والعناد والإنكار أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب إقدامه على الجرائم ، وكأن جرمهم هو لأجل حبهم الدنيا «وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه» أى أشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر «زينة» أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس، وغيرهما من الدواب والغلمان ، ومن الأثاث الفاخر ونحو ذلك «وأموالا» أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما «فى الحياة الدنيا» هذا يدل على ثراء مصر فى عهد الفراعين ، وعلى مدى الخير والرخاء الذى كان يعم البلاد آنذاك «ربنا» أى يا ربنا آتيتهم ذلك «ليضلوا» أى فى عاقبة أنفسهم ويضلوا غيرهم «عن سبيلك» أى دينك واللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت كقوله تعالى : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا» ، وقيل : لام كى أى آتيتهم كى تفتنهم ، وقيل : هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك «ربنا اطمس على أموالهم» أى امسخها وغيرها عن هيئتها ، قال قتادة : صارت أموالهم وحرثهم وزراعتهم وجواهرهم حجارة ، وقال محمد ابن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال ابن عباس : بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ، قال السدى : مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة ، فكانت إحدى الآيات التسع «واشدد على قلوبهم» أى اطبع عليهم واستوثق حتى لا تنشرح للإيمان «فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»

جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى ، أو عطف على (ليضلوا) وما بينهما دعاء معترض « قال قد أجيبت دعوتكما » فيه وجهان .

الأول قال ابن عباس : أن موسى كان يدعو وهارن كان يؤمن فلذلك قال : دعوتكما ، وذلك أن من يقول عند دعاء الداعى « آمين » فهو أيضاً داع لأن قوله آمين تأويله : استجب يارب ، فهو سائل كما أن الداعى سائل أيضاً .

الثانى أن يكون كل منهما ذكر هذا ، غاية ما فى الباب أن يقال : إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى : وقال موسى ربنا ، وهـذا لاينافى أن يكون هارون قد ذكر الدعاء أيضاً ، وأما قوله تعالى : « فاستقيما » فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة ، والزيادة فى إلزام الحجة ، فقد لبث نوح فى قومه ألف عام إلا خمسين عاما فلا تستعجلا ، قال ابن جريج : إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » أى الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال ، فربما أجاب الله دعاء الإنسان فى مطلوبه إلا أنه ربما يوصله إليه فى وقته المقدور ، والاستعجال لايصدر إلا من الجهال ، وهـذا كما قال تعالى لنوح عليه السلام : إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، وهذا النهى لايدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لايدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بتخفيف النون وبتشديدها ، ولما أجاب الله دعاءهما أمر بنى إسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ، ويسر لهم أسباب ذلك وفرعون كان غافلا عن ذلك ، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج فى عقبهم كما قال تعالى « وجاوزنا » أى قطعنا « ببنى إسرائيل » أى عبدنا المخلص لنا « البحر » حتى بلغوا الشاطىء حافظين لهم « فأتبعهم فرعون وجنوده » أى لحقهم وأدركهم يقال : تبعه وأتبعه إذا أدركه ولحقه « بغيا وعدوا » أى ظلما وعدوانا ، وقيل : بغيا فى القول وعدوانا فى الفعل ، فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى : أين

المخلص والمخرج ، البحر أمامنا وفرعون وراءنا، قد كنا نلق من فرعون البلاء العظيم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق لموسى وقومه ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، وكشف وجه الأرض ، وانتشر لهم البحر،فلما وصل فرعون إلى البحر هابوا دخوله وكان معه فى عسكره ثمانية آلاف فارس،ولم يملك فرعون من أمره شيئا،فنزل البحر وأتبعه جنوده حتى إذا كملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم ، فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الإخلاص كما قال تعالى « حتى إذا أدركه » أى لحقه « الغرق قال آمنت أنه » أى بأنه « لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » آمن فرعون ثلاث مرات أولها قوله : آمنت ، وثانيا قوله : لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وثالثها قوله : وأنا من المسلمين ؛ فما السبب فى عدم القبول ؟ أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

منها : أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ، ويدل عليه قوله تعالى: « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » .. «الآن» تؤمن «وقد عصيت قبل » وضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية . « وكنت من المفسدين » بضلالك وإضلالك عن الإيمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة،وإنما قال له : وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله : وأنا من المسلمين .

ومنها أن فرعون إنما قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة،ولم يكن قصده الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية ، فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت .

ومنها أن فرعون كان من المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى، ولذلك قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ؛ فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى إيمانه ، ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزال ظلمته إلا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية .

ومنها : ماروى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل ، فلما قال فرعون: آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل - انصرف ذلك إلى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت ، فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر .

ومنها أن الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى وبالإقرار بنبوة موسى عليه السلام ، وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح إيمانه ، ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة : أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فإنه لا يصح إيمانه إلا إذا قال معه « وأشهد أن محمدا رسول الله » فهكذا هنا « فاليوم ننجيك » أى نخرجك من البحر « ببدنك » أى جسمك الذى لاروح فيه كاملا سويا لم يتغير ، أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس ، أو أن المراد بالبدن الدرع ، قال الليث: البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين، وهذا منقول عن ابن عباس ، قال : كان عليه درع من ذهب يعرف ، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف « لتكون لمن خلفك » أى بعدك « آية » أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك ، وعن ابن عباس : أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله « أنا ربكم » فعلموا أن دعواه كانت باطلة « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » أى لا يعتبرون بها ، وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى . والقول الأول مشهور « ولقد بوأنا » أى أنزلنا « بنى إسرائيل مبوأ صدق » أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام ، وإنما وصف المكان بالصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق، تقول العرب: هذا الرجل صدق وقدم صدق، والسبب فيه أن الشىء إذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه ، وقيل : أرض الشام والأردن لأنها بلاد الخير والبركة والخصب « ورزقناهم من الطيبات » أى الحلال المستلذ من الفواكه والحبوب والألبان والأعسال وغيرها ، فأورث الله تعالى بنى إسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل ، كما قال تعالى :

وأورثنا القوم الذين يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها « فما اختلفوا » أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هـذا الفعل من بنى إسرائيل « حتى جاءهم العـلم » أى جاءهم ما كانوا به عالمين ؛ وذلك أنهم كانوا قبـل مبعث محمد صـلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته مختلفين فيه لمـا يجدونه مكتوبا عندهم ، وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه ، فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر بعضهم بغيا وحسدا وإيثارا لبقاء الرياسة فيهم ، وأنهم ما اختلفوا فى دينهم إلا بعد ما قرأوا التوراة وعلموا أحكامها « إن ربك » يا محمد « يقضى بينهم يوم القيامة » أى الذى هو أعظم الأيام « فيما كانوا » أى بأفعالهم الجبليـة « فيه يختلفون » أى فيتميز الحق من الباطل والضلال من الهدى ،

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سـورة يونس ، وأربع آيات من الربع السادس أيضا ، كانت تـكملة لقصة موسى عليه السلام ، وقد تضمن هذا الربع والآيات الأربع التى تلته ذكر قصه نوح ورسالته ، والإشارة إجمالا إلى رسالات الرسل بعد نوح ، وذكر قصة موسى مع قومه ومع فرعون ، وفى ذكر قصص الأنبياء ورسالاتهم ، عبرة وعظة للمشركين ، وقدوة وأسـوة حسنة للمؤمنين ، وإرشاد وتعليم من الله عز وجل للناس ، مع ما فى ذلك من الإشارة إلى تطور الإنسانية الفـكرى ، وإلى عدم استساغتها عقيدة التوحيد فى طفولتها ، وإلى ما كان يتـكبده الأنبياء عليهم السلام من مشاق فى سبيل تبليغ رسالة الله ومن تضحيات جسام أيضا .

الربع السادس من سورة يونس

٩٤ — فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ .

٩٥ — وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

٩٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .

٩٧ — وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

٩٨ — فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ .

٩٩ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

١٠٠ — وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

١٠١ — قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْأَيَٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ .

١٠٢ — فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ .

١٠٣ — ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ .

عشر آيات كريمة تناولت تقرير رسالة محمد وإثباتها بما تضمنته الرسالات السابقة من تبشير بها وتأييد لها ، كما تناولت تحذير أمة محمد من الكفر والعناد ، وبيان أن الإيمان هو الذى ينجى من غضب الله وعذابه ، والإشارة إلى ما حدث لقوم يونس لما آمنوا كشف الله عز وجل عنهم العذاب ، وذكر اختلاف الناس فى العقائد ، وأنهم لا يؤمنون جميعا ولا يكفرون جميعا ، ولو شاء الله لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ... إلى سوى ذلك مما تضمنته من بيان مصير المكذبين وعاقبة المرسلين ...

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب » أى التوراة « من قبلك » أى فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه ؛ وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بهذه الآيات : فقيل : هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، والمراد أمته ، كقوله تعالى : « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » ، وقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، ويدل على ذلك وجوه :

الأول : قوله فى آخر السورة : يا أيها الناس، فبين أن المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح .

الثانى : أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى ، وهذا يوجب سقوط الشريعة .

الثالث : إذا تم أن يكون شاكا فى نبوة نفسه ، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته ، مع أنهم فى الأكثر كفار .

فثبت أن الخطاب وإن كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم ، إلا أن المراد هو الأمة ، ومثل هذا معتاد ، فإن السلطان إذا كان له أمير وتحت رأيه ذلك الأمير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أجمع ، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على

ذلك الأمير الذى جعله أميرا عليهم ليكون لذلك تأثير فى قلوبهم ..

وقيل : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته، ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك فى ذلك ، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فإنه يصرح ويقول: يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب، بل أكتفى بما أنزلت على من الدلائل الظاهرة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ، ونظير هذا قوله للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، وكما قال لعيسى عليه السلام : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذلك هنا .

وقيل : الخطاب لكل من يسمع، أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين فينبغى أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

وأظهر هذه الأقوال أولها ، وهذه الأقوال تجرى فى قوله تعالى « لقد جاءك الحق من ربك» أى بالآيات القاطعة ، فلا مدخل للمرية فيه « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فيه وفى قوله تعالى « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » أى الذين خسروا أنفسهم « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك » أى ثبت عليهم قوله تعالى الذى كتب فى اللوح المحفوظ وأخبرت به الملائكة أنهم « لا يؤمنون » أى يموتون كفارا فلا يكون غيره، إذ لا يكون كلامه ولا يكون قضاؤه ، « ولو جاءتهم كل آية » فإن السبب الأصلى لإيمانهم ـ وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود ، فإن الدليل لا يهدى إلا بإعانة الله ، وإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل « حتى يروا العذاب الأليم » فحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما لا ينفع فرعون ، وقد سبق كما علمنا قصتان ، وبقيت ثالثة وهذه القصة الثالثة هى قصة يونس

عليه السلام ، وقد ذكرت على سبيل الإجمال فى قوله تعالى « فلولا ، أى فهلا « كانت قرية » واحدة من قرى الأمم الماضية التى أهلكناها « آمنت » أى من أهلها عند إتيان الآيات أوعند رؤية أسباب العذاب « فنفعها » أى فتسبب عن إيمانها ذلك أنه نفعها « إيمانها » بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها ، وقوله تعالى « إلا قوم يونس » استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس « لما آمنوا » أى لما أخلصوا الإيمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله « كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا » ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا والجملة فى معنى النفى لتضمن حرف التحضيض معناه، كأنه قيل: ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة نفعهم إيمانهم إلا قوم يونس « ومتعناهم إلى حين » أى إلى انقضاء آجالهم ، روى عن ابن مسعود وغيره أن قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا ، فقيل له :إن العذاب مصبحهم إلى ثلاثة أيام ، فأخبرهم بذلك فقالوا: إنا لم نجرب عليك كذبا فانظروا له فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشىء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فلما كان فى جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، قال وهب : غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه ، وقذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من النساء والدواب ، فحن بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم ، وعجوا وتضرعوا إلى الله تعالى وقالوا :آمنا بما جاء به يونس عليه السلام ، فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما كاد يتغشاهم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغ من توبتهم أن ردوا المظالم ، حتى إن الرجل كان يقلع الحجر ، وكان قد وضع أساس بنيانه فيرده .

وعن الفضيل بن عياض : كان دعاؤهم : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله . فإن قيل: قد حكى الله تعالى عن فرعون أنه تاب فى آخر الأمر ولم يقبل توبته ، وقد حكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم، فما الفرق بين الحالين؟ أجيب بأن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة ، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك ؛ فإنهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية . وأن الله تعالى قد علم صدق نياتهم فى التوبة قبل توبتهم ، بخلاف فرعون ؛ فإنه لم يصدق فى إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه « ولو شاء ربك » يا محمد « لآمن » بك وصدقك « من فى الأرض كلهم » بحيث لم يشذ منهم أحد « جميعا » أى مجتمعين على ذلك فى آن واحد لا يختلفون فى شىء منه ، ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة فى الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم ، وهو قوله « أفأنت تكره الناس» أى الذين لم يرد الله إيمانهم « حتى يكونوا مؤمنين » أى ليس إيمانهم فى يدك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه ، إنما إيمان المؤمن وضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه ، وليس لأحد ذلك سواه كما قال تعالى : « وما كان » أى وما ينبغى وما يتأتى « لنفس » أى واحدة فما فوقها « أن تؤمن » أى يقع منها إيمان فى وقت ما « إلا بإذن الله » أى بإرادته لها بالإيمان ، فإن هدايتها إلى الله ، هو المهدى والمضل ، وقال ابن عباس : بأمر الله ، وقال عطاء : بمشيئة الله « ويجعل » الله « الرجس » أى العذاب والخذلان فإنه سببه « على الذين لا يعقلون » أى لا يتدبرون فى آيات الله فينتفعون بها وهم يدعون أنهم أعقل الناس ، فيتساقطون فى مساوىء الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ولما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الإيمان لا يحصل إلا بإذن الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى : « قل انظروا » أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات : « ماذا » أى الذى

« فى السموات والأرض » من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه لديكم على وحدته وكال قدرته ، ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار ، والنجوم وحركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها ، والكواكب وما يختص بذلك من المصانع ، وفى العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان ، وأخصها حال الإنسان كل ذلك من الآيات الدالات على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

وقوله تعالى : « وما تغنى الآيات » أى وإن كانت فى غاية الوضوح « والنذر » جمع نذير أى الرسل « عن قوم لا يؤمنون » فى علم الله وحكمه « فهل » أى ما « ينتظرون » أى أهل مكة بتكذيبك « إلا » أياما أى وقائع « مثل أيام » أى وقائع « الذين خلوا من قبلهم » أى مثل قوم نوح ومن طوى من الأمم أى مثل وقائعهم من العذاب « قل » أى قل يا محمد « فانتظروا » أى أى العذاب « إنى معكم من المنتظرين » أى لنزول العذاب بكم ، وقوله تعالى « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا » عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى « إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » ، كأنه قيل : لنهلك الأمم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الأحوال الماضية « كذلك » أى نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك « حقا علينا ننجى المؤمنين » أى ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب ، وقوله تعالى « حقا » يقتضى الوجوب مع أن الله تعالى لا يجب عليه شىء ، والجواب أن ذلك حق بسبب الوعد والحكم ، أى أنه حق بحسب الاستحقاق ، ولما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئا ، وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ، ولما ذكر الله الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإظهار دينه فى الآيات التالية .

١٠٤ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ

الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّٰكُمْ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

١٠٥ — وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

١٠٦ — وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّٰلِمِينَ .

١٠٧ — وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ .

١٠٨ — قُلْ يَٰأَيُّها النَّاسُ قَدْ جآءَكُمُ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنفسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ .

١٠٩ — وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰٓ إِليْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَٰكِمِينَ .

هذه الآيات الكريمة الست فيها تقرير أن القرآن الكريم وشريعة محمد عليه السلام تخاصم الشرك والمشركين ، وتتجه إلى عبادة الله رب العالمين ، وإلى الإيمان والإخلاص لخالق الخلق ومدبر الأمر وحده . . وفيها كذلك بيان لأهم أصل من أصول الإسلام ، وهو وجوب نبذ الشرك ، وعبادة الله وحده ، الله الذى بيده وحده النفع والضر ، الله الخالق البارىء المصور ، كاشف الضر ، ومقدر الأمر ، يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ، وفى الآية الخامسة من هذه الآيات يكرر الله عز وجل إعلانه السماوى إلى الناس جميعا ، ويطلب إلى محمد إبلاغ هذا الإعلان إلى

الناس جميعا ، وهو أن شريعة الإسلام قد نزلت عليهم من السماء ، والحق قد جاءهم من ربهم ، والخير قد وصل إليهم ، وعهد الله برسالته إلى خير رسله ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . . يا أيتها الإنسانية المعذبة الضالة الحيرى ، قد جاءك الحق من الله ، جاءتك البشرى من السماء ، جاءك الإنقاذ الإلهى العظيم ، جاءتك رسالة محمد وشريعته ، جاءك النور والحق والهدى والخير والأمن والأمان والسلام .

فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ، ورواد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ؛ ذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية وكان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ . إنه محمد صلى الله عليه وسلم نبى الحرية ، ونبى السلام أيضا ، والمؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام ، وحرصاً عليه ؛ لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية ، وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة والحياة ؛ وباب التجديد والأمل والتقدم والمدنية . وما أروع مواقف سيدنا محمد صلوات الله عليه فى تقرير هذه المبادىء الكريمة والدفاع عنها . ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً فى حلف الفضول : مع بنى هاشم وزهرة وتيم ، يتعاهدون بالله المنتقم « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه » ، وكان يقول : « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار ابن جدعان ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

وكانت سياسته - صلوات الله عليه - اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته « السلام عليكم ورحمة الله » ، عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والإخاء ، آخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين ، وأن البشر جميعاً إخوان فى الإنسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ، ونزل القرآن الكريم يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أشد المواقف وأحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون فى الطائف ، وقد أقبل يدعوهم لدينه ، كيف يجلس إلى ظهر بستان ، ويتوجه إلى ربه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » . لم يمش محمد إلى الحرب إلا دفعا للعدوان ، ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية ، حتى وقف وهو حدث السن . يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط النفوذ والسلطان . أو الفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الإقناع والبرهان وقال له ربه : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » . وشريعة محمد صلوات الله عليه ، وهى الإسلام اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على النفس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ؛ يشكون ويضجون ، فقال له : ياعم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، تقولون : « لا إله إلا الله » ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلم ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه ، أما محمد المدافع عن الحريات فإن أمره لعجب : أحب الحرية ، منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله

عليها ، ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبياً وفتى حراً عربيا ، يتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم ، وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزيادة عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين ، والذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد جلس إليه خباب وعمار وبلال ويسار وأشباههم ، هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ما سبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه » .. قرر محمد وحمى الحرية الشخصية . وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة ، ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم ، وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أحدا أو يعتدى على أحد ، مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع المخالفين له من يهود يثرب خير تقرير لحرية العقيدة والرأى . وحرمة المسكن والمال كما يقرر الباحثون . حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق . وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة . وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم ، كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى » . وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب ، وألغى العصبيات والامتيازات والفروق الطائفية والعنصرية ، فالناس سواء كأسنان المشط . لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى . ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح . وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة على غيره من الناس . هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية . والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس ويغرر بالشعوب . والذى حطم الشرك والوثنية ، وهدم عروش الطغيان والجبروت . وألغى الرق البشرى ، وأبقى أسرى الحرب المشروعة

فى نطاق واسع من الشرف والكرامة . والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة تخضع لأسمى المبادىء ، وتؤمن بأكرم الأهداف وتطبقها . والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ، ليس هناك سيد ومسود . إنما السيادة لله ولرسوله ، ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

وبعد ذلك كله يعلن الله عز وجل لرسوله فى آخر هذه الآيات الكريمة أن الذين يؤمنون برسالة محمد إنما يؤمنون بها لأنفسهم ، والذين يصدفون عنها إنما يصدفون عنها لأنهم لا يفهمون ما يجب عليهم نحو أنفسهم ، ولا يفهمون أن أثر ضلالهم راجع إليهم وحدهم ... إن الرسول ليس وكيلا عليهم ، وليس ملزما لهم ، وليست رسالته لإلزامهم بالإيمان ، بل هم موكولون إلى أنفسهم ، والرسول ليس مطالبا إلا بإبلاغ الرسالة ، وبالعمل بها ، وبالصبر على أذى المشركين ، حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو خير الحاكمين .

* * *

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « قل » يا محمد « يا أيها الناس » أى الذين أرسلت إليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك « إن كنتم فى شك من دينى » أى الذى أدعوكم إليه وإلى أنه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الأصنام التى لا تضر ولا تنفع « فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله » أى غيره وهى الأصنام التى لا قدرة لها على شىء « ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم » بقبض أرواحكم التى لا شىء عندكم بعدها ، فإنه الذى يستحق العبادة ، وإنما خص الله تعالى بهذه الصفة للتهديد ، وقيل : إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله : ولكن أعبد الله الذى هو قادر على إهلاككم « وأمرت أن » أى بأن « أكون من المؤمنين » أى المصدقين بما جاء من عند الله ، وقيل : إنه لما ذكر العبادة وهى أعمال الجوارح أتبعه بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب ، وقال تعالى هنا (فى شك) وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به ، لأنه كان فيهم

الشاكون، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم ، أو أن الشك هنا معناه الكفر الصريح ، وقوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين» عطف على «أن أكون» وأن صلة والمقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه ، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها أو الطلب ، والمعنى: وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستقامة والاشتداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، أو فى الصلاة باستقبال القبلة « حنيفا » حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ، ومعناه : مائلا مع الدليل غير معوج عنه إلى دين آخر « ولا تكونن من المشركين » أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك .. خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره ، أى ولا تكونن أيها الإنسان.. « ولا تدع » أى لا تعبد « من دون الله » أى غيره « ما لا ينفعك » أى إن « عبدته ولا يضرك » إن لم تعبده « فإن فعلت » ذلك « فإنك إذا من الظالمين » لنفسك ، لأنك وضعت العبادة فى غير موضعها ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، فيكون ظلما ، ولما ذكر الله تعالى الأوثان ، وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع ، بين تعالى أنه القادر على كل شىء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى « وإن يمسسك » أى يصبك « الله بضر » أى كفقر ومرض « فلا كاشف له » أى دافع له « إلا هو » لأنه الذى أنزله بك « وإن يردك بخير » كرخاء وصحة « فلا راد » أى دافع « لفضله » أى الذى أراد به « يصيب به » أى الخير « من يشاء من عباده ، وهو الغفور » أى البليغ الستر للذنوب « الرحيم » أى البالغ فى الإكرام ، رجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه تعالى لما ذكر الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار ، لأن الاستثناء من النفى إثبات ، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال : فلا راد لفضله ـ وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالغرض ، كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى أنه قال : « سبقت رحمتى غضبى .

الثانى : أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير: « يصيب به من يشاء من عباده » وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب .

الثالث : أنه قال تعالى : « وهو الغفور الرحيم » ، وهذا يدل على قوة جانب الخير والرحمة .

وحاصل الكلام فى هـذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، وأنه لاموجود سواه ولامعبود إلاإياه، وأن جميع الممكنات مسندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه ، فالأيدى مرفوعة إليه، والحاجات منتهية إليه ، والعقول والهمة فيه ، والرحمة والوجود فائض منه ، ولما قدر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد ، وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالات على كونه تعالى مصدر الخلق والإبداع والتكوين والاختراع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لأحد عذر ، فقال تعالى : « قل » يا محمد « يأيها الناس » أى الذين أرسلت إليهم « قد جاءكم الحق من ربكم » وهو رسوله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن ، فلم يبق لكم عذر « فمن اهتدى » أى آمن بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب « فإنما يهتدى لنفسه » لأنه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار فأوجب لها الجنة، فثواب اهتدائه له « ومن ضل » أى كفر بها أو بشىء منها « فإنما يضل عليها » أى على نفسه لأن وبال ضلاله عليها ، لأن من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شىء ، فقد غر نفسه « وما أنا عليكم بوكيل » أى حفيظ موكول إلىّ وإنما أنا بشير ونذير ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وهذه الآية منسوخة بآية السيف، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واتبع » يا محمد « مايوحى اليك » بالامتثال والتبليغ « واصبر » أى على دعوتهم وتحمل أذاهم « حتى يحكم الله » أى ينصرك عليهم وإظهار دينك والأمر بالقتال « وهو خير الحاكمين » إذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كالطلاعه على الظواهر ، فحكم بقتال المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون . وما أصدق ما قال الشاعر العربى القديم :

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى   صبرت على شىء أمر من الصبر

نظرة عامة فى سورة يونس

(١)

ا — سورة يونس كما رأينا من السور المكية ، وهى كلها دفاع عن عقيدة التوحيد ، وجدال للشرك والمشركين ، وتقرير لصدق محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته ، وفيما بلغ به عن ربه ، ولصدق القرآن المنزل عليه ، وفيها تذكير بقدرة الله القادر على كل شيء ، والذى لا يعجزه شيء فى الأرض والسماء ، وفيها تأكيد لأمر البعث والحساب والنشور ، وقد قص الله عز وجل فى آخر السورة قصصا ثلاثا من قصص الأنبياء عليهم السلام : قصة نوح ، قصة موسى ، قصة قوم يونس ، وأشار إشارة موجزة إلى الرسل والأنبياء التى كانت بين نوح وموسى .

وفى آخر السورة جاء هـذا الإعلان الإلهى الكريم إلى الإنسانية كلها ، وإلى الناس كافة بوجوب الإيمـان بمحمد ورسالته ، وبالكتاب المنزل عليه من السماء .

ب — إن السورة كلها تقرر إمكان بعثة الرسل ، وإمكان الوحى ، وإمكان إنزال كتاب من السماء ، فالقادر على خلق السماء والأرض قادر على ذلك كله ، والقرآن الكريم فى هذه السورة يؤكد أمر البعث والمعاد والحساب ، وينفى الشك عنها ، وقد كان المشركون لا يفكرون إلا فى الماديات المحسوسة ، ولا يؤمنون إلا بالمادى من الأشياء ، ومن ثم كانت سخريتهم بأمور الغيب التى قررها القرآن الكريم وطالب بالإيمان بها ، فقال تعالى فى مطلع سورة البقرة : «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون» ، والإيمان بالغيب يشمل الإيمان بالله وبالعالم الروحى وبالرسل والرسالة ، وبالبعث والحساب

و بوجود الملائكة والشياطين . والماديون فى القديم والحديث أعداء للعالم الغيبى الغير المحسوس ، وقد سخر منهم جوته الشاعر الألمانى فقال :

بهذه العلامات قد عرفتك أيها العالم النحرير !
إن مالا تلمسه بأصابعك ، فهو بعيد عنك بعد المشرقين ،
وما لا تستطيع أن تقبض عليه بيدك ، فهو ليس بموجود فى رأيك ،
وما لا يمكنك أن تعده عدا ، فهو غير صحيح فى حكمك ،
وما لا تقدر أن تزنه بالمعايير ، فإنه فى تقديرك - واأسفا - لاوزن له ،
والنقد الذى لايحمل طابعك ، فهو فى عرفك زائف .

وقد نشر وليم باريت عضو المجمع العلمى البريطانى ، هذه الأبيات للشاعر جوته فى كتابه المسمى « على عتبة العالم المحجوب » ثم قال : قال « ميرس » الفيلسوف المفكر الألمانى فى كلمة بليغة : « يعلن المذهب المادى بصوت التحكم الذى لا يلائم التواضع العلمى ، بأن كل البحوث فى النفسية الإنسانية ، وكل مايضن بالإنسان عن أن يكون قطعة من مادة متحجرة ، يجب إبعاده عن مجال العلم إلى الأبد ، على الرغم من أهواء الباحث وأمانيه ولكن المذهب العلمى الحديث ينكر إمكان وجود حياة بدون مادة أولية بروتوبلاسما ، أى بدون تآلف خاص للجواهر الفردة التى هى أساس كل حياة أرضية . ومع هذا فإن كثيرا من علمائنا الطبيعيين يأبون قبول هذا الرأى . فإن الأستاذ العظيم « بالفور ستوارت » ، كتب قبل وفاته يقول : « قد إتضح بما لا مزيد عليه أن اعتراف العلم بعالم محجوب عن حواسنا ، هو الذى ينتقص الثقافة العقلية لجنسنا البشرى ، ولا يخالجنى شك فى أننا سنصل إلى هذا الاعتراف منه فى يوم من الأيام » .

وقد تحقق ظنه ، فإن البسيكولوجيا الراهنة قد أصبحت تهش إلى المباحث الروحية . والطبيعيون اليوم لا يؤمنون بوجود الجوهر الفرد الذى كان يقول به الفيلسوف المادى اليونانى القديم لوكريس ، وقد قهروا أصل المادة حتى أحلوها فى مملكة الأثير المجهول . وأما النظرية الآلية التى يعللون بها وجود الكون ، فقد تزعزعت وفقدت تماسكها . وهذه التأكيدات

التى يتعلل بها المذهب المادى قد هاجمتها الفلسفة منذ زمان بعيد . إن فهم المادة والعالم الخارجى على النحو الذى يتأثر به شعورنا ، هو المعضلة التى يجب علينا حلها ؛ وبما أننا لم نعرف المادة إلا بلغة هذا الشعور ، فهى لن تعطينا تفسيرا مفهوما عن العقل ولا عن الإرادة . والنظرية الآلية عن الوجود تعتبر الشعور ثمرة من ثمرات المادة ، وتعتبر الإرادة وهما من أوهام العقل .

إذا كان العلم يجيبنا بأن المقدمات التى يعتمد عليها ناتجة من التجربة المباشرة فى صورة ملاحظة لأمر واقع أو تجربة ، فماذا نقول فى هذه التجارب ، وهى قد تكون باطلة ؟ ذلك لأن تسعة أعشار مدركاتنا حاصلة بحاسة النظر ، وكل تجربة معتمدة على هذه الحاسة هى فى عرف العلم نفسه خاطئة ، لأن الصورة والبريق واللون التى تظهر بها الأشياء أمام أعيننا ، هى كما تقرر فى نظريات الإبصار ، ليست بخواص لتلك الأشياء ، ولكن تأثرات أحدثتها فينا الأمواج الأثيرية . لذلك يمكن أن نقول متابعين للأستاذ بلفور ستوارت ؛ بأن مدركاتنا من الناحية البسيكولوجية ، باعتبار أنها أصول لمعارفنا ، ليست بزائفة أحيانا فحسب ، ولكنها باطلة على الدوام . . لنمثل لهذا الأمر بمثال فنقول : كل ما يثير العصب البصرى سواء أكان بسبب الضوء أو الضعف أو الكهرباء أو أى كشاف كيمائى ، ينتج عنه برق لامع ـ لا وجود له فى الواقع ـ نراه ونسميه بهذا الإسم . ويمكننا أن نطبق هذا الانخداع على جميع أعضائنا الخاصة بالحواس . فالى أى حد يكون إدراكنا للوجود مخالفا لما هو عليه فى نظرنا ، إذا كنا محرومين من بعض حواسنا الراهنة ، كالبصر أو اللمس ؟ وإلى أى حد يكون الخلاف لو كانت لدينا حواس أخرى ، أى نوافذ أكثر على العالم الخارجى ؟ وإذا كنا لم نعط إلا حاسة واحدة ولتكن النظر ، لكنا قررنا أن كل ظاهرة طبيعية ، وكل شىء مادى ، لا يتميز إلا باختلافات الأضواء والألوان ، ولو تغير الموقف لكانت آراؤنا على العالم قد ضاقت أو اتسعت على قدر الوسائل التى نعالجه بها . إن جهلنا لهذه الحقيقة أو تناسينا إياها ، وعدم اهتمامنا بتقدير الفرق الهائل بين إدراكنا للأشياء وبين ما هى عليه فى الواقع ،

هى العوامل التى أنتجت ما نحن عليه من التردد ، وما عليه العلم والدين من التنازع . هذا ما يجب أن يعرفه الذين لم يخطر لهم هذا الأمر على بال قبل اليوم ، إن من أوليات ما تجب معرفته فى فلسفة التعقل ، هو أن كل ما نعرفه عن الأشياء الكونية ، والظواهر الخارجية ، يتألف من بضعة تأثرات باطنية؛ أما ماهية هذه الأشياء فإننا لا نعرف عنها شيئاً مطلقا ؛ وكل ما نعرفه ينحصر فى نوع من الحالات التأثرية ، وفى بضع علامات رمزية تثيرها فى عقولنا حوادث تحدث فى العالم الخارجى ، فنحن والحالة هذه لاندرك العالم المادى على حقيقته ، ولا على ما هو قريب من حقيقته ، وليس لدينا أقل علم بما نسميه « المادة فى ذاتها » .

إننا نرى حركات إبرة التلغراف ، ونستطيع أن نقرأ الرسالة التى تحملها إلينا ؛ ولكن الإبرة المتحركة لا ترينا العامل الذى يحركها ، وليس بينها وبينه أى شبه ولو من بعيد ، والإشارات التى ترسمها تعطينا رسالة يمكن فهمها ، ولكنها لم تفهم إلا لأن بين عقل العامل وعقلنا قرابة قريبة ؛ كذلك العلامات العقلية التى يعطيها مخنا وجهازنا العصبى للعامل المادى الخارجى ، ليست هى كنه ما نراه من موجوداته ولا هى شبيهة به ، فالكون الحقيق محتجب عنا كل الاحتجاب ، فإذا كنا نستطيع أن نترجم العلامات التى يبديها ظاهرة لنا ، فما ذلك إلا لأن وراء الوجود عقلا ذا قرابة قريبة بعقلنا . أما المادى فإن الكون فى نظره قائم بنفسه ، ولا معنى له غير ما يعطيه ظاهره لحواسنا ، وهذا الظاهر عنده هو حقيقته النهائية ؛ ولكنه إذا بنى نظرية آلية لتعليل وجود الكائنات فى الطبيعة ، مع منحه للذرات المادية ضربا من القدرة العلوية ومن الإدراك ، فهو بذلك يهبها خواص يجب عليه قبل تقريرها إثبات حصولها عليها . فنحن والحالة هذه مضطرون لأن نعتقد بوجود عقل لا حد له ، وباعتبار الوجود مظهراً للفكر الإلهى ، ومؤيداً على الدوام بالإرادة الإلهية ، هذا ـ دون شك ـ هو التعليل الأكثر بساطة ، والأعظم دلالة لفهم الوجود ...

(٢)

وسورة يونس مكية مما يدل عليه أسلوبها وروحها وجوها الفنى ، ومما يدل عليه أفكارها ومعانيها وموضوعاتها :

١ — وقد بدأت السورة بتمجيد القرآن الكريم ، والعجب من عجب الكافرين برسالة محمد ، وبالكتاب المبين الذى نزل عليه ، ورميهم لمحمد بالسحر ، ويرد الله عليهم فى ذلك رداً بليغا ، فيذكر بعض مظاهر قدرته من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ومن الاستواء على العرش ، ومن تدبيره الأمر كله ، ومن شفاعة الشافعين عنده بإذنه ، ومن كون المرجع إليه وحده ، فهو يعيد الخلق كما بدأه ، يعيده ببعث الناس من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم للجزاء والحساب ، فللمؤمنين الجنة ، وللكافرين عذاب الجحيم . . ثم يعود القرآن هنا فى هذا الموضع إلى ذكر بعض مظاهر قدرة الله عزو جل تدليلا على قدرته - تعالى - على البعث وعلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية للهداية ، فيذكر الله عز وجل خلقه للشمس ضياء ، وللقمر نورا ، وتقديره له منازل لمعرفة عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، وهنا إشارة إلى أن الذين يستفيدون من هذه الآيات هم العالمون ، وفى هذا ما فيه من التنويه بشأن العلم ، وقد ذكر العلم فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ونوه الله عز وجل به فى مناسبات عدة . إنه لا يوجد دين من الأديان ، ولا نظام اجتماعى من النظم المعروفة قديماً وحديثاً يبلغ شأو الإسلام فى رفع شأن العلم ، والتنويه بقيمته ؛ وفى الدعوة إليه ، والتعويل عليه ، فقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » ، اعتد الله فى هذا الأمر الجلل بشهادة أهل العلم ، فرفع من قدر العلم إلى حيث لا مرتقى بعده ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وفى هذا من تشريف العلم ما فيه ، إذ حكم بأن أهله يمتازون عن سواهم ، لأنهم حملة النور الإلهى ، والقائمون برفع

كسف الجهل عن العقول . وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : للعلماء درجات فوق المؤمنين عدتها سبعمائة ، وقد زاد الله تعالى فى هذه الوصايا الكريمة قوة ، فجعل كمال التقوى متوقفا على العلم ، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وربط به فهم الأمثال التى يضربها للناس ليهديهم إلى طريق السعادة ، أو ليستنهض هممهم للخير ، فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، وقال تعالى : « نفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وماذا تريد من دين يحب أن يقيم أمر جماعته على العلم أكثر من أن يفرضه عليهم فرضا ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أو لم يقل « اطلب العلم ولو بالصين » ؟ فأى علم يقصد الدين من كل هذه الوصايا التى يدلى بها والتحضيضات التى يبذلها ؟ لا شك أنه يريد به كل ما يحتمله لفظه من المعارف التى أتيح للبشر الإلمام بها . فاتل قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » . ألا ترى أن فى تذييله الآية بحصر خشية الله فى العلماء دلالة على أن المراد بالعلماء هنا العارفون بأسرار هذه الشئون الطبيعية ، والواقفون على حقائق الأسرار الكونية فوق علمهم بالأمور الإلهية ؟ واتل قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . ألا ترى أن فى تذييل هذه الأمور الكونية بقوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للعالمين » إشعارا بأن المقصود بالعالمين الذين يلمون بما هدى اليه الباحثون من هذه المعارف الطبيعية والإنسانية ؟ فالعلم الذى يدعو إليه الكتاب ، وتحث عليه السنة النبوية ، هو كل ما يدفع به الجهل والخبط ، سواء أكان فى العقائد الدينية ، أم فى الشئون المادية . فقد علم الله سبحانه وتعالى

أن الإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح فيما يتعلق بعقائدها ، تحتاج كذلك إلى علم بما تستصلح به معيشتها ، وتبنى به اجتماعها ، وتستكمل به وسائلها ، وتحكم به جميع محاولاتها . وقد فهم آباؤنا الأولون هذا الفهم نفسه ، فهبوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لطلب العلم بأوسع ما يحتمله هذا اللفظ من معان ، فتخصص بعضهم لعلوم الدين ، وفرق أخرى استهدفت العلوم الكونية على اختلاف موضوعاتها : من فلك ورياضة ، وطب وصيدلة ، وكيمياء وطبيعة وغيرها ، فاستوعبوا كل ما وجدوه شائعا من كتبها ، فلما لم يرو لهم غلة شرعوا يترجمون ما ادخره اليونان والرومان والفرس فى مكتباتهم ، فاستخرجوا منها ما كان فى حكم المعدوم ، فألفوا من ذلك كله مجموعة من العلم لم تتذق لأمة قبلهم ، فقد حشروا اليهـا كل ما ثبت نفعه من المعارف ، غير متأثرين بعصبية ، ولا بنزعة جاهلية ، كما وصاهم رسولهم صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » ، فكانوا لايبالون فى العلم أن يأخذوه من أى مصدر كان ما دام ينتفع به ، ولا يأنفون أن ينتفعوا بالعلماء وإن كانوا من غير ملتهم ، فأسندوا رئاسة كثير من جامعاتهم العلمية لرجال من ذوى الملل الأخرى ، لما ثبت لهم أن ليس فى المسلمين إلى ذلك العهد من يسدون مكانهم . وقد ثبت أن أسلافنا لم يتأثموا من تعلم شىء مما ترجموه ، بل تناولوه جملة وأوسعوه تحقيقا وبحثا ، فنفوا ما ثبت بطلانه ، واحتفظوا بما عرفوا صحته ، فزادوا مادته ، واكتشفوا علوما لم تكن معروفة قبلهم كعلمى الكيمياء والجبر . ولم يتحرجوا من البحث فى أى مذهب من مذاهب العلم بحجة أن ذلك يضر بالدين ، أو أن الدين يحرمه ، حتى بحثوا فى السحر والطلاسم والأوفاق والزايرجا والتنجيم والسيمياء ، وكل ذلك تحت شعار هذه الحكمة العالية : « تعلم السحر ولا تعمل به » . وهل سمعت فيما قرأت من تاريخ الحروب أن أمة منتصرة تفرض فيما تفرضه على الأمة المغلوبة أن تعطيها مكتبة علمية ؟ هذا ما فعله المسلمون على عهد المأمون بن الرشيد ، فقد شرطوا فى صلحهم مع الرومان تسليمهم مكتبة عينوها لهم ، فقبل امبراطورهم

هذا الشرط وسلمهم المكتبة ، فأكبوا على ترجمة أحسن ما فيها ، وأضافوه إلى ما سبق لهم ترجمته ، حتى أصبحت لهم زعامة العلم فى الأرض وصارت مدارسهم وجامعاتهم معاهد للثقافة العالية يقصدها الناس من كل بقعة فى العالم.

يقول « درابر » الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : « إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ م - أى بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها الصحيح » . . إلى أن قال :

«وقد ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يجدد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث ، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوربيين ، فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ، والدستور العملى الحسى. وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة فى الميكانيكا والإيدروستاتيك - علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها - ونظريات الضوء والإبصار ، أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ . وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة ، والإسطرلابات - هى آلات لقياس أبعاد الكواكب - وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية - الأزياج جداول تعرف منها

حركات الكواكب ـ مثل التي كانت في بغداد وقرطبة وسمرقند . وهو أيضاً الذي أوجد لهم هذا الترقي الباهر في الهندسة وحساب المثلثات . وهو أيضاً الذي مهد بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية ».

إن الإسلام يدعو إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الإنسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان ، . وقد صحبت الثقافة الإسلام في كل مكان . وكانت العواصم الإسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء ، ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصي الدنيا . وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعاً مستمراً . كل هذه حقائق لا يستطيع أن يتمارى فيها إنسان، أما التربية الإسلامية الصحيحة ، فهي مفروضة، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم في المنزل والمسجد وفي المدرسة ، وفي مجالس العلم والعلماء ، وعلى الحكومة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة . وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجدان ، وتهذيب السلوك ، وتنمية الإدراك ، وعلى المعلم أن يكون قدوة للمتعلمين في آدابه وأخلاقه وسلوكه . ولا فرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى في مجال التربية والثقافة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان النساء يحضرن مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتي الناس ، وفيها قال رسول الله : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . كما أنه لم يكن هناك فرق بين العناصر ، والألوان والأجناس في هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء في الأمة الإسلامية من أصول وعناصر غير عربية . . فأين هذا مما يحدث الآن في أمريكا من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى في ميدان الثقافة ؟ ولعلك قرأت قصة الطالب الزنجي « پرس لي جوليان » الذي كان متفوقاً طول حياته في دراساته حتى نال درجة أستاذ في الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيداً ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى

البيض أن يكون معلما لهم . إن الإسلام الذى حرر العقل البشرى من كل قيد ، هو الذى حرر الثقافة وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء. وأساس التربية الإسلامية إنسانى محض : إشعار الإنسان بأنه مسئول عن الإنسانية جميعها . . . اقرأوا إن شئتم قوله صلوات الله عليه : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة ، أو قوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ؛ أو قوله : « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شىء » ، أو قوله : « إذا قتلتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أوقوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ، أو قوله لأعرابى أجهد بعيره ، فلما كل من العمل أراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره » . فستجدون الطابع الإنسانى واضحا كل الوضوح فى كل كلمة وكل عمل وكل مبدأ وكل تشريع فى الإسلام عامة ، وفى التربية الإسلامية خاصة . يبنى «أمانول كانت» مذهبه فى الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول فى الأخلاق . . . ولعلكم تتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبد الله سبق الفلاسفة كما سبق المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة فى الأخلاق والاجتماع والتربية .

ويعود الله عز وجل فى مطلع سورة يونس إلى ذكر الفرق بين المؤمنين والكافرين ، وإلى ذكر مصير الفريقين فى الآخرة ، يبين قلق الكافرين ، واطمئنان المؤمنين ، حين يلقى كل فريق جزاءه فى الآخرة على ماقدمت يداه.

ب — وفى الربع الثانى من سورة يونس يذكر الله عز وجل تعجل الكافرين والمشركين للعذاب ، وما ركب فى طبيعة الإنسان من الهلع والفزع إلى الله عز وجل فى المحن والخطوب ، ومن نسيان الله عندما يفرج ما ينزل به من كرب ، وما يحيط به من محن ، ويذكر الله عز وجل ما نزل بالأمم الماضية من العذاب ، لما ظلموا وكفروا وأشركوا بعد أن جاءتهم رسلهم

بالبينات ، فلجوا فى العناد ، وقاوموا دعوات الأنبياء ، فجزاهم الله عز وجل شر الجزاء بما كانوا يعملون .

وهنا يبين القرآن الكريم ما تصنعه قريش مع الرسول ، وقولهم له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، كما يذكر رد الرسول عليهم ، وقوله لهم : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون .. ويذكر الله عز وجل أنه لا أحد أشد ظلما من الذين يفترون على الله الكذب ، أو يكذبون بآياته ، ولو فعل الرسول شيئاً من ذلك لكان معدودا من الظالمين ، ولا يفلح الظالمون المجرمون المفترون . . . ويشير الله عز وجل إلى شرك المشركين من العرب بالله ، وقولهم للأوثان : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ويرد عليهم رداً بليغا ، بأن ذلك كله لا نصيب له من الصحة ، ولا من الحقيقة ، وأنه شيء لا يعلمه الله فى السموات ولا فى الأرض ، والشيء الذى لا يعلمه الله لا يكون له حقيقة ولا وجود .. وتنزيها لله عما يشرك المشركون . ويبين الله عز وجل أن الناس كانوا جميعا على عقيدة التوحيد ، فاختلفوا ، ولو لا كلمة سبقت من الله بإمهالهم لصب عليهم العذاب صبا ، ولقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم يذكر الله عز وجل لونا آخر من اقتراحات المشركين على رسول الله ، وقولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه ، وقالوا « عليه » بضمير الغيبة استهزاء وسخرية أو تحقيراً وتهوينا بشأن الرسول ، فيقول الله عز وجل لرسوله العظيم : قل إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين .. ويبين الله عز وجل إثر ذلك ما ركب فى النفس الإنسانية من الكفر بالله والإشراك به إذا أذاقهم خيرا ورحمة ، ويقول لهم : إن كنتم تمكرون بالله فالله أشد مكرا ، وملائكة الله يسجلون عليكم ما تعملون ، ويكتبون ما تمكرون . ويضرب الله على ما قال : بعض الأمثلة ، وهو أن الناس يركبون البحر ، ويستقلون السفن ، وقد تثور العواصف ، وتوشك السفينة على

الغرق ، فيأخذ راكبوها فى الدعاء إلى الله ، فينجيهم ، ويكشف ما أحاط بهم من كرب ، فلا يعتبرون بذلك ولا يقابلون صنيع الله بالشكر والحمد ، بل يقابلونه بالكفر والعصيان والبغى بغير الحق ، ويرد الله عليهم ردا بليغا : إنما بغيكم على أنفسكم ، وماهو إلا متاع الحياة الدنيا ، ثم إلى الله مرجع الناس جميعاً ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، نعم ماهو إلا متاع الحياة الدنيا . فالحياة كلما ازدهرت وأشرقت واتسع عمرانها ، ونمت حضارتها واقتصادها لاتلبث حين يأتيها أمر الله ، إلا أن تصير ذابلة كاسفة ، كما تذبل الزهور والأشجار بعد نضرة ، وكما تذوى النباتات بعد إشراق ، وبعد أن نزل عليها المطر من السماء فأرواها ، ومنحها النضرة والبهجة والرواء ، فإذا جاء أوانها ذبلت وصارت كأن لم تسكن بهجة مشرقة زاهية ، وهكذا تعود الأرض كسيفة كئيبة ، يجعلها الله حصيدا كأن لم تغن بالأمس وكذلك يفصل الله الآيات لقوم يتفكرون، ولا ينسى الله عز وجل أن ينبىء المشركين بمصيرهم ، والمؤمنين بعاقبتهم ، وأن يكشف لهم الحقيقة كاملة ، تحذيرا وإنذاراً . فللمؤمنين المحسنين الحسنى وزيادة، ولهم السرور والنعيم والبهجة ، وللكافرين العذاب والذلة والكآبة .

ولا يلقون ذلك العذاب فحسب ، بل يتخاصم المشركون مع الشركاء ويقول بعضهم لبعض مايقولون توبيخا وألما وحسرة ، ويقرر القرآن الكريم أن كل إنسان فى الآخرة يختبر عمله ، ويريد الاعتماد عليه ، ولكن المشركين يردون إلى الله مولاهم الحق الذى كفروا به فى الآخرة ، ويبحثون عن الشركاء الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا فلا يجدون لهم أثرا ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

ج ـ أما الربع الثالث فهو تذكير للمشركين بنعم الله عليهم ، وبقدرته العظيمة فى السماء والأرض وفى الحياة والوجود ، وأن صاحب هذه القدرة العظيمة هو الله وحده.. الله المعبود ، والرب الحق ، والإله الذى يجب أن يتجه إليه الناس جميعا ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولكن حقت كلمة الله على المشركين والكافرين أنهم لايؤمنون . . ثم يوبخ الله عز وجل المشركين ،

فيقول لهم : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ، هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، وينزل كتابا ورسولا لهدايتكم إلى الرشاد . . ويوبخهم بأنه المشركين والكافرين لايتبعون إلا الظن ، والظن لايغنى من الحق شيئا ، والله عليم بما يفعلون ، فعاقبهم عليه .

إن الإنسان محمول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له ، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم ، وقادة أديانهم ، ومن طريق التقليد بدون نقد ولا تمحيص . ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد فشرط أن يكون أساسها العقل ، وسنادها الدليل . وهذا مالا عهد للإنسانية به إلا فى العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذى أحدثه فيها العلامة الانجليزى الكبير بيكون من لدن القرن السابع عشر ، فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات . مما أحدثه هذا العبقرى الانجليزى من التمحيص فى مجال المعارف المادية ، سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة فى عالم المعتقدات الدينية . فليس على مسلم بموجب هذا الأصل الإسلامى أن يتناول عقيدة من كائن من كان دون أن يعقلها ، وأن يستطيع أن يدلل عليها ، حتى ساغ لأهل الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لا يقبل منه . هذا حدث جلل لم يكن يخطر لأحد على بال من أهل الأجيال السالفة ، ولا يزال يجهله غير المسلمين ويظنون أن الإسلام دين كالأديان المعروفة . إن العقل فى ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التميز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، ولكنه فى حاجة إلى نور يستمده من الخارج ، تظهر له به الأمور على ما هى عليه فى الواقع ، فما كل ما ظهر لأول وهلة أنه حق يعد حقا ، ولا كل ما تبادر إلى الذهن أنه باطل باطلا ، ولا كل ما لاح أنه حسن حسنا ، ولا كل ما أوهم مظهره أنه قبيح قبيحا ، ولو كانت هذه الخاصة تدرك الأشياء على حقائقها دون حاجة إلى ما يقومها ويكملها ، لما شجر بين الناس خلاف على معقول قط ، بل لما تنازعوا على شىء أصلا ، ولا كان هنالك تفاوت بين ذوق وذوق ، ولا بين نظر ونظر . فالعين خاصيتها المميزة رؤية

الأشياء على ما هى عليه فى ظاهرها ، ولكنها فى حاجة إلى نور خارجى يبين لها الأشياء فى مواضعها ، ويظهر تفصيلاتها ، ويشترط أن يكون ذلك الضوء خاليا من الشوائب ، وكافيا لإظهار جميع الدقائق . فما كل ما يلوح فى الغبش أنه حسن حسنا ، ولا أنه قبيح قبيحا . وهنالك ما هو أدق من هذا تأثيرا فى تقدير الحسن والقبح ، وهى الخصائص الذاتية والمزايا التبعية ، فالمرارة تعتبر قبحا ، ولكنها فى العلاجات المفيدة بمرارتها تعتبر حسنا ، وإذا اشتدت صارت غاية فى الحسن . والحلاوة تحسب حسنا ، ولكنها إذا اشتدت حتى أحدثت غثيانا وقيئا عدت قبحا ، وإذا أفرطت اعتبرت نهاية فى القبح . فخاصية العقل بحكم وظيفته فى التفرقة بين الأمور الفاضلة والرذلة ، والشئون النافعة والضارة ، فى حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية ، والمقومات الخارجية : فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها ، والتجارب على اختلاف مواضيعها ، فإن العقل الخاوى من العلم والمجرد من التجارب ، يتعقل الأشياء تعقلا ساذجا ، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزا سطحيا ، ولكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل ، أو بين حسن وقبيح تفرقة صحيحة ؟ إذا كان ذلك ممكنا ما اختلف الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم ،

لذلك عنى الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية ، بقدر ما عنى بنصب العقل حكما بين ماهو حق وباطل . وحسن وقبيح ، وخير وشر. فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حث على وجوب طلب العلم ، فقال تعالى: «وقل رب زدنى علماً» ، وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه ، وهو يريد أن يكون للآخذين به جميع المزايا التى يمكن أن يتمتع البشر بها ، فقال تعالى : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات، تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» قال البيضاوى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم» بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان فى الآخرة . «والذين أوتوا العلم درجات» ويرفع

العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل . فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة . ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره . وفى الحديث : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . نقول : وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدرجات بسبعين درجة .

وقد حض الإسلام ذويه أيضا على إجالة الفكر فى الأمور ، وتناولها بالبحث والتقدير ، وحرضهم على النظر فى الكون والكائنات وتنور أسرارها ، واستكناه أسرارها ، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح ، فقال تعالى : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » : وقال « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . و « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » . وكرر ذلك فى عشرات من الآيات . وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير ، حتى جعله النبى صلى الله عليه وسلم خير ضروب العبادة ، فقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر اليها وهى : التفكير فى الوجود فى جملته ، فقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقال « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وقال : « أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » . والتفكير فى الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية ، والتأمل فى صورها وأشكالها ، وطبائعها وأسرار وجودها . قال الله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ـ أى رطبا ـ وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ـ أى ذات أشجار غليظة ـ وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » . وقال : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن

فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » الخ . . ثم التفكير فى الإنسان ، تكونه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه ، قال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » ، وقال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » . وقال « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » ، وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » . فهذا ومئات من أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها ، ويثير فيها رغبة ملحة لكشف الأستار واستجلاء غوامض الخليقة ، فتجد فيها مادة العقل غذاء لها يبلغها غاية ما تصل اليه من قوة التحليل والتركيب للمعقولات ، فلا تؤخذ بظاهر خلاب ، ولا عرض فاتن ، فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر ، والغوص لاستخراج الحقائق . ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل ، فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم ، ومعاملة الشعوب وحفزهم ، إلى التجوال فى الأرض ، والضرب فى أكنافها ، ودراسة أحوال الجماعات البشرية ، والنظر فى شئونها ، من قوة وضعف ، وعزة وذلة ، وارتقاء وجمود ، والبحث عن أسباب ذلك وعلله ، من أمورها الراهنة ، وتاريخها الماضى ، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية ، وقياسها بالمقاييس الحكمية ، قال تعالى : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ؟ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقال : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، وصرح جل وعز بأن ثمرة

هذه السياحات إزاحة ما على القلوب من ظلمات الجهالة ، وما على العقول من غاشيات الغباوة ، وإزالة ما علق بالنفس من رين العماية ، قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . لم يدع الإسلام هدفا من أهداف النظر ، ولا موضعا من مواضع الاستبصار ، ولا عاملا مما يوقظ غريزة التأمل ، وينبه خاصة التفهم ، إلا دعا إليه واستنهض الهمم للتنافس فيه ، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنمو ، فيبلغه النضج الذى يصبح معه قادراً على الحكم على ما هو حق ، وما هو باطل ، وما هو حسن ، وما هو قبيح ، حكما يكون هو الصواب أو قريبا من الصواب .

إن الحق يوصل إلى الله ، وإن الشرك وعقائد الضلال إنما هى مبنية على ظنون وأوهام ، والعقائد يجب أن تكون مبنية على الحقائق لا على الأوهام ، وهناك يبلغ القرآن غاية السمو فى تقرير هذه الحقيقة ، إذ يطالب الإنسانية بالتخلى عن أباطيلها وأوهامها وأساطيرها ، والعودة إلى الحقيقة وإلى عبادة الله الحق ، وإلى نبذ الأوثان والأصنام ، وإلى ترك عبادة مالا يضر ولا ينفع ولا يغنى عن الإنسان شيئا ، والحق لا يكون إلا عن نظر واستدلال وبحث وتجربة توصل إلى العلم اليقينى ، وإلى الحقيقة كاملة ، والعلم يوصل دائما وأبداً إلى الله . . أما الأوثان المعبودة ، فلا يوصل إلى عبادتها إلا الظنون والأوهام والأباطيل ، والشيطان الذى يغرر بالناس ويدعوهم إلى عذاب السعير . .

وتعود سورة يونس إلى أكاذيب المشركين حول القرآن الكريم ، ويفند أباطيلهم ، ويتحداهم — ماداموا يقولون إن محمداً هو الذى افترى القرآن واختلقه — بأن يأتوا بشىء من مثل ما اختلقه محمد ، فمحمد بشر ، وهم بشر مثله ، وإذا كانت مواهب محمد ومقدرته قد قادته إلى اختلاق القرآن ، فهم جديرون إذاً بأن يأتوا ولو بعشر سور مفتريات فى مثل بلاغة القرآن ، أو من مثل ما اختلق محمد من سور هذا القرآن ، إن كان محمدا اختلق القرآن كله فليختلقوا هم عشر سور ولو من صغار سور القرآن الكريم ، ولكنهم يعجزون لأن القرآن

ليس من كلام محمد ، بل هو من كلام رب محمد ، وما كان للقرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .. لقد كذب المشركون بالقرآن ، بما لم يحيطوا بعلمه ، بما لم يأتهم تأويله ، كما كذب الذين من قبلهم بالرسل وكتب السماء ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . إن من العرب من يؤمن بالقرآن ومنهم من لا يؤمن به ، والله عز وجل هو الذى يعلم الصالح من المفسد ، ويعرف نية كل إنسان وعمله وما يستحقه من جزاء ، ويطمئن الله عز وجل رسوله الكريم بأنه ليس مسئولا عن إيمانهم ولا عن هدايتهم ، له عمله ، ولهم عملهم ، إنه برىء مما يعملون . والله عز وجل هو الذى يجازيهم على ما يعملون ، وهو لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون . . ومصير الناس جميعا إلى الله ، يوم يحشرهم جميعا ، فيجازيهم على ما عملوا ، فلا يلقى الكافرون إلا الخسار والوبال ، ولكل أمة رسول ، ولكل أمة أجل ، فلماذا يستعجل المشركون أجلهم ؟ ولماذا يتعجلون عذاب الله ، إن عذاب الله قريب ، وللمشركين عذاب الخلد بما كانوا يكسبون . .

د ــ أما الربع الرابع من سورة يونس « ويستنبؤنك أحق هو » فقد بدأه الله عز وجل بتقرير أمر الجزاء ، جزاء كل إنسان على ما عمل ، وأن للظالمين أنفسهم بشركهم وكفرهم عذاب الخلد جزاء بما كانوا يكسبون ، يوم يود الظالمون لو افتدوا أنفسهم يوم القيامة بكل ما فى الأرض ، وبدت الندامة على وجوههم لما رأوا العذاب ، وقضى الله بينهم بالعدل والحق والإنصاف ، وهم لا يظلمون ؛ إن هذا لا يعجز الله فى شىء ، وكيف يعجزه ولله ما فى السموات والأرض ، ووعده الحق ، وقوله العدل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ بل كيف يعجزه شىء فى الأرض أو السماء ، وهو الذى يحى ويميت وإليه المرجع والمصير ، وهنا يعلن الله عز وجل إلى الناس كافة ، إلى الإنسانية كلها ، إلى البشر جميعا ، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد جاءتهم على يدى محمد الموعظة من الله ، وجاءهم شفاء لما فى الصدور من ريب وحيرة وشك ؛

وجاءهم الهدى والنور والرحمة ، وكل هذا إنما هو للمؤمنين برسالة محمد ، رسالة الإسلام والسلام والهدى والحق والبينة.. وما أروع ماوصف به القرآن الكريم رسالة محمد ، رسالة الإسلام ، فى هذه الآية الكريمة : موعظة من الله ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة . . أليس كذلك كان الإسلام ؟ وأليس كذلك هو الإسلام فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وطول حياة الإنسانية المديدة ؟.. والإسلام اليوم غريب من جماهير المسلمين ، غريب عن عقولهم لا يألفهم ولا يألفونه ، يرتلون اسمه فى المحافل ترتيلا ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه ، الإسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى ، وأكبر ثورة بشرية ، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الإنسانية ونظريات الاجتماع ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان ، هذا الدين السماوى الخالد هو الذى ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهريا ، ويحرمون أنفسهم من الإفادة بتعاليمه ، بل ويجاهر بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود ، كذبوا وأيم الله ؛ فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الإنسانى ، والعزة والكرامة والمجد ، وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة الا بعد أن فهمت أصول الإسلام ، واقتبست من شريعته فى الإصلاح ، بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة . وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق ، وأصول البحث والتفكير ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل . كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب ، دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء التى هى الآن أساس المدنية الغربية .

يفاخر العالم الغربى بمجانية التعليم التى سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد ، وأنتم تعلمون أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم بها ، بل وتزيد على ذلك ، فتصرف لطلابها الغذاء والكساء وتهيء لهم السكنى فى مساكن مدرسية خاصة . ويفاخرنا الغرب بمجانية العلاج وهو نظام سبق إليه المسلمون فى العصور القديمة . ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عممه فى بلادهم مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقد كان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل وأبناء السبيل، كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة ، وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والإرث ، ودعوته إلى الإحسان ؛ وفرضه حقا معلوما للفقراء فى أموال الأغنياء . ويفاخرنا الغرب بنظامه الديمقراطى مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية ، التى كان دستورها القرآن . والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ، ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء . وجعل فيها الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى الأرض ، وبأنه فوق القانون والمسئوليات . ولعلكم على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » : ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر : « إن رأيتمونى على حق فأطيعونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى» وقوله لعمرو بن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ » وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، وغير ذلك مما يعد دستورا خالدا فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم ، الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين ، وأخوة الناس جميعا فى الإنسانية، ولم يجعل لعربى على أعجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل

الصالح ، وألغى الفرق بين الطبقات والعناصر والألوان والأجناس والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ، ونشر كلمة الله والهدى والنور ، والحق والخير والمعرفة . الدين واحد والناس جميعا إخوة ؛ يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله . ولا يزال الغرب يدعى بأنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة منذ بدء الثورة الفرنسية حتى اليوم .

وما أشد جرأة هؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها . وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل ، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والأمن ، وحقه فى الملكية وفى الكرامة الإنسانية ، وفى تكوين الأسرة وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها وإلى الاخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة والمساواة الشاملة والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ، وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق . لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من المهن . . فأين هذا من سماحة الاسلام وجلاله وسمو مبادئه ، الذى ساوى بين العامل والأمير ، والغنى والفقير والكبير والصغير .

وأوربا المتمدينة اليوم لا ترى بأساً من فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات والحجر على الحريات ، فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض . . فأين هذا من عدالة الإسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صوره ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للمسلمين الحاكمين ؟ والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم ، لا ترى أيضا ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ، فى حروب منظمة ، يعجز العقل عن تصور هولها وفظاعتها . فأين هذا من شريعة

الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حق الإنسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب ، حتى لقد أوصى رسول الله صلوات الله عليه جنده فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

لقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر وهو خليفة لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب ، وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبد الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وأن يغضب « على » لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لاتبال على من وجب الحق ، ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله» . فضلا عن تحريم الإسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل ، وقاعدة الاقتصاد فيه « فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » ، كما أن قاعدة الإسلام فى أصول الاجتماع قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » . هو بحق دين اشتراكى عادل ، بما شرعه من زكاة وإحسان ووصية ووقف ، وبجعله بيت المال فى خدمة المسلمين عامة ، ومساعدتهم على الحياة .

إن مفاخر الإسلام فى احترامه لحقوق الإنسان ، وتأييده وحمايته لها ، وفى وضعه لأصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى إيقاظه الروح الإنسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالإشادة والتقدير ، حرية بأن نفهمها وتتدبر معانيها ، ونقتبس من أصولها مايحيى الروح ويوقظ العزيمة ، وينبه راقد الفكر فى شتى أرجاء العالم الإسلامى . إن الخير كل الخير فى أن يتنبه الشرق الغافل إلى أصول دعوة الإسلام ، التى جهلها وتناساها وتركها ، وإنه لحرى بالمسلمين جميعاً أن يأخذوا بتعاليم محمد وأصول رسالته الكريمة ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحاً ، ليسعد الناس وتستقر الجماعات ، وتهدأ الفتن ، وتصحح الأوضاع ، فالعالم لن يحيا من هوته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، التى لابد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . وصدق الله العظيم حين يقول : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

هذا هو الإسلام ، وما أعظم مبادىء الإسلام ، وما أكرم أصوله وقواعده ، إن الإسلام يحذف الامتيازات الفردية وللطائفية ، ويمحو ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات ، لا يفرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبلاء والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقى طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعدل واحترام كرامة الفرد .

ولقد عنى ملوك المسلمين بنشر العلم والثقافة والحضارة فى كل مكان ، فى بغداد وقرطبة ومصر ودمشق وحلب وتونس ، وسواها من عواصم البلاد الإسلامية ، وهذه العواصم هى المنابع التى استمد منها الغرب الثقافة والعلم والحضارة فى القرون الوسطى . يقول الأستاذ بريفولت الانجليزى فى كتابه « تكوين الإنسانية » : تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام . ويقول : إن رئيس ديركلونى تأسف على أن رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من

فرنسا وألمانيا وانجلترا يردون أفواجا أفواجا إلى المراكز العلمية العربية » وقال : العلم هبة عظيمة الشأن ، جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر » فلم تكن إيطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة بل الأندلس ، لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربي : بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة ، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلي ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنساني جديد .

وهنا وفي هذا الموضع يطالب القرآن الكريم العرب عامة بالفرح برسالة محمد ، والسرور بها ، الفرح بها لأنها مجد لهم وذكر ، وعزة وخير ، ولأنه رسولها منهم ، ولأن كتابها نزل بلغتهم ، ولأنهم لا بد أن يكونوا هم جنود الدعوة ودعاتها ، قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون . . وينعى الله عز وجل بعد ذلك على المشركين شركهم وضلالهم وعقائدهم الفاسدة ، وينبههم إلى عظمة الله وسعة ملكه وإدراكه وعلمه ، وإلى عظمة المؤمنين برسالته ومنزلتهم الطيبة في الدنيا والآخرة ، ويسلي الرسول الكريم ويسرى عنه الهموم والأحزان ، ويدعوه إلى أن لا ييئس ولا يحزن لما يقول المشركون والكافرون ، فالله عز وجل سميع لأقوالهم ، عليم بأحوالهم ، له من في السموات ومن في الأرض ، هو المعبود بحق ، لا معبود سواه ، أما الذين يدعون من دون الله شركاء فلا يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يتقولون الحقيقة كذبا وزورا . . ويمتن الله عز وجل بنعمه الجليلة عليهم ، وبأن جعل لهم الليل سكنا ، والنهار مبصرا ، ولفظ « مبصر » هنا من الألفاظ العجيبة التي يقف العقل والذوق حائرين أمام بلاغتها وإعجازها . . ويندد الله عز وجل بالمشركين وبقولهم : « اتخذ الله ولدا » ، ويبين كذبهم على الله وعلى الحقيقة بهذا الاعتقاد الفاسد والكلام الكاذب ، وينذرهم وينذر معهم المفترين على الله والمكذبين بآياته ، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن لهم متاعا قليلا في الدنيا ، ثم مرجعهم إلى الله ، فنذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون .

٥ - أما الربع الخامس من سورة يونس فقد تضمن ذكر قصة نوح ،

والإشارة إلى قصص الأنبياء بين نوح وموسى ، وتفصيل قصة موسى مع فرعون ، وقد بين الله عز وجل العبرة من هذه القصص جميعا ، بأروع تصوير وأبلغ بيان .

٦ — وفى مطلع الربع السادس يذكر الله عز وجل نهاية قصة موسى مع فرعون ؛ وغرق فرعون ، واستخلاف قوم موسى فى الأرض ، ولكن أساءوا خلافة الله فى الأرض ؛ فأخذهم الله بالعذاب الشديد ، وبدد دولتهم ، وأهلك شعبهم ، وأزال الملك عنهم وشردهم فى الأرض ، وقد جرت عادة الله عز وجل منذ عهد آدم إلى أن يستخلف فى الأرض أمة بعد أمة ، وإلى أن لا يهلك أمة إلا إذا فسدت فى الأرض وبغت وعتت عن أمر ربها وفسقت ، ولقد أهلك الله أمة بعد أمة ، واستخلف شعبا بعد شعب ، حتى استخلف المسلمين على العالم ، وفى تصريف شئون الأرض ، وفى حكم هذه الدنيا ، وإنه لا يوجد تعليم من التعاليم الإصلاحية ، ولا مذهب من المذاهب الفلسفية ، ولا نظام من النظم الاجتماعية ، رفع من شأن المجتمع الإنسانى وناط به أعظم المهام العالمية ، إلى المستوى الذى رفع إليه الإسلام المجتمع الإسلامى . فالإسلام بعد أن أقام مجتمعه على الأصول الأدبية الخالدة ، والمبادىء الخلقية العامة ، أصبح من المعقول أن يكل اليه ما يتناسب وهذه الأصول والمبادىء من المهام الكريمة ، والخطط الشريفة . إن المجتمعات الإنسانية كلها قامت على الحاجات المادية ، والمصالح القومية ، مجردة عن كل اعتبار أدبى ، أو أصل روحانى . ولما استطاعت تلك الجماعات بفضل تكافل أفرادها أن تأمن شر الغوائل ، من عدو مغير أو مجاعة مهلكة ، نشأت فيها بحكم الفطرة الإنسانية نزعة إلى ترقية آدابها ، وتهذيب أخلاقها ، ولكنها اعتبرت ذلك خاصا بآحادها ، فحرمت عليهم العدوان على الأموال والأعراض والأنفس ، وحضتهم على خصال من الرفق والعطف والعدالة ، ولكن كل جماعة قصرت كل ذلك على نفسها ولم تطبقه على غيرها ، فكانت تعاقب من يقتل واحدا من مواطنيه بالقتل ، ولكنها كانت تجازى من يقتل أجنبيا بالإعجاب والمدح . فالأخلاق التى كانت لدى الأمم

فى أرقى عهودها كانت لاتعدو أخلاق قطاع الطرق . وكانت الأخلاق الصحيحة التى يحملها إليها الأنبياء والمرسلون تشوه وتحرف ، أو ترفض .

وعلى الفساد والطغيان كانت دولة كسرى ودولة قيصر ، اللتين ورث عنهما المسلمون خلافة الله فى الأرض .. على هـــذه الحال كانت الأمم المشهود لها بالرسوخ فى المدنية حتى إلى العهد الذى ظهر فيه الإسلام ، أفلا يكون من مصلحة الإنسانية ، وهى على وشك تطور جديد يلائم مواهبها العلوية ، أن يحى الله أمة من وسط هـذه الرمم ، ويجعل ترابط آحادها قائمـا على أرقى الأصول الأدبية ، لتـكون مثلا تحتذيه الجماعات فى تـكوين بنيتها الاجتماعية ، وأن يجعلها من القوة الحيوية ، والسطوة المـادية ، بحيث تظهر على الأمم كافة وتدفعهـا لإعادة النظر فى روابطها القومية ، وسـيرتها الدولية ؟ .

نعم ، لقد كان ذلك ، وظهرت من بقعة هى أبعد البقاع الأرضية عن الألفة والاجتماع ، أمة رابطتها الفضيلة الخالصة من الشوائب ، المطلقة من القيود ، لا تشوبها روح القوميات ، ولا فروق اللغات والجنسيات ؛ فهى عالمية حسا ومعنى ، لم تقم على مثل الأصول التى قامت عليها أمة من قبل ، ولا ينتظر أن أن تفوقها فى هذه المزايا أمة من بعد . وهـذا حادث تاريخى جلل يجب أن ينوه به المسلمون فى كل ناحية يحلونها من نواحى الأرض ، فهو فضلا عن أنه يعلى من قدر الإسلام إلى أرفع محل ، يضيف إلى علم الاجتماع صفحة مجيدة فى تاريخ الروابط الإنسانية ، وحالة فذة من حالات قيام الجماعات ، وهى قيام أمة عالمية غير ملحوظ فى تـكوينها ما كان يعتبر أسسا للاجتماع من وحدة الجنس واللغة والبيئة ، فهى أمة مبادىء وأصول ومقاصد عامة ، لا أمة جنس ولا لسان ولا وطن . هـذه الأمة العالمية هى المثل الأعلى لمـا سيكون عليه سكان الـكرة الأرضية قاطبة ، حين تسمو عقلياتهم ، ويدركون أن الأرض لله ، وأن هذه الفروق بين أهلها فى اللون واللغة والبيئة ليست فروقا طبيعية توجب بينها الخلاف والتناحر ، ولـكنها فروق سطحية أوجبتها سعة الأرض وبعد الاتصالات ، وتباين اللهجات . فإذا بلغت الجماعات البشرية هذه الدرجة

من الفهم ، حدث تعارف عام بين البشر ، وتلاه سلام لا يعكر صفوه معكر من أى نوع كان . فان لم يصل العالم كله إلى هـذه الدرجة من السمو ، وصلت اليه على القليل جماعات راقية يمكنها أن تبلغ المدنيـة إلى أرفع مكاناتها ، وتحميها شر عدوان المنابذين لها . فهذا المثل الحى الذى ضربه الإسلام للناس ومضى فى تحقيقه إلى أبعد حد ، يجب أن يدونه علم الاجتماع فى أولى صفحاته ، ولا يكون ذلك إلا إذا أدركه المسلمون ونوهوا به ، وبينوا صحته بالأدلة القاطعة . وأى مسلم تعوزه الأدلة على هذا الأمر المقرر فى النصوص الكتابية ، والمعزز بالحوادث التاريخية ؟ . ومما هو أبعد من كل ما مر أثرا فى تنزيه المجتمع الاسلامى من شوائب الرعونات البشرية ، أن الله طبعه بطابع إلهى ، فجعل مهمته القيام على خلافته فى الأرض . وهذه تقتضى التخلق بأخلاق الله فى معاملة عباده ، والسير على سنته فى العناية بمخلوقاته . وهى مهمة خطيرة ذات تبعات كبيرة ، فيقول تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى ندب هذه الأمة لخلافة إلهية عالمية ، أنه ناط بها مهمة الهيمنة على الناس كافة ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . فالأمة الإسلامية أمة منتدبة من الحق لخلافة الله فى الأرض ، وليس فى هـذا الأمر ما يجرح كبرياء أمة من الأمم ، ولا ما يحط من عزتها وكرامتها ، لأن واضع هذا الانتداب سبحانه ، لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ، ولا وقفا على جنس من الأجناس ، ولم يشترط له بيئة من البيئات ، ولكنه جعله للجماعة التى تدين بشرائطه المقررة ، وأصوله المعينة من أى جنس كان آحادها ، وفى أى بقعة من الأرض تأسست دولتها : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ولم يجعل الله تلك الأصول والمبادىء مناسبة لأمة دون أمة ، أو مسايرة لعادات قوم دون آخرين ، ولكنه فرضها أصولا أولية خالدة ،

ومبادىء أساسية عامة ، مما تعترف كل أمة بأنها أرقى الأصول وأقوم المبادىء ، لا تصلح لزمان دون زمان ، ولا تلائم حالا دون حال .

إن ندب مثل هذه الأمة لتمثيل الحق الخالص والقيام به ، لو نظر اليه نظراً فلسفيا لوجد طبيعيا من كل وجه ، فإن الحقائق العلمية ، والفتوح العقلية ، لا تفتأ تجمع قلوب الأيقاظ من الناس حولها فى كل بيئة من بيئات الأرض ، وتؤلف منهم أمة شائعة فى جميع الأمم ، بحيث لو اجتمعوا فى صعيد واحد لكونوا أمة مختارة تدين للحق وتقدسه ، وتتعطش إلى المزيد من نوره ، وتعمل على إقامة دولته فى الأرض .

بعد أن بين الله عز وجل أنه بوأ لبنى إسرائيل فى الأرض مبوأ صدق ، وأنهم اختلفوا ، وتركوا الدين الحق ، والشريعة المطهرة ، وضلوا وأضلوا ، وبغوا فى الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب فى الدنيا ، ذكر أنه عز وجل سوف يقضى بينهم فيما كانوا يختلفون فيه من أمور الدين وأمور الشريعة ، ويؤكد الله عز وجل رسالة محمد وصدقها ، فيطالب الممترين فيها ، بأن يرجعوا إلى أصحاب الكتب السماوية القديمة ، ليسألوهم : هل رسالة محمد رسالة قد بشر الله عز وجل بها الأنبياء فى الكتب السماوية المقدسة أولا؟ ويزيد الله عز وجل أمر صدق محمد وصدق رسالته تأكيداً ، فيقول للرسول ولأمته : لقد جاءك الحق من ربك . ويخاطب كل مسلم فيقول : فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ، فالمكذبون بآيات الله سوف ينالهم غضب الله وعذابه الشديد الأليم ، ويشير الله عز وجل هنا إلى قوم يونس ، آمنوا آخر الأمر برسالة نبيهم ، فكشف الله عنهم العذاب فى الدنيا ، وعاشوا قليلا ، حتى أدركتهم آجالهم ، ثم قضوا ومضوا إلى الله ورحمته . . ويقرر الله عز وجل أن من طبيعة الحياة الإنسانية أن يوجد المؤمن والكافر ، ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا ، أفيستطيع محمد أن يكره الناس حتى يصبحوا جميعا مؤمنين ؟ لقد كان الرسول شديد الحرص على دعوة قومه إلى

الإيمان وعلى أن يؤمنوا برسالته ، وكان مظهره فى ذلك مظهر من يظن أنه يستطيع أن يكره الناس حتى يصبحوا مؤمنين ، فرد الله عز وجل عليه ذلك ردا بليغا ، فما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، والعذاب للذين لا يعقلون ولا يؤمنون . . ويطالب الله عز وجل المشركين بأن يعتبروا بما فى السموات والأرض ، وأن يتعظوا بكل شىء ، وإن كانت الآيات والنذر لا تغنى شيئا عن قوم لا يؤمنون ، وليس لهم إلا النهاية المحتومة التى كانت للأمم البائدة التى أهلكها الله ودمرها تدميرا ، ونجى رسلها والمؤمنين بهم ، والله عز وجل لا يترك مؤمنا به إلا ويكتب له النجاة فى الدنيا والآخرة . .

وهنا يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم ليعلن فى الناس عامة ، والبشر جميعا أن الإسلام مبنى على التوحيد الخالص ، وأنه برىء من الشرك والمشركين: « قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد ما تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين » ، ويوصى رسوله الكريم بوصية جامعة فيقول له : « وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين » ، ويرشده إلى وجوب التمسك بعقيدة الإسلام الصافية الطاهرة التى تؤمن أن الخير كله بيد الله ، وأنه عز وجل هو الضار النافع فيقول له : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

ويعلن الله عز وجل رسالة محمد إلى الناس كافة : إعلانا بعد إعلان ، فيطالب رسوله بأن يعلن فى الناس صدق رسالته ، وأنها من عند الله ، وأن كل إنسان سوف يحاسب على عمله ؛ ويدعوه إلى الصبر حتى يفصل الله فى الأمر بينه وبين المشركين ، فيقول له عز وجل فى ختام سورة يونس : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ، واتبع ما يوحى إليك ، واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » . .

إن آخر سورة يونس قد جمع كثيراً من الأصول الجامعة فى الإسلام ، واحتوى على دعوة كريمة من الله بالدخول فى الإسلام ، وعلى تلخيص كامل لهذه العقيدة الإنسانية المهذبة المطهرة ، وعلى شرح لأصول الإسلام عامة ، وما فيه من توحيد ، وعبادة الله وحده ونبذ للأوثان ولكل مظاهر الشرك بالله . . كما احتوى على دعوة الرسول إلى لزوم هذه العقيدة والصبر على مشاق تبليغها والدعوة إليها ، حتى يحكم الله عز وجل بينه وبين قومه وهو خير الحاكمين .. وقد حكم الله بينه وبين قومه ، فنصره وأعز دينه ، وخذلهم وخذل ما كانوا يعبدون ...

(٣)

وبعد فهذه سورة يونس ، هذه السورة المكية الجليلة ، التى اشتملت على دعوة الناس إلى الإسلام ، وعلى تقرير صدق القرآن الكريم ورسالة محمد عليه السلام ، وعلى تأكيد أمر البعث والحساب والجزاء ، كما اشتملت على ذكر ألوان من أباطيل المشركين واقتراحهم على الرسول ، ومن ذكر طبائع النفس الإنسانية ، وتسرب الشك والكفر والإلحاد والشرك إليها ، ومن قص قصص بعض الأنبياء عليهم السلام وجهادهم مع قومهم ، ليكون فيها عظة وعبرة للمعتبرين ، والسورة نمط رفيع من البلاغة ، ووحدة واحدة من الانسجام والذوق والفن والأسلوب والفكرة .. ودراستها دراسة أدبية أودينية تحتاج إلى كثير من الجهد والوقت ، فنكتفى بتلك العجالة فى هذا المقام . . والله ولى التوفيق ، وما توفيق إلا بالله ؟

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاة الله وسلامه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

وبعد فهذا هو الجزء الحادى عشر من تفسيرى لكتاب الله ، وقد اشتمل على تفسير سورتى التوبة ويونس ، وتجلية معانيهما ، وشرح أسرار البلاغة والبيان فيهما .

وليس لى من فضل فيما صنعت ، ولا من جهد فيما قدمت أو أخرت ، إنما الفضل كله لله وحده ، فهو رب الفضل العظيم .. إليه دعائى وثنائى ، ونحو ساحته أوجه إخلاصى وولائى ، ضارعا إليه وحده أن يوفقنى إلى صالح القول والعمل ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

المؤلف

فهرست

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الكريم

للمؤلف

قصـة الأدب في مصر - ٥ أجزاء

« « المعاصر - ٤ «

تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً

ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحياة الأدبيـة في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥٢٠ «

الشعر والتجديد

مواكب الحرية في مصر الاسلامية

في ظلال الاسلام - بالاشتراك

التراث الروحي للتصوف الاسلامي في مصر

بين الشيوعية والاسلام

توزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة
٣ شارع ماسبيرو بالقاهرة

ص
٤٠

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ــ ت : ٥٠٨٥٢